

فهد المارك

الجزء الثالث

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتبتها
دمشق

و

المكتبة الدولية
الرياض

الطبعة الرابعة
١٤٠٨ ب. هـ. ن - ١٩٨٨ ب. م

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتبتها
لصاحبها
محمد مفيد بن عزة النجيمي
الجمهورية العربية السورية
دمشق - ساحة النجمة - هاتف ١١٥٣٧٦

المكتبة الدولية
المملكة العربية السعودية - الرياض
العليا - شارع الثمانين - مجمع الخليج التجاري
هاتف: ٤٦٤١٨٥١ - ص. ب ٢٢٣٤٨

الفَصْلُ الأول

الشجاعة الحربيّة

أتدعو جواداً من يجود بماله ومن جاد بالنفس الكريمة اجود

رائد المجاهدين وشيخ الشهداء

- ١ -

اذا كانت الشجاعة من حيث هي وأنى كانت صفة من الصفات المحمودة التي تفرض الاحترام لصاحبها ، فان الشجاعة في سبيل الله ثم في سبيل الوطن سوف ينال صاحبها خلود الذكر الابدي العاطر في هذه الدنيا وشرف الشهادة في دار البقاء .

ولئن كان هذا الفصل بالذات خاصاً بشجاعة الحروب بالمفهوم العام ، سواء ما كان منها في سبيل مجد القبيلة او ما كان في سبيل المجد الفردي فان بطل هذه القصة بالدرجة الاولى وبطلي القصتين اللتين بعدها يمتازون بلا شك على غيرهم من حيث سمو الهدف ونبل القصة وشرف الغاية .

ومما لا شك فيه باننا كعرب بعد كارثة فلسطين ، نزلت اسهمنا بين شعوب العالم ، ولم يسبق لنا من مجد تاريخي ما عدا ما نجتره من مجد اسلافنا الغابرين ، حتى اصبح المرء منا يخجل من ان يقول عن نفسه بأني عربي ، الى ان جاءت ثورة الجزائريين ، الذين بيضوا وجه امة العرب واعادوا لنا الثقة بانفسنا من جديد بوقوفهم امام حلف الاطلسي باسلحته الحديثة وبقهرهم لدول الاستعمار الذين تكالبوا عليهم وفي طليعتهم دولة فرنسا التي عرفت بانها من اشد دول الاستعمار غطرسة وكبرياء ولكنها بالتالي حنت رأسها ذليلة مهانة امام شجاعة اخواننا الجزائريين ، الذين سجلوا تاريخ بطولتهم بمداد من المجد الخالد ..

ولئن كانت الجماهير العربية لا تذكر ما تفخر به خاصة في القرن العشرين سوى كفاح ونضال ابناء عمنا الجزائريين ، وتنسى ما قام به اخواننا الليبيون من بطولات خارقة ، فان التاريخ لا ينسى كفاح اولئك الابطال الاشاوس ..

وعندما ننظر الى البطولة التي قام بها الجزائريون بعين ملؤها التقدير والاعجاب ، ومن ثم نرجع البصر كرة اخرى الى البطولة التي ابداها الليبيون امام قوى الشر والطغيان والظلم الطلياني ، عند ذلك لا يسعنا الا ان ننظر لهؤلاء نظرة الاعجاب والتقدير نفسها التي ننظر بها اولئك .

اما ان يكون النصر حالف الجزائريين بنسبة اكثر واسرع مما حالف به الليبيين ، فهذا امر يعود الى عامل الزمان الذي بقدر ما كان مساعدا بجانب الجزائريين كان معاكساً لليبيين .

فالفرق بين الجانبين يأتي كما يلي :

اولا — بينما كانت قيادة الجزائريين موحدة ، كانت قيادة الليبيين مبعثرة ، — فالمجاهدون الذين في ولاية طرابلس الغرب ، قيادتهم منفصلة عن المجاهدين الذين في برقة ، بل واكثر من ذلك مجاهدوا ولاية طرابلس أنفسهم لم تكن قيادتهم موحدة ، بل كان الشقاق بين القادة بالغاً اوجه وهم في ساحة الحرب .

ومما لا شك فيه انه لو اتحد الطرابلسيون والفزانيون والبرقاويون تحت قيادة موحدة كما هي الحال باتحاد قيادة الجزائريين لما استطاع المستعمرون الطليانيون ان يستولوا على شبر من ارضهم .

ثانياً — بينما كانت الحرب الجزائرية الفرنسية في الحين الذي كانت الدول

العربية وشعوبها اكثرها او كلها تمد الجزائريين بالسلاح وبالمال .. ولو طلب الجزائريون رجالا متطوعين من اخوانهم العرب لوجدوا كثيراً من يشاركهم ، الا ان الجزائريين انفسهم كانوا لا يطلبون من اخوانهم الا السلاح والمال اللذين كانا يتدفقان عليهم من اخوانهم كواجب مقدس ..

بينما كان الليبيون محرومين من ذلك لاسباب كثيرة وفي مقدمتها او يكاد ان يكون السبب الرئيسي هو انه لم يكن هناك دول عربيه مستقلة عندما اندلعت نار الحرب بين المستعمرين الطليانيين وبين المجاهدين الليبيين في اواخر شهر سبتمبر ١٩١١ بل كانت البلاد العربية مشتتة فمنها ما هو تحت الاستعمار الفرنسي كالمغرب العربي وتونس والجزائر .. هذا بالنسبة للبلاد العربية المجاورة والقريبة لليبيا .. اما البلاد الاخرى كسورية ولبنان والاردن وفلسطين والعراق فهذه البلاد كانت في بداية الحرب الليبية الطليانية تحت الحكم التركي وحتى ليبيا كانت تحت الحكم التركي ، وقد حاولت تركيا ان تدافع عن البلاد التي في حوزتها محاولة يائسة حيث تولى القيام بالعمليات الحربية انور باشا الذي كان نائباً للقائد العام للجيش التركي في الحرب العالمية الاولى . وكان في معيته مصطفى كمال (اتاتورك) وعزيز بك المصري ، ولما كانت الحكومة التركية في ذلك العهد تلفظ آخر انفاسها ومشغولة في التيارات الداخلية المتضاربة وفي الحروب البلقانية فانه من بدهيات الامور ان تزيح عن نفسها عبء المسؤولية في الحرب الليبية الطليانية وذلك بموجب المعاهدة التركية الطليانية الكائنة في اوشي (لوزان) في ١٨ اكتوبر ١٩١٢ وتنص تلك المعاهدة على ايقاف الحرب بين الدولتين ، وان تتعهد الحكومة التركية بأن تسحب ضباطها وجنودها بل وحتى موظفيها المدنيين من ليبيا ، او ما يسمى ذلك الوقت بطرابلس الغرب .

ومن الواضح ان هذه المعاهدة على حساب الشعب الليبي وتعني بعبارة اوضح تسليم ليبيا للطليان ، وبموجب هذه المعاهدة المشؤومة رحل الجيش التركي عن

البلاد بقيادة انور باشا وقبل ان يغادر القائد انور البلاد ، ذهب الى السيد احمد الشريف السنوسي ليبلغه ان الخليفة منح ليبيا استقلالها الكامل على ان يدافع رجالها عن وطنهم وانـــه اي السيد الشريف هو الحاكم الشرعي للبلاد (بحكم ان الملك ادريس الحالي كان حديث سن وقتها) ، وواضح ان هـــذا الامر يحمل في طيه ظاهرتين مزدوجتين : فهو من حيث الظاهر المجازي منح ليبيا استقلالها على رأي (خليفة رب العالمين) ولكنه من حيث الواقع العملي هزيمة شنعاء وجبن صريح من الاتراك عن ملاقاة العدو ، ولكن هذا الاستسلام والتخاذل والجبن من الحكومة التركية ، هل فت في عضد المجاهدين البواسل الليبيين ؟ .. ام انهم اندفعوا اكثر بعزيمة صادقة ونضال الابطال الاشاوس امام جيش الطليان الذي يفوقهم عدداً وعدة ، ويفوقونه شجاعة وصبراً وجلداً وتضحية وايماناً .

عندما ذهب القائد التركي انور باشا الى استنبول ، وولى السيد احمد السنوسي القيادة العسكرية في الناحية الشرقية لعزيز بك المصري ، واما الناحية الغربية فقد كان يتولى قيادة المجاهدين رجال من أهل البلاد انفسهم .

اذا كانت الجماهير تنسى فان التاريخ لا ينسى

وفي ١٦ مايو ١٩١٣ حشد الطليانيون اكبر قوة عندهم ليضربوا بها المجاهدين لكي يحتلوا الجبل الاخضر ولكن المجاهدين الابطال صدوا هجومهم وهزموهم هزيمة شنعاء .

وعندما شعر الطليان بان كثرة عددهم وضخامة معداتهم الحربية تحطمتا امام شجاعة ابطال ليبيا ، عند ذلك راحت حكومة ايطاليا تبذل مساعيها السياسية من جانبين : جانب الحكومة التركية لتضغط عليها من اجل ان تسحب عزيز المصري وما تبقى لها من جنود ومعدات .. ومن الجانب الآخر

راحت تسعى نحو الحكومة المصرية التي تعتبر وقتذاك حكومة انجليزية ، لـكي تمنع اي امداد يأتي الى المجاهدين ، وقد كللت مساعيها بالنجاح ، عند كلتا الحكومتين ، فاما من خصوص الحكومة التركية فقد اصدرت امرها الى عزيز المصري لا ان ينسحب من الجبهة بمفرده فحسب ، بل لينسحب بكامل معداته الحربية وما تبقى من الجنود الاتراك ، وقد نفذ المصري الامر بحـــذافيره ، وعندما بلغ السيد احمد الشريف السنوسي الخبر بأن عزيز المصري اعد العدة وذهب بجنوده ومعداته الى السلوم لـكي يركب في الباخرة بحراً الى الأستانة ، انتدب السنوسي شيخ الشهداء عمر المختار بأن يلحق به ليأخذ منه المعدات التي هم بأمس الحاجة اليها ، ولكن المصري امتنع عن ان يسلمها للمجاهدين ، بحجة ان تسليم الاسلحة التي مع جنوده الى المجاهدين الليبيين لا يتفق مع الاصول الحربية التي تقضي بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا بـــأن لا يسلم الجيش العثماني اسلحته الى اعداء ايطاليا ، ومن ناحية اخرى يرى انه ينفذ الاوامر التي وصلت اليه من حكومة (الاستانة) .(١)

هذه نتيجة مساعي الطليان تجاه حكومة تركيا ، اما مساعيهم تجاه حكومة الانجليز فقد نجحت ايضاً نجاحاً ملحوظاً بصورة جعلت حكومة مصر او على الاصح المعتمد البريطاني (اللورد كتشنر) يتخذ اجراءات صارمة من شأنها منع جميع من اراد ان يتطوع من الضباط او الجنود المصريين بجـانب المجاهدين الليبيين ، كما اتخذ اجراءات مماثلة نحو رؤوساء القبائل المصرية المتاخمة للحدود الليبية ، وفي الوقت نفسه بدل المأمورين المصريين الذين عـــلى رأس الحدود المصرية الليبية بمأمورين انجليز ، ومهمة هؤلاء الانجليز هي منع اية قافلة

---

(١) . هذه الجملة نقلتها برمتها عن الكتاب الذي بعنوان (عمر المختـــار ضحية الاستعمار الوحشي) . ص ٥٤ لمؤلفه الاستاذ محمود شلبي .

ذاهبة من والى مصر وليبيا ..

هذه هي حالة المجاهدين الليبيين – مقاطعين من جميع العالم مقاطعة اقتصادية واجتماعية وحربية ، بكل معنى من معاني المقاطعة ، والدولة التي كانت تحكمهم تخلت عنهم ، وقائـد عملياتهم سافر بجنوده ومعداته ..

يضاف الى ذلك الوباء والمجاعة اللذان حلا بالبلاد . في عـــامي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، حتى بلغ الامر الحد الذي لايمكن ان يتصوره العقل او يطيقه احتمال الانسان ..

هذهْ الظروف الشديدة القاسية التي عاشها الليبيون عندما نتدبرها بامعان نجدها تختلف من حيث الزمان والمكان عن الظروف التي عاشها الجزائريون ، وتختلف ايضاً حتى بنسبة الاعمال الوحشية والقتل والابادة ، لا شك بأن الفرنسيين وحوش وقتلة ، ولكن الطليان اكثر وحشية واحقر واندل من الفرنسيين ، فاذا كان الفرنسيون قتلوا مليونا من مجموع الجزائريين الذين يبلـغ عددهم احد عشر مليوناً فان الطليان قتلوا من الليبيين ما يقارب ستمائة الف نسمة ، ومعناه انه اذا كان الفرنسيون ابادوا عشر الجزائريين ، فان الطليان ابادوا – ما يقارب ربـع الليبيين ..

ولكن رغم هذا كله ، لم تلن لليبيين قناة ، بل ظلوا يتحدون قوة ايطاليا ، بكل ما اوتوا من قدرة معتمدين على قوة ايمانهم بالله وبأنفسهم ، وعندما تخلى نور باشا عن القيادة وهرب من المعركة بالسلاح عند ذلك تولى قيـــادة المجاهدين في برقة :

الشهيد الخالد حقاً

بطل الابطال وسيد شهداء قرننا الحالي ورائد المجاهدين العرب في القرن

العشرين ، عمر المختار الذي قدم لأمته اروع امثلة البطولة بكفاحه ونضاله الذي بدأه من عام ١٩١١ الى ان لقي ربه عام ١٩٣١ ، عشرون عاما وعمر المختار حاملا سلاحه مقاتلا ومناضلا بحافز من عقيدته الروحية وفي سبيل وطنه ومن اجل الحرية التي استشهد في سبيلها ، عرض عليه المستعمرون المال فركله برجله، واغروه بالجاه فنأى بجانبه عنه ، وخير بين رغد العيش الهنيء وراحة البدن وحياة الترف ، وبين عناء الكفاح الشاق وميتة الابطال الشهداء ، فاختار الاخيرة كما شهد له بذلك امير الشعراء احمد شوقي :

خيرت فاخترت المبيت على الطوى ... لم تبن جاهاً او تلم ثراء
ان البطولة ان تموت من الظما ... ليس البطولة ان تعب الماء

واعظم شيء يؤسفني هو اننا نجد كثيراً من جيلنا العربي لا يعرف حياة ابطال امته العربية كخالد بن الوليد وكعبد الله بن الزبير وكصاحب الترجمة بقدر ما يعرفه عن نابليون وامثاله من القادة الاجانب ، ولو طلبت منه مثلا ان يقارن بين شجاعة وبطولة كل من ابن الزبير وعمر المختار ، فالاول كان في العقد الثامن من عمره عندما حاصره الحجاج في مكة وتخلى عنه جميع اعوانه وظل يقاتل بمفرده دون ان يستسلم او تخور عزيمته الى ان قتل في ميدان الشرف وما يقال عن ابن الزبير يقال عن عمر المختار الذي هو الآخر في نهاية العقد الثامن ومع ذلك ظل يقاتل بعدد محدود من رفاقه البواسل الذين ينقص عددهم يومياً حتى كانت النهاية الابادة ، ومع هذا كله ظل يقاتل دولة ايطاليا الاستعمارية بجيشها اللجب وبطائراتها ومصفحاتها وكامل معداتها وامداداتها التي لا تنقطع ، يضاف الى ذلك بأنه محاصر من شتى الجهات ومضروب عليه في صحرائه سياجاً من الاسلاك الحديدية، لا يتصل بأحد ولا يتصل به احد .. فراشه الارض الجبلية ، وغطاؤه السماء وقوته الشيء الذي يفترسه من ايدي اعدائه ، كما لم يملك من السلاح الا ما يغنمه من ايدي الغزاة المعتدين ، ومع

ذلك نجد عمر المختار ورفاقه الابطال ظل يقاتل بدون ان تلين له قناة او تخور له عزيمة او يتسلل الى قلبه الطاهر الالمعي يأس او يخطر بباله اي نوع من انواع القنوط ، بل ظل يناضل الى آخر نقطة من دمه ..

اقول : .. لو قلت لبعض شباب العرب الذين خدعتهم الدعاية الاستعمارية : قارنوا بين نابليون الاول الذي يعتبره الفرنسيون بطل فرنسا الفــذ كما يعتبره الاوربيون مفخرة من مفاخر اوروبا باسرها ، قارنوا أيها الشباب المخدوع بين نابليون الذي بمجرد ما هزم في معركة واترلوا في عام ١٨١٥ استسلم بدون قيد ولا شرط ، - استسلاماً مفعماً بالجبن ومليئاً بالخنوع والذلة طمعاً بالحياة الفانية ، تلك الحياة التي عاشها في منفاه في جزيرة (سانت هيلانه) في جنوب المحيط الاطلسي ذليلا مهانا ، على الرغم من ان نابليون عندما خارت عزيمته واستسلم كان لا يزال شابا ومن عادة الشاب ان يكون دافق الحماس اشم الانف قارنوا بين خنوعه كشاب واستكانته كرئيس دولة عظمى ، واستسلامه كقائد عسكري دون ان يحتفظ بشرفه العسكري بشرط يصون كرامته العسكرية ، وبين اباء وعناد وشمم وجلد وعزة نفس كل من ابن الزبير الذي كــان في سن الثمانين وعمر المختـــار الذي وصفه احمد شوقي برثائه له بأنه في سن التسعين :

تسعون لو ركبت مناكب شاهق   لترجلت هضبـــاته اعيــاء

اجل قارن بين بطولة وشمم هذين القائدين ، وبين جبن واستسلام نابليون ، واذا انتهينا من المقارنة بين هؤلاء كأفراد ، ينبغي لنا ان نعود ونقارن بين فرنسا كشعب عندما هاجمها الجيش النازي وحينما خنعت واستسلمت له وهي بكامل جيشها العرمرم ومعداتها الحربية الثقيلة من طائرات ومصفحات ودبابات ومن وراء ذلك كله خط (ماجينو) الحصن المنيع ، اضف الى ذلك بأنها لم تحارب منفردة بل يقف بجانبها بريطانيا العظمى التي كانت تعتبر الدولة الاولى وقتذاك

ومع هذا كله ماستطاعت ان تثبت امامعدوها الا اياماً لا تتجاوز المدة التي عقد فيها شروط الاستسلام بينها وبين قادة الجيش النازي الفاتح ..

أعيد العبارة مرة ثانية وثالثة فأقول : قارنوا بــين جيش فرنسا الذي يعد بالملايين كيف انهارت تلك الدولة وخارت عزائم قادتها ، وقارنوا بين صلابـة وقوة الشعب الجزائري العربي الذي تصدى لحرب جيش فرنسا ومن ورائــه جيوش حلف الاطلسي الجبار الذي اعــد لمحاربة روسيا ، وبالتالي هزمه الجزائريون الابطال ، ثم ارجعوا البصر كرة اخرى وقارنو ايضاً بــين شقيقه وسلفه الشعب الليبي الذي ظل حاملا السلاح مدة تزيد على عشرين عاماً امــام الجيش الطلياني الذي ما استطاع ان يثبت بالحرب العالمية الثانية بجانب حليفته المانيا في الساعة الحرجة التي يفرضها الشرف العسكري كحليف ان يقف بجانب حليفه الى آخر رمق ..

فهل لكم ايها الفخورون بمجد اعدائكم والزاهدون بمجد اسلافكم ان تقارنوا بين بطولة وجد ومثابرة اولئـك العرب الاشاوس الذين مضوا في كفاحهم سنين طويلة الى أناخذوا استقلالهم بالسيف، وبين جبن وهلع وخنوع كل منالفرنسيين والطليان . !؟

اجل اننا عندما نقارن بين الجانبين سواء من الناحية الجماعية او من الناحية الفردية ، فاننا سوف نعرف بلا شك ان الدعاية الاجنبية المسعورة لعبت دورها الخطير لا بتشويه الحقيقة عند الاجانب انفسهم ، بل وعنــد بعض من جيلنا الحديث الذين خدعهم المستعمرون وبهرتهم مظاهر الحضارة الغربية حتى بلــغ الامر بهم ان استحسنوا كل قبيــح من الاجانب واستقبحوا كل حسن وجميل لامتهم العربية ..

انني اعتقد جازماً بأن العربيالذي يسخر ويهزأ بمجد وتراث وشيم وبطولات

امته العربية ويفخر بمجد اعدائه ليس جاهلا لتاريخ أمته وعاقاً لها فحسب ،بل خائناً لاهله ولأمته ، والمسؤولية بهذا الصدد تقع على رجـال الفكر والخطباء وحملة الاقلام من صحفيين ومؤلفين ، وعلى مناهج التدريس ، كل هؤلاء مسؤولون عن تنوير الجيل وتصحيح مفاهيمه ..

وفي سيرة عمر المختار وكفاحه ما هو جدير بأن يفخر به كل ع[illegible] ان يتخذ الجيل من نضاله قدوة صالحة يهتدي بها المناضلون ونموذجا رفيعا يقتدي به المكافحون ..

حينما يكون الاسد في قبضة الثعالب

واذا شاءت الامة العربية ان تفخر برجالها الافذاذ فان عمر المختار سيكون في طليعة الابطال الذين ستفخر بهم امتهم ..

لقد ظل المختار يقارع جيوش الطغاة الطليان كما اسلفنا عشرين عاماً ونيفا ، اي منذ اطلق الاسطول الايطالي قذائفه على الموانيء الليبية في سنة ١٩١١الىأن لقي ربه شهيداً خالداً .

والذي اطلع على ما ذكرهالاستاذ محمداسد(١) في كتابه (الطريق الىمكة) عندما غامر اسد وتسلل حتى وصل المختار ، يبدو له الامر واضحاً بأن الرجل كان مصمماً على ان لا يتخلى عن كفاحه للغزاة المعتدين على بلاده حتى يدفن بها شهيداً قرير العين ..

وقد تم للمختار ما يتمناه ، وذلك عندما اراد الله ان يختم له بالشهادة ..

كان ذلك في يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ عندما سقط الاسد الجريح بيد الثعالب واليك تفصيل الحادثة نقلا عن الاستاذ محمود شلبي في كتابه (عمر المختـــار) يقول : ان المختار كان قد جرى على عادة الانتقال في كل سنة من مركز اقامته

(١) – هو الكاتب النمساوي الهروانير الذي اسلم وعاش حياته في الحجاز ثم ارتحل الى سويسرا بسبب الشيخوخة

الى المراكز الاخرى التي يقيم فيها اخوانه المجاهدون ليتفقد احوالهم ، وكان اذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارىء ويأخذ معه قوة كافية لمواجهة العدو الذي يتربص به ! لدوائر في كل زمان ومكان ، ولما اراد الله ان يختم له بالشهادة ذهب في هذه السنة كعادته في نفر لا يتجاوز عددهم مائة فارس ، ولكنه عاد فرد من هذا العدد ستين وذهب بأربعين ..

ويوجد في الجبل الاخضر واد اسمه (الجريب) وهو صعب المسالك كثير الغابات وكان لابد له من اجتيازه ، فمر به السيد عمر المختار ومن معه وباتوا فيه ليلتين ، وعلمت بهذا ايطاليا بواسطة جواسيسها المنتشرين في كل مكان فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات بعد ان جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة ، فما شعر عمر المختار ومن معه الاوهم في وسط العدو ورأى انه لا خلاص له من هذا المأزق الا بالهجوم ، فأمر من معه بالهجوم على من يقربهم من العدو في الجهة القبلية ، ودامت المعركة بينهما يومين كاملين ، وعلى الرغم من الاحتياطات الشديدة التي اتخذها العدو وعلى الرغم من كثرة عدده وعدته تمكن المختار ومن بقي معه من خرق صفوف العدو الى ان خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا الى غربي (سلطنة) ..

وبعد ذلك فاجأتهم قوة طليانية أخرى غير القوة الاولى التي حاصرتهم في الوادي ، وكانت ذخيرتهم على وشك النفاد ، فاضطروا الى مقاومتها في معركة جديدة اعنف من الاولى فقاتل المختار ورفاقه حتى قتل جواده وسقط تحته واصيبت يده بجراح وقاتل دونه رفاقه الابطال حتى ابيدوا جميعاً الواحد تلو الآخر، وبالرغم من ذلك استطاع المختار ان يتخلص من تحت جواده ويقاتل الظالمين الذين احاطوا به من كل جانب، ولكنهم لم يستطيعوا ان يدنوا منه حتى نفدت ذخيرته ..

وهكذا تم للثعالب ان تأسر الاسد الجريح ..

شجاعته وهو أسير وجريح مكبل بالاصفاد كشجاعته وهو حر طليق

عندما جيء به الى الحاكم الطلياني قال المختار :

(ان وقوعي في الاسر لا يضعف من حدة المقاومة لانني قد اتخذت تدابير مسبقة شأنها ان تكفل انتقال القيادة من بعدي الى رجال غيري .. ثم قال :

ان القبض عليّ اسيرا بيديكم ، ان ذلك تنفيذ لارادة المولى عز وجل وهو سبحانه وتعالى يتولى امري ، ثم ختم حديثه بقوله ، واما انتم فلكم الآن وقد اخذتموني ان تفعلوا ما تشاؤون وليكن معلوماً انني ما كنت في يوم من الأيام لاسلم لكم طوعاً ..

من الذي يتولى محاكمة المختار ؟ ..

كان الذي يتولىالبت في أمر عمر المختار طليانيسافلحقير يدعى (جرازياني) الذي كان وقتها حاكما على برقة ونائباً للمرشال (بادوليو) الحاكم العام لكل من برقة وطرابلس ..

ما أصعبه من امتحان عندما يقف بطل شهم مكبل بالسلاسل والاصفاد امام نذل حقير معدوم المروءة كهذا الطلياني القذر ، وقد دار بين الاسد المكبل والثعلب النجس الحوار الآتي :

الثعلب : – لماذا حاربت الحكومة الايطالية هذه الحرب الشديدة ..

الاسد : – لان ديني يأمرني بذلك ...

الثعلب : – هل كان لديك اي امل في انك سوف تستطيع اخراجنا من

البلاد بهذا العدد القليل من الرجال الذين يناضلون معك وتلك المعـدات القليلة التي تملكها ؟ ..

الاسد : – كنت مجاهداً وكفى ، اما ما ينجم من هذا الجهاد فالأمر فيه موكل الى الله وحده ..

الثعلب : – ولكني اعلم ان كتابك يفرض عليك جهاد الكفـــار اذا كان هناك امل فى النجاح والنصر فقط حتى لا يضر الاهلون او يلحق بهم الاذى .. هل يقول القرآن الكريم بذلك حقاً ..

الاسد : – نعم ..

الثعلب : – لماذا اذن حاربت ؟ .

الاسد : – لان ديني يأمرني بذلك ..

الثعلب : – هل امرت فعلا بقتل الطيارين اوبر بابيتي ..

الاسد : – نعم فان الرئيس وحده الذي يتحمل جميـع المسؤوليات والحرب هي الحرب .

الثعلب : – كم من الوقت يمكنك بما لك من نفوذ وصولة ان تخضع الثوار في الجبل ..

الاسد : – ابداً ابداً .. انني كأسير لا استطيـع ان افعل شيئاً وحتى لو اطلقتم سراحي لن افعل .. وذلك لاننا اقسمنا جميعا ان نموت واحداً بعد واحد ولا نستسلم بتاتاً .ومن المعروف انني لم اسلم نفسي اليكم ..

الثعلب : ماذا تقول لو ان الحكومة الايطالية رأفة منها بك سمحت لك بأن تعيش ؟ .. هل انت على استعداد لان تعد بأنك ستمضي ما بقي لك من ايامك في سلام ؟؟

الاسد : — لن اتوقف عن قتالك وقومك حتى تغادروا بلادي او افارق حياتي .. واقسم لك بالله الذي يعلم ما في القلوب انه لو لم تكن يداي مغلولتين في هـذه اللحظة بالذات ، اذن لقـاتلتك بيدي العزلاء انا الشيخ المحطم العجوز ..

الثعلب : - لا شك انك كنت طوال حياتك رجلا شجاعاً واني لارجو ان تظل شجاعاً مهما حدث لك او نزل بك ..

الاسد : — ان شاء الله ..

ويقول الرواة نقلا عن الثعلب بل الفار القذر الطلياني : ان البطل عمر المختار فهم من تلك العبارة وفي تلك اللحظة مصيره المحتوم ..

* * *

من المعلوم ان هذا الحوار الذي جرى بين البطل عمر المختار وبين الطلياني لم ينقل الينا الا من جانب واحد وهو الجانب الطلياني الخبيث ، ولذلك ليس مستبعداً ان يكون هذا الكلام محرفاً ، وان لا يوضع فيه الا ما كان ملائمـاً لاهواء الخبثاء ، ولكن الشيء الذي يعترف به الحقير «جرازياني» نفسه هو انه عرض على الشهيد الفارس عمر المختار عفواً شاملا لقاء ان يكتب المختار بتوقيعه ندا للمجاهدين يدعوهم فيه الى الكف عن القتال والمقاومة ويطلب اليهـم ان

يسلموا انفسهم واسلحتهم لحكومة الاستعمار الطليانية الطاغية ، ولكن المختار رفض ذلك لاسباب اوضحها الجرازياني بذاته وهي ان المختار قال : ان مثل هذا العمل لا يرضى عنه ضميره ولا دينه ..

وهكذا خير المختار بين الموت شهيداً ، او الحياة مع الذل والاستكانة ، فاختار الاولى على الثانية .

اليتم والفقر عاملان رئيسيان من عوامل النجابة

يحدثنا التاريخ بكل امانة وصدق بأن جميع العظماء البارزين اما ايتام واما فقراء ومن النادر جدا ان يبرز بالنجاة ابناء الاثرياء والاسر الغنية الموسرة ، ونحن كآباء نحرص بدافع الغريزة الابوية ان يعيش ابناؤنا في كنفنا عيش الهناء والرخاء ، ونخشى كثيراً ان نرى ابناء اصدقائنا ايتاما ، ولا تتحمل عاطفتنا قطعيا ان يعيش ابناؤنا ايتاما بل قد لا يحب الانسان الحياة الا من اجل ان يتولى تربية ابنائه .. وكل منا يخيل اليه انه اذا توفي وترك من خلفه اطفالا بدون ان يخلف لهم ما لا يقوم بأودهم فانه سوف يناهم من العناء والتشريد الشيء الكثير .. وهذا المنطق قد يكون فيه شيء من بعض الحقيقة ولكنه ليس بالحقيقة كلها ، بل قد يكون شعور الصبي باليتم هو الحافز له الى النجابة والنبوغ والاعتماد على النفس ، واذكر انني قرأت عن حياة ونشأة محمد علي باشا الخديوي ، انه عندما حضرت والده المنية ، كان يقول : (انني لست مهتماً الا بابني هذا الطفل الصغير – يشير الى محمد علي الذي ملك مصر وملكها لابنائه واحفاده واحفاد احفاده حقبة من الزمن) ..

بينما الملك فؤاد ووالد الملك فاروق يرى انه خلف لابنه ملكاً عظيما ولكن شتان بين فاروق الملك ابن الملك الخ .. وبين محمد علي ابن الصعلوك الذي نال مرتبته تلـــك من الجندية حتى انه عـــاش عمراً طويـــلا وهو لا يعرف

حروف الهجاء ..

وبطل قصتنا هذه عمر المختار واحد من اولئك الرجال الافذاذ الذين **عاشوا** ايتاما وعركهم الدهر ، وصهرتهم التجارب وتلقنوا دروسا من صميم الحياة العملية وطبقوها في سلوكهم وسيرتهم حتى اصبحت حياتهم درسا للاجيال كما اصبح موتهم شرفا رفيعا يضيفه كاتب تاريخ العرب وشيمهم الى سفره الخالد ويترنم برثائهم وتمجيدهم شاعر كأحمد شوقي وخليل مطران اللذين بقدر ما اجادا برثائهما للفارس المختار بقدر ما ارتفعت اسهم شوقي ومطران عند ناطقي الضاد بانشودتهما الخالدتين ..

واليك قصيدة امير الشعراء احمد شوقي وتليها مرثية شاعر القطرين خليل مطران ..

ركزوا رفاتك في الرمال لواء ... يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم نصبوا منارا من دم ... توحي الى جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد ... بين الشعوب مودة واخاء ؟
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية ! الحمراء
يا ايها السيف المجرد بالفلا ... يكسو السيوف على الزمان مضاء
تلك الصحارى غمد كل مهند ... ابلى فأحسن في العدو بلاء
وقبور موتى من شباب امية ... وكهولهم لم يبرحوا احياء
لو لاذ بالجوزاء منهم معقل ... دخلوا على ابراجها الجوزاء
فتحوا الشمال سهوله وجباله ... وتوغلوا فاستعمروا الخضراء
وبنوا حضارتهم فطاول ركنها ... دار السلام [1] وجلق الشماء [2]
خيرت فاخترت المبيت على الطوى ... لم تبن جاها او تلم ثراء
ان البطولة ان تموت من الظما ... ليس البطولة ان تعب الماء
افريقيا مهد الاسود ولحدها ... ضجت عليك اراجلا ونساء

(١) داز السلام هي بغداد .

(٢) جلق هي دمشق .

والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاء
والجاهلية من وراء قبورهم يبكون زيد الخيل والفلحاء[1]

* * *

في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة وسد الصحراء
لم تبق منه رحى الوقائع اعظما تبلى ولم تبق الرماح دماء
كرفات نسر او بقية ضيغم باتا وراء السافيات هباء
بطل البداوة لم يكن يغزو على (تنك)[2] ولم يك يركب الاجواء
لكن اخو خيل حمى صهواتها وادار من اعرافها الهيجاء
لبى قضاء الارض امس بمهجة لم تخش الا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جر الى القضاء رداء
شيخ تمالك سنه لم ينفجر كالطفل من خوف العقاب بكاء
وأخو امور عاش في سرائها فتغيرت فتوقع الضراء
الأسد تزأر في الحديد ولن ترى في السجن ضرغاماً، بكى استخذاء
واتى الاسير يجر ثقل حديده اسد يجرر حية رقطاء
عضت بساقيه القيود فلم يَنؤ ومشت بهيكله السنون فناء
تسعون لو ركبت مناكب شاهق لترجلت هضباته اعياء
خفست على القاضي، وفات نصيبها من رفق جند قادة نبلاء

---

(١) الفلحاء لقب عنترة العبسي .

(٢) التنك : الدبابة

والسن تعطف كل قلب مهذب عرف الجنود وادرك الآباء

* * *

دفعوا الى الجلاد اغلب ما جدا يأسو الجراح ويطلق الاسراء
ويشاطر الاقران ذخر سلاحه ويصف حول خوانه الاعداء
وتخيروا الحبل المهين منية لليث يلفظ حوله الحوباء
حرموا الممات على الصوارم والقنا من كان يعطي الطعنة النجلاء
إني رأيت يد الحضارة اولعت بالحق هدما تارة وبناء
شرعت حقوق الناس في اوطانهم الا اباة الضيم والضعفاء
يا ايها الشعب القريب اسامع فاصوغ في عمر الشهيد رثاء
ام الجمت فاك الخطوب وحرمت اذنيك حين تخاطب الاصغاء
ذهب الزعيم وانت باق خالد فانقد رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى واحمل على فتيانك الاعباء

مرثية شاعر القطرين خليل مطران

ابيت، والسيف يعلو الرأس، تسليما وجدت بالروح جود الحر ان ضيما
تذكر العرب، والاحداث منسية ما كان، اذ ملكوا الدنيا، لهم خيما
لله يا عمر المختار حكمته في ان تلاقي ما لاقيت مظلوما
ان يقتلوك فما ان عجلوا أجلا قد كان، مذ كنت، مقدوراً او محتوماً
هل يملك الحيّ، لو دانت له أمم لأمر ربك تأخيرا وتقديما
لكنها عظة للشرق ـ اوسعها مصابه بك في الاخلاد تجسيما
لعله مستفيق بعد هجعته او مستقيل من الخسف الذي سيما
اجدر برزئك لم تحذر عواقبه ان يفجع العرب تخصيصاً وتعميما
وان يؤجج نارا من حميتهم وان يرد فرند الصبر مثلو ما

هيهات نوفيك ، والأقوال عدتنا حقا ونوفي الصناديد المقاحيما
من الألى صبروا الصبر الجميل وقد ذاقوا الكريهين : تقتيلا وتكليما
لعل اشقـاهم الباقي على أسف وعلّ اروحهم من قـر مرحوما
قد أثموكم وكم من مثـلة نزلت بالابرياء وبالابرار تأثيما
وانما ذنبكم ذنب الألى جعـلوا صدق الهوى للحمى ديناً وتعليما
امضوا رفاقاً كراماً حسبكم عوضاً فخر عزيز على الخطاب ان ريما
قد سرتم في سبيل الخير سيرتكم محققين رجاء خيل موهومـا
لا حاكما دون ما اوحت ضمائركم تراقبون ولا ترعون محكوما
يحطم العظم منكم دون بغيتكم فما تهـون ويأبى العزم تحطيما
ليس الارادة الا من يكون على رأي ومن يتناهي فيه تصميما

* * *

ماالسجن؟حين يذاد الخسف عن وطن بعاره باء في الاوطان موصوما
يغني من الشمس في أعماق ظلمته برق من الأمل الموموق ان شيما
عدن على طيبها لو شيب كوثرها بظل باغ لعـاد الورد مسموما
ما الموت ؟ ان تلك منجاة البلاد به من غاصب وانتصاف الشعب مهضوما
هذا هو العيش والقسط العظيم به من خالد الفخر فوق العمر تقويما
ان الفداء لأغلى ما حمـدت له أخرى وان كان في اولاه مذموما
وما اعتدال زمان لايقومه بنوه بالصبر والاقـدام تقويما

* * *

ياسادة اطلعت مصر بهـم شهبا والليل خيم بالاحداث تخييما
فما وهوا للحمى عن واجب وبنوا للمجد فيه طرافاً كان مهدوما

أعزة ان بـدا من فضلهم أثر فكم لهم من جميل ظل مكتوما
وللفدى كالندى حال منزهـة في حكمها تنفس المجهول معلوما
شاركتم الجار في خطب الم به وما ادخرتم لشيخ العرب تكريما
كـذا تكافيء مصر العاملين بما يعدو الاماني تمجيداً وتعظيما
اكرم بها وهي تحني الرأس هاتفة تحيـة ايها القتلى وتسليما !

* * *

واليك ما ذكره الاستاذ محمد اسد عن عمر المختار ومقابلته الشخصية له ، وذلك عندما انتدبه السيد احمد السنوسي من المدينة المنورة ليذهب الى المختار في الجبهة ليسلمه رسالة من السيد السنوسي وذلـك بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٣١ ..

وهذا ما نقله لنا الاستاذ اسد في كتابه الطريق الى مكة ص ٣٥٩ وما يليها نصا حرفيا كما يلي :

« ما لبث عمر ان جاء على جواد صغير لفت حوافراه بالقماش ، وكان يحيط به راجلان من كل جانب ، ويتبعه كذلك عدد آخر وعندما وصل الى الصخور التي كنا ننتظر عندها ، ساعده احد رجاله على النزول ، ورأيت انه كان يمشي بصعوبة (عرفت بعدئذ انه قد جرح ابان احدى المناوشات قبل ذلك بعشرة ايام تقريباً) . وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن ان اراه بوضوح : كان رجلاً معتدل القامة قوي البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة وكانت عيناه عميقتين ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء ان يعرف انهما كانتا ضاحكتين براقتين في غير هـذه الظروف ، الا انهما لم يك فيهما الآن شيء غير الظلمة والالم والشجاعة ..

واقتربت منه لأحييه وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي :

– (مرحباً بك يا ابني) .. قال ذلك واخذ يجيل عينيه فيّ متفحصاً : لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي ..

وفرش احد رجاله حراماً على الارض فجلس سيدي عمر عليه متثاقلاً وانحنى عبد الرحمن ليقبل يده ثم شرع بعد استئذانه يوقد نارا خفيفة تحت الصخرة التي كنا محتمين بها وعلى ضوء النـار الخافت ، قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد احمد اليه .. لقد قرأه باهتمام وعناية ثم طواه ووضعه لحظة فوق رأسه ، وهي امارة من امارات الاحترام والحب لا يكاد المرء يراها فيّ جزيرة العرب ولكنه كثيراً ما يراها في شمالي افريقيا ، ثم التفت الي مبتسماً وقال :

– لقد اطراك السيد احمد ، اطال الله عمره ، في كتابه ، انت على استعداد لمساعدتنا ولكنني لا اعلم من اين يمكن ان تأتينا النجدة الا من الله العلي الكريم .. اننا حقاً على وشك ان نبلغ نهاية اجلنا ..

فقلت : – ولكن هذه الخطة التي وضعها السيد احمد ، الا يمكن ان تكون بداية جديدة ؟ واذا امكن تدبير الحصول على المؤن والذخائر من كفرة بصورة ثابتة افلا يمكن صد الايطاليين ؟ ..

لم ار في حياتي ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك الابتسامة التي رافقت جواب سيدي عمر : (كفرة .. ؟ لقد خسرنا كفرة ، فالايطاليون قد احتلوها منذ اسبوعين تقريباً ..) ..

واذهلني الخبر ، ذلك انني والسيد احمد طوال تلك الاشهر الماضية كنا نبني خططنا على افتراض ان كفرة يمكن ان تكون نقطة تجمع لتقوية المقاومة ، اما وقد ضاعت كفرة فانه لم يبق للسنوسيين سوى نجد الجبل الاخضر لاشيء

سوى كاشة الايطاليين التي كانوا يضيقونها بثبات واستمرار . . وخسارة نقطة بعد نقطة .. واختناق بطيء ..

فأومأ سيدي عمر ايماءة متعبة الى احد رجاله ان يقترب : (دع هذا الرجل يقص عليك الخبر .. انه واحد من اولئك القلائل الذين هربوا من كفرة ، ولم يصل لعندي الا بالامس) .

وجلس الكفري على ردفيه امامي وجذب برنسه البالي حوله وتكلم ببطء دون ان يبدو في صوته اي اثر للانفعال .. ولكن وجهه الناحل كان يعكس جميع الاهوال التي شهدها :

— لقد خرجوا علينا في ثلاث فرق.. من ثلاث جهات، وكان معهم سيارات مصفحة ومدافع ثقيلة كثيرة اما طائراتهم فقد حلقت على علو منخفض ورمت بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل ولم يكن لدينا سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح اما الباقون فقد كانوا نساء واطفالا وشيوخاً.. لقد دافعنا عن انفسنا بيتاً بيتا ، ولكنهم كانوا اقوى منا بكثير .. وفي النهاية لم يبق لنا الا قرية الهواري .. لم تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة فطغوا علينا وتمكن عدد قليل جداً من الهرب . اما انا فقد اختبأت في حدائق النخيل مترقباً الفرصة لشق طريقي خلال الخطوط الايطالية .. وكنت طوال الليل اسمع ولولة النساء اللواتي كان الجنود الايطاليون والعساكر الاريتريون يغتصبونهن وفي اليوم التالي احضرت لي امرأة عجوز بعض الماء والخبز ، واخبرتني ان الجنرال الايطالي قد حشد كل ما تبقى على قيد الحياة امام قبر السيد محمد المهدي وامام اعينهم مزق نسخة من القرآن ثم رماها الى الارض وداس عليها بحذائه صائحا : دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن اذا استطاع .. ثم امر بقطع اشجار النخيل في الواحة ويهدم آبارها واحراق كل ما كان في مكتبة السيد احمد البدوي من كتب . وفي اليوم التالي اصدر امره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا

في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق .. وطوال الليلة التالية كنت اسمع من مخبئي – صرخات النساء وضحكات الجنود وطلقات بندقياتهم .. واخيراً زحفت الى الصحراء في ظلام الليل فوجدت جملا شارداً امتطيته ووليت فرارا.

وعندما انهى الكفري قصته المخيفـــة قربني سيدي عمر اليه بلطف و كرر قوله : انك تستطيع ان ترى يا ابني اننا قد اقتربنا فعـلاً من نهاية اجلنا .. ثم اضاف كأنما يجيب عن السؤال الذي كانت تنطق به عيناي : (اننا نقاتل لأن علينا ان نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة او نمـوت نحن وليس لنا ان نختار غير ذلك . انا لله وانا اليه راجعون لقد ارسلنا نساءنا واولادنا الى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا ان نموت ..

من وحي الجزائر الثائرة

- ٢ -

ان بطل هذه القصة الواقعية والتي هي اشبه ما تكون بالخيال . مناضل من اخواننا الجزائريين بين الابطال الذين لم يكن كفاحهم ونضالهم وانتصارهم على اعتى دولة من دول الاستعمار البغيض محصورا بجده وفخاره على اهلهم فحسب بل انه مجد تعتز به امة الضاد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي بل وتمتز به الانسانية بصورة اشمل لانه انتصار للعدل على البغي وانتصار للحق على الباطل وانتصار المظلومين على الظالمين وانتصار المؤمنين بقوة الله والاعتماد على سواعدهم وبطولتهم على المؤمنين بقوة الحديد والنار والاعتماد على غير انفسهم من دول حلف الاطلنطي .. اجل لقد اوشك المستعمرون ولقيطتهم اسرائيل بل وحتى بني جلدتنا من الانهزاميين العرب اوشك هؤلاء جميعهم ان يجعلونا نشك بصحة ما قرأته عن مجد اسلافنا الاوائل الذين فتحوا مشارق الارض ومغاربها وملأوا الدنيا عدلا وخلقا وكانت الغزوة الصهيونية لبلادنا التي كان من شأنها ان تجمع مشردي العالم وحثالة البشرية على سلب قطعة من قلب وطننا العربي وقتلوا رجالنا ويتموا اطفالنا ورملوا نساءنا ، كان ذلك مما جعلنا نزداد وهما وشكا بعدم صحة كل ما قرأناه مما ينسب عن ذلك المجد الغابر الذي قام به اسلافنا الاشاوس بدافع الايمان الروحي ولكن جاءت بطولة اخواننا الجزائريين مؤكدة لصحة ذلك التاريخ المجيد ومعيدة لنا الثقة بأنفسنا ومؤيدة لصحة تلك الكلمة الخالدة التي صرح بها رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة

في الولايات المتحدة وذلك قبل ان ينزع الجزائريون استقلالهم من فـكي الاسد. المهزوم ، لافض فوه حيث قال معناه : (يزعم الصهاينة انه لا جدوى من مطالبة العرب في حقوقهم المغتصبة من ارض فلسطين متبجحين بالمنطق المعكوس القائل : ان اسرائيل لها عشر سنوات ونيف وانه من غير المعقول بعد ذلك ان تعود عقارب الساعة الى الخلف) .. ومن هنا يفند بورقيبة ادعاء الصهاينة بقوله : (هل يا ترى اسرائيل التي تعيش على الاستجداء او الهبات اقوى من الدولة الفرنسية ؟ .. وهل المدة التي قضتها فرنسا في الجزائر البالغة ١٣٣ سنة اكثر ام المدة التي قضتها اسرائيل) .. ويمضي بورقيبة فيقول (ان رجال العرب الابطال الذين سوف يطردون فرنسا من ارضهم تلك الدولة التي هي من اعرق واقوى دول العالم جدير بهم ان يطردوا اسرائيل من ارضهم سواء طال الزمان او قصر ..

ونحن نقول هنا مما لا شك فيه بأن جهاد الجزائريين المرير واخذهم ارضهم بالسيف من فـكي الاسد الذي لووا اذنه حتى عكف ذيله مدحورا هاربا هو الذي املى على الحبيب بورقيبة هذا المنطق الواقعي المحسوس وهو الذي يجعل اعداءنا يحسبون لنا الف حساب وحساب ويبذلون شتى الوسائل والاسباب لتفرقة صفوفنا وبذل كل ما يمكن بذله من الدسائس الخفية والبينة التي تحول دون وحدتنا او اتحادنا ايمانا منهم اننا عندما نتحد بأي شكل من اشكال الوحدة او الاتحاد فان اسرائيل التى هي عدوتنا رقم واحد لا هي ولا مـــن ورائها من دول الاستعمار ولا اية قوة بالدنيا تستطيع ان تسلب درهمـــا من حقنا ..

* * *

وبعد .. فقد كان من حسن حظي ان سنحت لي الفرصة التي مكنتني من معرفة بعض المجاهدين الجزائريين وذلك ان رجال المجلس الوطني الجزائري

كانوا كثيراً ما يعقدون مؤتمراتهم في مدينة طرابلس الغرب وكان لي الشرف في معرفة عدد منهم بصفتي ممثلا في سفارة حكومة وطني في ليبيا ومن بين الذين اسعدني الحظ بمعرفته وصداقته العقيد سعيد بطل القصة التي نحن بصدد ذكرها ..

لقد شرفت نفسي بدعوة عدد من رجال المجلس الوطني الجزائري لتناول وجبة الغداء في منزلي وقد تم لي ذلك وكنت شديد الحرص على معرفة شيء من قصص بطولاتهم ولكنني لم اجد عند اي منهم تجاوبا لرغبتي والشيء الذي اثار انتباهي هو انك قل ان تجد فردا واحداً من الجزائريين الا وله من مواقف البطولة والشجاعة ما يملأ صفحات سفر ضخم ، الامر الذي جعلني اصبح بحيرة وتردد عن تنفيذ ما كنت عازما عليه .. والواقع ان الانسان عندما يرى اولئك الرجال خاصة ايام الحرب فانما يخيل اليه انه ينظر اسداً في غاباتها ومما لا شك فيه ان المرء ليشعر شعوراً اكيداً لأول وهلة يتحدث بها مع اولئك الفرسان بأنهم مصممون على احدى الحسنيين اما الشهادة واما الحرية والاستقلال ولشد ما غمرنا جميعاً في ذلك المجلس موجة التعجب والاعجاب عندما قال الدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في ليبياً والمعروف بكرمه الذي لا حد له وبسرعة بديهية بالجد وابتكار النكتة معا للكولونيل محمد سعيد محمدي الملقب بالكولونيل ناصر : من يعلم لو ان الله يتجاوز عن ديغول خطيئاته ويدخله الجنة : يا لله ما ان انتهى الدكتور فتفت من كلمته هذه حتى صرخ محمد سعيد ذلك الرجل العملاق صرخة مدوية قائلا : (اذا كان ديغول يدخل الى الجنة ، والله لن ادخلها) .

لقد ذكرت هذه النكتة لأمرين ، اولا ـ اردت ان يعرف القاريء مدى ما في نفوس الجزائريين من حقد على المستعمرين الفرنسيين ، كرد فعل لما قام اولئك المستعمرون .

ثانيا ـ من اجل ان اميز بين الكولونيل محمد سعيد محمدي عدو فرنسا رقم

واحد بصفته ثائراً على الفرنسيين ومحارباً لهم بجانب الالمان منذ الحرب العالمية الثانية والذي كان رئيسا لاركان جيش التحرير الجزائري سابقاً ثم كان وزير دولة في الحكومتين الجزائريتين الموقتتين كما كان وزيراً في حكومة بن بيلا الانتقالية ونائباً للرئيس ابن بيلا في حكومته الثانية .. اقول اريد ان أميز بين هذا وبين بطل القصة الكولونيل سعيد فكلاهما برتبة كولونيل اي عقيد لأن هذه الرتبة هي اعلى رتبة يبلغها المحارب القائد في جيش التحرير الجزائري كما ان كلا السعيدين من القبائل : وهذا الاصطلاح يعرفه الجزائريون ولم يكن بينهما فرق بالاسم وبالرتبة العسكرية وبالكفاح وبالوطنية وبمتانة العقيدة الروحية وبالنسب وحتى باتجاههما السياسي الداخلي لأن كلاهما من مؤيدي ابن بيلا الا ان بينهما بونا شاسعاً بالجسم والهيئة والمنظر فبينما نرى الأول عملاقا يحمل جسما يتناسب مع طوله الفارع دموي البشرة يوحي لناظره لأول مرة بهيبة الجندي الشجاع القوي المتين الصارم بينما نرى بطل قصتنا رجلا ربعة القامة اسمر البشرة متواضعاً في هيئته ليناً في حديثه لا يدل منظره العادي على ادنى معنى من المعاني الكامنة في خبايا نفسه من شجاعة خارقة وعلم بفنون حرب العصابات بصورة دوخ بها العدو وافقده رشده ..

لقد بدأ سعيد حياته كأي مواطن جزائري عادي وككثير من الابطال الجزائريين الذين قدر لهم ان يلعبوا دورا خطيرا في معمعة الحرب الجزائرية الفرنسية .. كان سعيد سائقا لسيارة تكسي يقتات من حصيل مجهوده الضئيل الذي يقوم بأوده وهو لا يعدو ان يكون محدودا على رزق اليوم ليس الا فان عمل واجتهد ووفق بزبائن وسلم من ضريبة المخالفة فانه قد يتيسر له ما يكفيه واطفاله قوت يومه اما ان خانه الجد في واحدة من الثلاث فالله اعلم ماذا يحل به من فاقة وبؤس وكان شديد الحرص على ان لا يهمل واحدة من تلك المعاني وربما تضاعف حرصه على تمسكه ومحافظته على الاخيرة اكثر من غيرها . اعتقادا منه ان شرطة الاستعمار الفرنسي لا تتورع عن ان تتخذ اقسى العقوبات

من الضريبة المالية عند ادنى مخالفة تبدو من اي قائد سيارة جزائري ، الامر الذي يجعله يعمل مدة طويلة حتى يسدد ما يكسبه من مجهوده لقسم الضرائب الفرنسية ولكن ماذا يفيد حرصه ما دام ان الفرنسيين انفسهم يعـــاملون الجزائريين معاملة الذئب للحمل .

وبالرغم من حرص سعيد الشديد وتجنبه لهذه المشكلة فانه لم ينـج من الوقوع فيها او بالاحرى من الافتراء عليه من شرطة الاستعمار بالمخالفة التي لا صحة لها حيث نصبت له شرطة الاستعمار فخا لتصطاده به ولتجعل عليه ضريبة باهظة كما هو شأنها مع جميع المواطنين الجزائريين الذين عاشت هذه الدولة الاستعمارية والمدعية للحرية المختلقة ردحا من الزمن على عرق جبين الـكادحين من العمال كسعيد وامثاله ؛ لم يرتكب سعيد« بتكسيبه » اية مخالفة تستوجب ادنى ضريبة مالية او عقاب ادبي .. والمشكلة ان بوليس شرطة السير كان يفهم ان سعيدا ليس مخالفا وانما يريد ان لا يفهم او على الاصح لديه من المعلومات ما يتطلب منه ان لا يفهم ، لقد تبادر لذهن سعيد ان شرطي السير قد يكون سكرانا او شبه سكران بمعاملته له الجائرة التي لم يكن لها اي مبرر وان لا بد والحالة هذه من ان يرفع مظلمته لآمر شرطة السير الأكبر فاتجه سعيد نحو مقر المسؤول الأكبر في المنطقة فوجد ذلك الطاغية مكفهر الوجه مقطب جبينه كأنه صنو لعزرائيل وخليفة لمالك خـــازن جهنم او هو عزرائيـــل ومالك معا ..

قدم سعيد التحية التقليدية باللغة الفرنسية التي يجيدها ولكن الطاغية لم يرد التحية بل زم انفه وازور جانبه فحاول سعيد ان يثير انسانيته ظانا ان لديه ولو مثقال ذرة من الانسانية فقال ما معناه : (انني عامل فقير قد ظلمني شرطي السير باتهامه لي بمخالفة لا اصل لها ووضع علي ضريبة باهظة لا طاقة لي بدفعها حتى ولو ظللت اعمل سنة كاملة فان دخلي بكامله لا يفي بما اطالب بدفعه من هذه الضريبة المجحفة) .

لم يجب الطاغي على الشاكي المظلوم بأدنى كلمة اللهم الا ما كان يبـــدو على وجهه العابس الساخط من ادلة الاستعلاء على الشاكي والسخرية منه ..

فأدرك سعيد انه بشكواه هذه انما يشكو فرع الظلم على الأصل وان قضية الظلم في دولة الاستعمار الفرنسي اشبه ما تكون بحلقة اتصال تبتدىء من أعلى مسؤول في الدولة وتنتهي عند ادنى عامل فيها وعندما ادرك سعيد هذه الحقيقة ورأى ان الشرطي ليس الا منفذاً لما امر به وان استدراره لعطف هذا الجبار الظالم لا جدوى منه .. هناك قال للطاغية ما معناه : « الا تعلم ان للظلم صولة ثم يتحطم على صخرة العدالة مهما طال به المدى وان الله سوف ينتصر للمظلوم على ظالمه مهما بلغت سلطة المظلوم من القوة ومهما كان المظلوم ضعيفاً لا قـوة له ولا ناصر الا قوة الله وعدله تعالى ... »

لم يكن لدى المستعمر من الاعصاب والصبر ما يجعـله يتحمل السكوت عن الاجابة على مثل هذه الجمل التي تحمل في طياتها شيئاً من التهديد والوعيـد من هذا الصعلوك المستعمر بفتح الميم لسيده المستعمر ولذلك صرخ بوجه الشاكي قائلاً: (اخرج من هنا .. ونحن عندما نعاملك هذه المعاملة نعلم اننا ظالمون لك ولكننا نريد ان نعطيك درساً في معرفة الظلم فمتى جـاء اليوم الذي تهددني وتوعدني به حينما اكون ضعيفاً ذليلا بين يديك وتكون قوياً عزيزاً عندئذ تكون قد تعلمت الانتقام والظلم فما عليك وقتذاك الا ان لا تدخر وسعا من الانتقـــام مني وان لا تبقى جهداً من وسائل الاعتساف والظلم التي تعاملني بها ..

قال قائد المنطقة المستعمر هذه الكلمة عـلى سبيل الهزء والسخرية ثم اتبع السائق لعنات وشتم وطرد ..

خرج سعيد عن مقر قيادة الحاكم بامره يسحب خطاه ببطء لا يعـــلم ماذا يفعل ؟ .. فظل المظلوم المغلوب على امره يناجي نفسه بشتى الاحتمالات ؟..

أينتحر ويريح نفسه من حياة البؤس والاستسلام لظلم المستعمر ؟... ولكن الانتحار لا يستسيغه سعيد لعدة امور اولها انه مؤمن بالله وبرسالة الاسلام الانسانية ؟والاسلام يعتبر المرء الذي يقتل نفسه كقاتل النفس البريئة عيناً بعين.. اذاً أيقتل الفرنسي الذي ظلمه ولكن هذه العملية ايضاً لا تحل الازمة بل انها الاخرى عملية انتحارية اذ ان قتل ظالم من جنود او قادة الفرنسيين لا ينهي ظلم فرنسا الدولة القوية بأسلحتها البرية والبحرية والجوية ؟ .. فماذا يعمل سعيد ايظل يعمل قائداً لسيارة التكسي وهو يعلم ان كل ما يكتسبه من وراء عمله سنة كاملة سوف يذهب ضريبة لصندوق الدولة الفرنسية ؟.. لقد فكر سعيد وقدر ورأى ان خير وسيلة يقوم بها هي ان يسلم امره لله وان لا يستسلم لليأس والقنوط بل يجتهد ويسعى بمكافحة هذه الدولة الظالمة حالما تتاح له الفرصة المواتية لحربها ومكافحتها ...

استمر سعيد يعمل قائدا لسيارة التاكسي ويدفع كل ما نالته يده لصندوق الدولة كضريبة وان زاد شيء من ذلك اشترى به غذاء لاطفاله لا يسمن ولا يغني من جوع .. وقد انتهى العام الكامل وانتهت آخر دفعة من تلك الضريبة ولكن اثر ذلك الظلم لم ينته من نفسه ولم تمح المعامله الجارحة بل ظلت رواسبه تغلي في قلبه كالمرجل .. وبقي يتحين الفرص عسى ولعل نفرا من بني وطنه البواسل يقومون بثورة مسلحة ضد حكومة الظلم والبغي والطغيان ..

وفي نوفمبر عام ١٩٥٤ جاءت ادلة الفرج تزف البشرى بما يحلم به من آمال واماني تداعبان خياله وذلك عندما انطلقت اول رصاصة مدوية من سواعد المجاهدين المواطنين نحو الغزاة المستعبدين ..

لم تكن الثورة المسلحة الجزائرية مفاجأة لاحلام واماني سعيد بل كان متوقعا لها كأي جزائري يعرف تاريخ بلاده لان رجالها الابطال لم يستسلموا لفرنسا استسلام الجبناء بصورة لم يكن في البلاد من يرفع رأسه بل كانت الحروب

مستمرة من اول يوم وضع - الفرنسيون قدمهم حتى طردوا منها ذليلين صاغرين وانما كانت تلك الحروب الاولى تختلف عن ما قبلها فبينما كانت الحروب السابقة محصورة في اماكن معينة او حرب عصابات في الجبال والمخابيء كانت ثورة اول نوفمبر عام ١٩٥٤ ثورة الشعب الجزائري بكامله ..

لقد اندلعت الثورة في الحــــين الذي كان فيه المستعمرون سادرين في لهوهم تائهين في طيشهم متمادين في غرورهم، وكان هؤلاء الطائشون المتغطرسون يعتقدون ان الثورة ليست الا عملا من اعمال الصبيان المغامرين وانهم قادرون على اخمادها بقوة الحديد والنار بكل سهولة . وزادهم رسوخاً باعتمادهم هــذا الخاطيء ان الثوار بدأوا بثورتهم قبل ان يبدأوا بالتنظم ، وان الشعب الجزائري على حــد تقديرهم لا زال في سن الطفولة ولم يبلغ بعد من النضوج الفكري والوعي السياسي ما يؤهله للقيام بثورة جماعية تجعله يقوم بوجه دولة من اكبر دول العالم لديها من مصانع الدبابات والطائرات وشتى انواع الاسلحة الحديثة ما يعجز عن مقاومته الثائرون الذين لا يملكون الا اسلحة الصيد وامثالها .. هكذا كان الاعتقاد السائد ولكن سرعان ما تحطم هذا الاعتقاد على صخرة الواقع .. وذلك عندما رأى المستعمرون المواطنين الذين بدأوا بثورتهم فعلا قبل بدأهم بالتنظيم يلتف حولهم شعب الجزائر بكامله شعب قوامه احد عشر مليوناً كلهم قرروا اما أن يحيوا احراراً شرفاء مستقلين واما ان يموتوا شهداء سعيدين ..

وكان سعيد في طليعة هؤلاء الملايين الموتورين الحاقدين: قد ترك سيارة التاكسي حالما سمع نداء الوطن الذي حمل لواءه ابطال الثورة ..

ولما كان الثوار لا يرضيهم ممن ينضم اليهم مجرد القول او حتى الفعل الوسط ، وانما ما يقوم به مبدئياً من امتحان يثبت أولاً صحة اخلاصه لوطنه فانه لابد ان يقوم سعيد بامتحان يجعل الثوار يؤمنون بصحة اخلاصه الوطني - وملخص هذا الامتحان ، هو ان يطلب منه قادة الثورة ان يذهب لقتل شخص من القادة

الفرنسيين، وفي الوقت نفسه، يعمد الثوار لشخص آخر يتعقب حركاته وسكناته بصورة سرية بحيث لا يشعر به الممتحن . ومهمة الاخير هي انه متى ما رأى ان الممتحن مصمم على تنفيذ ما وكل اليه به ، أمسك بيده واعتبره موضع ثقة ، أما اذا بدا منه عكس ذلك فان مصيره القتل على يد من وكل به [1] .

لم يكن سعيد بحاجة الى الامتحان ، فهو صادق العزيمة بكرهه وحقده للمستعمرين الغاصبين ، الذين نال منهم الاهانة والتعسف والظلم ما يثير جذوة الحقد والشجاعة في كيانه . وقديماً قالت العرب : (احذر صولة الكريم اذا اهين واللئيم اذا بطر .) .

كان من حسن حظ الجزائريين ان الحكومة الفرنسية احسنت اليهم من حيث انها تقصد استعبادهم وتجنيدهم كجيش مدرب ليذود عن كيانها اذا استوجب الامر ، بحكم ان الجزائر بنظر فرنسا وبحكم الواقع المرير لا تعدو أن تكون واهلها مزرعة للفرنسيين يمتصون خيراتها ، ويجندون رجالها . ولذلك كان جميع الجزائريين المجاهدين قد سبق لهم ان خدموا في السلك العسكري الفرنسي وتدربوا على شتى انواع الاسلحة ، الامر الذي يجعل سعيداً وكثيراً من امثاله المجاهدين لا يحتاجون الى تدريب على اسلحة القتال الحديثة ، ولا الى تعليم الى رسم الخطط الحربية المعاصرة ، لانهم تدربوا عملياً في الحرب العالمية الثانية ، وبالاضافة الى معرفتهم في فن القتال في الجيوش المنظمة ، ازدادوا خبرة وتدربوا في معرفة حرب العصابات ، وتسلق الجبال واحتمال المشاق في الغابات والجبال الجزائرية، الامر الذي لا يطيق احتماله جيش باريس الناعم الغض الطري الذي اتقن فتيانه لعب (الدنس) اكثر بكثير من اي شيء غيره . ولذلك لم يكن في الامر غرابة فيما اذا تفوق الجيش الجزائري على الجيش الفرنسي ، الذي

---

(١) لم يذكر لي سعيد ان الثوار امتحنوه وانما الذي فهمته من الثوار انفسهم انهم كانوا لا يقبلون من ينضم اليهم الا بعد هذا الامتحان .

يفوقه بالعدد والعدة ، وبكل شيء الا بالايمان والمثابرة والصبر والجد والشجاعة ومتانة الخلق .

بعد ما اجتاز سعيــد درجة الامتحان بتفوق ، عندئذ قبله جيش التحرير كجندي مناضل . ولم يخطر ببال قادة هذا الجيش أن لدى سعيد لا شجاعة الجندي المناضل المتفاني بنضاله فحسب ، بل موهبة القائـــد في رسم الخطط الحربية المتقنة – لا لم يعرف احد من القادة عنه هذه الموهبة – بل وحتى هو لم يعرف عن نفسه انه قائد محنك ، مطبوع ، أجل لا احد يعرف ذلك ، حتى جاءت الاحداث التي كشفت الغطاء عن موهبته الكامنة ، واصبح سعيد ، لم يكن ذلك القائد للسيارة التاكسي النكرة ، الذي لا يعرفه الا زوجه واطفاله ، وانما اصبح احد القادة العظام البواسل في جيش التحرير ، وقد تدرج في الكفاح من جندي الى رتبة كولونيل ، اي عقيد . وهذه الرتبة هي اعلى رتبة ينالها قائد ما في جيش التحرير الجزائري ، كما نال ارفع الاوسمة الحربية ، هذا من الناحية العسكرية ، اما منزلته الاجتماعية ، فقد نال مقعداً في مجلس جبهة التحرير الوطني لذي لا يتجاوز عدد رجاله ستين شخصاً ، وهــذا المجلس هو عبارة عن مجلس الامة في الحكومات الديموقراطية .

لقد ابدع سعيد في خططه الحربيــة ، واصبح له من الشهرة وذيوع الصيت مـــا هو كاف لأن يدخل الرعب في قلوب اعدائه ، بمجرد ما يسمعون اسم الكولونيل سعيد ... الى ان كتبت الصحف الفرنسية عن بسالته وعن خبرتــه الواسعة في اتقان فن حرب العصابات ، وحرضت على قتله ما استطاعت والمثل العربي يقول :- (الفضل . ما شهدت به الاعداء) .

مضى الكولونيل سعيد بحربه مع العدو وكل يوم تزيد شهرته ، ومن نصر الى نصر ، وفي ذات يوم وضع خطة حربية لمهاجمة العدو ، واتقنها كل الاتقان ونجحت الخطة نجاحاً باهراً ، حيث لم يفلت من قوة العدو جندي واحد . فمن لم يلاق حتفه في المعركة ، وقــع اسيراً . وسيق الاسرى اليه ، فأمر باعتقال الجنود وصغار الرتب

كما امر بتقديم القادة الكبار الى المحكمة العسكرية التي يتولى رئاستها هو بذاته. فوضع القادة في قفص الاتهام ، واجرى معهم السؤال التقليدي على النهج الآتي: ما اسمك ؟ ... وما عمرك ؟ ... وما عملك ؟ ... الخ ...

وهكذا اجريت محاكمة هؤلاء القادة على هذا الشكل . ولست بصدد ذكر ما تنتهي اليه المحاكمة . وانما الشيء الذي تجدر الاشارة اليه هو ان بين هؤلاء القادة . – قائداً له طابع خاص وتبدو عليه علامات الدهشة والذهول اكثر من غيره بكثير، وكان وضع هذا القائد يدعو الى الاستغراب ، شارد الذهن يضحك ضحكة التعجب ، يبتسم عند كل سؤال يوجه اليه ابتساماً يوهم من يراه انه بتسام السخرية ، ولكنه لم يقف من المحكمة موقف الساخر المستهتر المتحدي لاحكام الصادرة بحقه مهما كانت قاسية ، لا لم تكن وقفة هذا القائد من هذا النوع ، ولكن ابتساماته التي كانت بلا سبب ، وضحكاته التي تبدو بلا عجب ، كل ذلك مما جعل رئيس المحكمة يظن أن اسيره يحاول ان يبدي من الجلد والصبر امام محنته ما يوحي انه غير مبال بكل ما تتخذه المحكمة من احكام صارمة ، الامر الذي جعل رئيس المحكمة يوجه اليه السؤال التالي :

(مالك تقوم بمثل هذه الحركات الشاذة ، أتحاول ان تظهر نفسك بقفص الاتهام بمظهر الرجل الشجاع الشهم الآبي؟ فلو كنت شجاعاً لقاتلت حتى الموت بدون ان تستسلم للعدو ، ولو كنت شهماً أبياً لما رضيت لنفسك ان تأتي من بلادك لا بدافع يحدوك لهدف نبيل ، ولا غاية شريفة) اللهم الا بغية الظلم والسيطرة والغزو والاستغلال والسفك لدماء إناس ابرياء ، لا لشيء ، الا لقوتكم المادية وكثرة عددكم وعدتكم ظانين (ان قوة السلاح وكثرة العدد هي كل شيء) . ولكننا نريد ان نؤكد لكم عملياً كما رأيتم وكما سترون اننا سوف نكافح في سبيل حريتنا وفي سبيل استقلالنا الى آخر نقطة دم في آخر رجل منا ، اعتقاداً منا ان الانسان بلا حرية كالحيوان عيناً بعين . (وايماناً منا بأننا نقاتل في سبيل استرداد حقنا المغتصب وفي سبيل عدالتنا الانسانية ، بينما تقاتلون انتم في سبيل الظلم

والاستعلاء وامتصاص مقدرات الشعب المضطهد) .

لم يجب القائد على حديث رئيس المحكمة الا بابتسامة عريضة ، فصمت رئيس المحكمة لحظة يتفرس بها وجه الاسير علّه يعرف شيئاً عن الدوافع التي الجأته الى تصرفه هذا ، وعندما امعن النظر فيه وجد ان صاحب هذا الوجه سبق ان رآه ولكنه لا يذكر جيداًمتى واين كانت هذه الرؤيا، كما انه لم يكن واثقاً بصحة ظنه ، ، وكل شيء خطر بباله الا انه يرى مروض الاسد فريسة بين فكيه ، هذا شيء لم يخطر ببال سعيد حتى ولو خطر بباله كأمنية فانه لم يظن ان هذه الأمنية سوف تتحقق عملياً ، وعلى اية حال فقد رأى ألا مانع من ان يوجه الاسد لمروضه في الامس وفريسته اليوم السؤال التالي :

(يبدو أنني رايتك قبل ذلك) .. اجاب مروض الاسد :

اجل – كنت اتوقع انك عرفتني من اول ما رأيتني – لأنني منذ ان رايتك عرفتك فوراً ...

– اين كانت الرؤية .... ؟ .. ومتى عرفتني ؟ ..

– الست قائد سيارة التكسي – انسيت ما دار بيني وبينك من حديث؟..

يؤكد الكولونيل سعيد انه حينما ذكره أسيره بالحادث اصيب برعشة روحانية ظل خلالها ثوان وهو نشوان ، كأنه نقل الى عالم آخر ، كما يؤكد ايضاً انه تضاعف ايمانه بالله وبعدالة قضيتهم واعتقد اعتقاداً راسخاً ان النصر سيكون بعد ذلك حليفهم لا محالة .

وبعد ما افاق الاسد من غيبوبة النصر عاد الى مروضه فقال ماذا يدور في ذهنك الآن؟ وماذا تظن انني فاعل بك؟ فقال مروض الاسد بالامس واسيره اليوم :انما يدور في ذهني اليوم هو انني منذ اللحظة الأولى أمنت ان في هذا الكون الها ينصف الضعيف من القوي علماً بانني كنت لا أومن بشيء من ذلك .. واما قضية ما اظن انك فاعل بي فانني لا اعتقد الا انك ستعاقبني على ما عاملتك

به من شر .. فقال القائد المنتصر وابتسامة النصر تعلو وجهه السمح المنير : (لقد عاملتني تلك المعاملة المليئة بالظلم والكبرياء ثم اتبعت معاملتك تلك بكلام اعنف واسوأ منها عندما قلت بعباراتك تلك القاسية التي جاء منها: قولك نريد ان نعطيك درساً في معرفة الظلم الخ ..

وبعد ان صمت القائد قليلاً مضي وقال : (لئن اردت ان تعطيني درساً في معرفة الظلم فانني اود ان اعطيك درساً في معرفة العفو والتسامح فاذهب الى حيث تريد فقد عفوت عنك ... »

لم يتصور مروض الاسد بعد ما وقع بين فكيه انه سوف يلفظه سالماً بدون ان يقده بنابه .

هذا شيء لم يخطر له ببال ، ولكنه عندما عاد الى الى ذاكرته سرعان ما ادرك ان الاسد ليس من شيمته ان يأكل الجيفة ولن يدنو منها مهما بات على الطوى ، وحينما ادرك هذه الحقيقة وادرك ايضاً ما عامله به هذا القائد الكريم من عفو وتسامح عند ذلك قرر ان يبدل خطته كلها رأساً على عقب فقال : (ما دمت قد عفوت عني بعد ما تمكنت من رقبتي وما دام انني قنعت كل القناعة بان قومي على باطل وانك انت وقومك على حق وما دام انني كنت احارب بجانب قومي على الباطل فانني اعاهدك منذ الآن بانني قد كفرت بقومي وبملتهم واني سوف احارب بجانبكم جنبا لجنب حتى النصر او الموت . »

فأجابه القائد المنتصر قائلاً : نحن لا مانع عندنا من قبولك كانسان آمن بالحق وكفر بالباطل لان ديننا كمسلمين لا يحاسب الكافر ولا الظالم على كفره وظلمه فيما اذا اعلن ايمانه وتوبته كما انه لا يسأل ولا يحقق عن صحة ما يعلنه الانسان عن ايمانه أكان صادقاً ام غير صادق ؟ وانما يكتفي بالظواهر فقط ثم ستدرك القائد وقال :ولكنني ارى اننا بحاجة الى ما تفيدنا به من اخبار قومك فيما اذا ذهبت عائداً اليهم بحجة انك انفلتت من الاسر اكثر بكثير من حاجاتنا اليك

كمحارب بصفنا»..

اجاب الفرنسي الظالم بالامس والمؤمن المخلص اليوم قائلاً : بالنسبة اليّ سيان عندي ابقيت محارباً بين جنودكم ام ذهبت الى رفاقي بالامس واعدائي اليوم منفذاً لكل ما تأمرني به بكل دقة وامانة..

– اعتقد ان ذهابك اكثر فائدة للقضية التي منّ الله عليك بالايمان بعدالتها..

– ما دام الامر كذلك فلك عليّ ان اذهب الان كهارب من الاسر وان ارفع لكم اخبار العدو يوماً بيوم وان اقلب لهم الحقيقة .

– هذا ما نحن بأمس الحاجة اليه .

– لا اريد منك والحـــالة هذه الا ان تكتم السر حتى عن اقرب المقربين اليك ..

– نحن احرص منك على كتمان ما اشرت اليه .

– اذا اعاهدك الله والشرف انني سأرفع لكم جميع اسرار العدو السياسية والحربية .

– ولقد آمنت بالله فاذهب على بركة الباري وحفظه .

– هيا ادن مني لاقبلك واستودعك الله لانني سوف اقوم بمغامرة قد تكون نفسي ثمنا لها لان الظالمين اذا اكتشفوا امري سوف يعتبرونني خائنا وسوف تكون عقوبتي الموت اعتقادا منهم انني اقوم برفع اخبارهم للعدو مقابل عمولة لا بدافع ايماني بالله الذي لمست وشعرت انه ينصف المظلوم الضعيف من الظالم القوي .. لا لن يظن رفاقي بي ذلك ولا يمكن ان يتصوروا هذه الظاهرة لانهم لم يحسوا بها ولم يتذوقوا حلاوتها.»

– وهاانذاأقبلك واهنئك على عقيدتك فيما اذا طابقت اقوالك اعمالك » .

توادع العدوان بالامس والصديقان اليوم وضم كل منهما صاحبه الى صدره وكان المغامر الذاهب اشد ضما من القائد الذي وان كان يرى ان ادلة الصدق بارزة على محيا المؤمن الجديد ولكنه لم يكن واثقا كل الثقة بصحة ما وقع من اسيره وما تعهد به من اقوال حتى يثبت اقواله ويؤيدها بالاعمال الواقعيـــة وبالبراهين الساطعة التي تجعله يؤمن حقا ان الرجل صادق بايمانه وعازم على ان يكفر عما مضى منه من سيئات ..

هذا وقد عاد الرجل الى رفاقه هاربا من اسر العدو على ما يزعم او على ما يخيل لرفاقه ولا عجب ان يمنح وساما عاليا ويرفع رتبة بصورة استثنائية .. لا ، لاعجب في ذلك فقد ذهب منهم قائدا محاربا وعاد اليهم لا منفلتا من اسر العدو فحسب بل جاء يحمل اسرار العدو ومخططاته الحربيـــة ومدى قوته وضعفه .. هكذا اعتقد قومه المستعمرون .. اما انه يخطر ببال اي منهم ان ابن جلدتهم البار المنحدر من سلالة الغزاة ابا عن جد والوارث لظلمهم والمتعصب الى بعدحدودالتعصب لقوميتهم والمعتبر واحداًمن كبار قادتهم واقطابهم المتحمسين يعود اليهم كافرا بهم حاقدا عليهم مؤمنا بعدالة اعدائهم مجندا نفسه لخدمة العدو مموها لكل المعلومات التي قدمها لهم عن العدو موهما لهم بأن لدى الجزائريين من قوة السلاح الحديث وكثرة العتاد والعدة ووفرة المواد الغذائية الشيءالذي يمكنهـم من الاستمرار بالحرب عشرات السنين هذه الناحية لم تخطر لهم ببال هذا وان الفرنسيين لم يكونوا بحاجة الى سؤال قائدهم ومخبرهم عن مدى صبر وجلد وشجاعة اعدائهم .. فهذه المعاني ليسوا بحاجة الى من يفيدهم عنها لانهم لمسوها بايديهم وشاهدوها باعينهم .. اما وقد ثبت لديهم من مخبرهم الصادق المخلص ما لدى العدو من قوة السلاح وكثرة العدد والعتاد ووفرة الغذاء الشيء الوافر بالاضافة الى ما يتمتعون به من شجاعة خارقة وعزيمة تفل الحـــديد وصبر لا

يعرف الكلل وجلد منقطع النظير – فبعدما ثبت لديهم ذلك فمعناه ان الجزائريين في النهاية سوف يأخذون استقلالهم ويتمتعون بخيرات بلادهم المسلوبة .. وهذا يعني ان الغزاة الغاصبين سوف يحرمون من خيرات البلاد التي يستغلونها ظلما وعدوانا .. وسوف تنتهي جميع الامتيازات التي يتمتعون بها **والاقطاعات** التي ينعمون بها على حساب كدح وعرق المواطنين الجزائريين وسوف بالتـــالي يطردون مدحورين تلاحقهم لعنة التاريخ وعار الهزيمة ..

اجل سوف ينبذون من البلاد التي طالما استعبدوا اهلها وابتزوا رزقهـــم وعبثوا بمقدرتهم .. هكذا تعني اخبارية مخبرهم الفار من الاسر الذي منح الوسام الرفيع والرتبة العالية مقابل تزويده بهذه الاخبار التي ادخلت في قلوب الغزاة وهنا على وهن وأقضت مضاجعهم ، وهذه المعلومات التي استولى عليها قادة الميدان العسكريون سوف يرفعها هؤلاء القادة مذعورين الى دهـــاقنة السياسة في باريس . وما دام الذعر دب في قلوب رجال الحرب وأوهن عزائم المحاربين فانه من مسلمات الامور ان تخور عزيمة السياسيين وان يتنازلوا عن كبريائهم بسحبهم لتلك الاسطورة القـائلة : (الجزائر فرنسيـة وستبقى فرنسية) ..

وهكذا اثبت الرجل صحة ايمانه ووفى بما ووعد به وقام بأعمال مزدوجة بحيث قدم لقومه تقارير عن العدو لم يكن فيها من الحقيقة الا بقدر ما يدخل في قلوب الفرنسيين الرعب والوهن وتثبيط عزائمهم وبقدر ماقدم إبنهم وقائدهم بالأمس وألد اعدائهم اليوم من تقارير مزيفة بقدر ما كان يرفع للكولونيل سعيد كل خفية وبينة من خفايا الغزاة ومن نواياهم تجاه المواطنين .. وقد كانت الاسرار تأتي منه اولا بأول حتى لقي حتفه رحمه الله على يد بني قومه الذين كشفوا امره على طول المدى وذلك بعد ان قام بخدمات لجيش التحرير يستحق عليها التقدير والاجلال .. اما كيف كشف امره ؟ .. فهذا شيء لا علم لي به والسبب ان روعة القصة جعلتني انسى ان اسأل عن التفاصيل التي آلت اليه نهايته . ولا

يسعني هنا الا ان اقول رحمه الله امرؤاً عرف الحق وانصـــاع اليـــه ، مكافحاومجاهدا للحق ومن اجل الحق وعرف الباطل وحـــارب اهله من اجل الباطل ..

اما الكولونيل سعيد فانه حتى كتابة هذه الاسطر لا زال على قيد الحياة في الجزائر وكما انه كان عضوا في المجلس الوطني فانه الان عضو ايضا في المجلس التأسيسي الجزائري .

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان سعيدا انجب ابنه البكر الذي ابلى بلاء حسنا في الجزائر بصورة لا تقل عن مواقف والده البطولية وقد استشهد الفتى رحمه الله في احدى المعارك وهو لا يزال في ريعان شبابه وعنفوان فتوته ، وقد قرر المجاهدون الجزائريون ان يكتموا الخبر عن والده حتى تـــأتي الفرصة المناسبة .. وقد جاء ذلك اليوم الميمون الاغر الذي يجدر به ان يخبر المجاهدون سعيدا باستشهاد ابنه .. وكان ذلك اليوم هو اليوم الاغر المحجـــل الذي يحق لناطقي الضاد جميعاً ان يفخروا به وان يرفعوا رؤوسهم عالية الا وهو اليوم الذي اخذ به الجزائريون استقلالهم بحد السيف بعد ان رووا تربة ارضهم الطيبة من دماء شهدائهم الزكية الطاهرة بذلك اليوم نفسه اخبر سعيد باستشهاد ابنه البكر فكانت نشوة النصر ولذة الفوز وقهر العـدو وطرد الغزاة ذليلين مدحورين من ارض الوطن اعظم سرورا واجل غبطة واكبر استبشارا مـــن هول فاجعة سعيد بفلذة كبده ..

ولله در الشاعر القائل

وللحرية الحمراء باب بكل يـد مضرجة يدق

وبعد فقد كان الاحرى بهذه القصة ان اضعها في حقل (الجزء الأول من

شيم العرب) في فصل العفو .. ولكن لم اذكرها الا بعـــد ان انتهى الجزء المذكور من الطباعة .. وهذا ما جعلني اضطر الى وضعها . بفصل الشجاعة .

عمل لا يكفره الا الشهادة

- ٣ -

كما ان الفقر والحرمان يكونان احيانا من اهم حوافز النبوغ واعظم بواعث الاعتماد على النفس كذلك تكون الخطيئة التي يرتكبها المرء في حياته من أهم الدوافع التي تجعله قديسا او سخيا [١] بذالاً لكل ما يملك من مال ..

والشجاع الذي تبلغ شجاعته الى حد التضحية بالنفس .. حتى هذا قد تكون الحافز لتضحيته هذه احيانا اما الفقر وفقا لما قاله ابو الطيب المتنبي :

اذا لم تجد ما يبتر الفقر جالسا   فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان ثروة او منيــــة   لعلك ان تحظـــى بواحـــدة عذرا

او ما يشعر به من مركب نقص بسبب ارتكابه لجريمة ما ..

وبطل قصتنا هذه من النوع الثاني وهو رجل يدعى عائد بن منيس من فخذ المفضل من عشيرة عبده المتفرعة من قبيلة شمر ..

ولد عايد في البادية وفي المنطقة الشمالية من شبـــه الجزيرة ونشأ نشأة صحراوية كشباب البادية الخشنين المفتولي الساعد . ولا اعرف شيئا عن عمله في

(١) : اعرف انسانا كريما الى ابعد حدود الكرم يقيم الولائم بمناسبةوبدون مناسبة بينماهو شرير في سلوكه الاجتماعي ما بعده شرير .. فكرمه هذا حينئذ ناشيء عما يشعر به من مركب نقص كتكفير لخطئه . وستاراً لجريمته

صباه ولكنه لا يعدو ان يكون امـا راعيا لإبل اهله فيما اذا كان لاهله ابل كثيرة او حارسا لها في الفلاة على ظهر فرسه من غارة الغزاة ..

ولما كان عرب البادية معرضين دائما وابدا معرضين للآفات التي تصيبهم فلا تبقي عند احدهم (ثاغية ولا راغية) كغارة الغزو مثلا او كسني القحط التي تقضي على الزرع والضرع .. فان الامر لا يعدو ان يكون اهل عايد اصيبوا بكارثة من هذا النوع مما جعل عايداً يفر عن ابيه وأمه وذويه تائها هائما على وجهه محاولا ان يجد له عملا يوفر له لقمة العيش سو اء كان هذا العمل شاقا او مليئـــا بالمخاوف والاخطار ..

كان عايد يسمع وهو عند اهله عن الشام وعن خيراتها وانهارها واشجارها ووفرة العيش الهنيء وماء الفيجة المريء ومناخها العذب فشخص نحوها محاولا ان يجد له عملا ما يوفر له قوته اليومي .. وعندما حل في ربوعها ذهب ينقب عاصمة الامويين عن اي عمل يكسب به ما يسد رمقه ولكن اين للبدوي ابن الصحراء ان يحسن الاعمال المهنية التي يقوم بها ابن المدن فالبدوي لا يعرف الا مهنتين فقط وهما رعاية الابل او القتال على شتى انواعه .. وربما كانت المهنة الاخيرة احب الى نفسية البدوي الابي من الاولى طبعا . وكانت نفسية عايد من نوع النفوس التي طبعت على حب القتال وفطرت على الشجاعة والاقدام .. ولكن اين لعايد ان يجد في دمشق ميدانا يشبع به فراغ نفسه فليس في المدن شيء من ذلك ..

أيكون عايد اجيراً عند حلاق ام مساح احذية او عاملا عند طباخ ليقدم للزبائن اطباق الطعام ثم يغسلها بعد فضلاتها ام (جرسونا) في احد الفنادق او خادماً في احد مقاهي دمشق ؟؟ لا لم يقبل عايد اية مهنة من هذه المهن لنفسه حتى ولو بات على الطوى الليالي تلو الليالي .. فظروف حياته العائلية وتربيته الاجتماعية وما ورثه من بيئته وابائه كل هذه العوامل جعلت عائداً يحمل نفسا

كنفس ذلك الاسد الذي يقال عنه : ان شباباً من رعاة الغنم ذبحوا شاة من اغنامهم ليقتاتوا من لحمها وعندما اقدموا على سلخ جلدها جاءهم الاسد فلاذوا بالفرار هرباً منه .. وقد خيل الى الشباب ان الأسد لن يعتدي على اغنامهم ما دام ان هناك شاة مذبوحة بين يديه .. ولكن الاسد ترك الشاة الميتة وذهب يختار شاة من الغنم ليفترسها بيده ..

وهكذا كانت نفس عائد صنوا لنفسية الأسد الذي لا يأكل الميتة مهما بات على الطوى ، وبصرف النظر عما في ذلك من شذوذ المهم ان طبيعة الصحراء والادغال التي خلقت من الوحوش نفساً تأنف من أكل لحم الميتة ولا تستسيغ ان تدنو منها مهما لحق بها من جوع .. فانه حرى بتلك الطبيعة ان تخلق من البدوي نفساً مماثلة تقرف من كسب العيش عن طريق مهنة متواضعة من المهن السالفة الذكر كقرف الاسد من الجيفة عينا بعين .

ظل عائد في دمشق كالأسد بوسط القفص وجاءت ثورة المواطنين السوريين على الفرنسيين المستعمرين عام ١٩٢٥ وقد فكر عايد ان يشارك الثوار لابنفس الوعي والشعور العربي الشامل الذي يحمله اولئك الابطال الواعون لا لم يشاركهم بشيء من ذلك ، لا لانه بدوي ، والبدوي مع الأسف لم يتجاوز شعوره القومي حدود قبيلته خاصة بذلك العهد الذي لم يتسرب به الوعي العربي الشامل الى كافة ابناء الضاد بصورة عمت البادية كما عمت الحضر ، كما هو الامر الواقع الآن .. وانما كان تفكير عايد بمشاركته للثوار السوريين محصوراً على حب القتال وابراز موهبة الشجاعة الكامنة في خبايا نفسه او بصورة اصرح وأوضح كان الدافع لرغبته مشاركة ثوار سورية هو الفقر المدقع فالشاب يريد ان يشارك الثوار طمعاً في ان يجد ما يسد به رمقه مما يقع بين يديه ككسب يغتنمه من اسلاب العدو الباغي ليس الا .. ولكن حتى هذه الامنية لم يتيسر له تنفيذها لعدة موانع منها انه اعزل من السلاح ولا يملك من المال ما يبتاع به

وجبة يومه فضلا عن ان يبتاع بندقية وعتادا الخ .. منها انه حتى ولو قدر المستحيل واستحصل على السلاح بأية وسيلة كانت فانه ليس من السهل ان يقبله الثوار كمحارب بين صفوفهم ويطمئنوا له ما دام انه مجهول الهوية ...

ماذا يفعل عايد ؟ .. لقد اتيحت له الفرصة بقيام الثوار السوريين ليحارب ويقاتل ليكسب العيش من وراء هذه الحرفة الوراثية.. واخيراً قرر ان يلتحق بالثوار في مخابئهم وقد ازداد مضياً في عزيمته عندما ذهب يسأل عن شباب من قبيلته نفسها الذين كان يعهدهم يقيمون في حي متواضع في دمشق جمعته واياهم ظروف مماثلة ولكنه لم يجدهم وانما وجد وصية له منهم تشير ان رفاقه ذهبوا ليلتحقوا بالثوار منذ اليوم الاول. عندئذ صمم ان يلحق بهم الا انه ما لبث قليلا حتى ورد اليه خبر يفيد ان رفاقه قد استولى عليهم الثوار وذكوهم كما تذكى الشاة، وفي جانب هذا الخبر الذى اشيع عن مصرع ابناء قبيلته أشيع نبأ ثان مفاده ان حكومة الاحتلال الفرنسية افتتحت مكتباً لتجند فوج من الفرسان باسم الشركس وان الحكومة تتعهد بدفع ثلاثة عشرة جنيهاً ذهباً عثمانياً بالشهر كما تدفع مرتب شهر مقدماً لمن يقبل الانضمام لهذا الفوج من اي جنس يكون ومرتب الشهر المقدم يعتبر ثمناً للحصان الذي سيكون ملكاً للمتطوع ..

ظل عايد حائراً بين هذا العرض المغري من ناحية وبين معرفة مصير رفاقه الذين لم يأت منهم خبر يفيد انهم قتلوا فعلاً على يد الثوار او انهم التحقوا بالثوار وفازوا بالغنيمة والكسب اللذين لم يشغل فكر عايد الا هما ..

واخيراً .. تواترت الانباء التي لا تقبل الشك ان رفاقه وبنو قبيلته قتلوابيد الثوار ولكن هل كان قتلهم بيد الثوار كما اشيع او ان المستعمرين الغادرين وجدوهم ذاهبين الى الثوار فقتلوهم .. ومن ثم اشاعوا انهم قتلوا بيد الثوار ؟ .. وقد ظلت الحقيقة مجهولة حتى يومنا هذا .. الا ان الاخبار المتواترة تفيد انهم قتلوا بيد الثوار ، وهكذا ثبت لدى عائد ان بني قبيلته قتلهم الثوار ..

اذن ؟ .. ماله والذهاب الى القوم الذين قتلوا اقاربه وسوف يقتلونـه ايضاً اسوة بمن قبله .. اليس والحالة هذه ان الاضمن لسلامته ولكسبه المادي ان ينضم الى فوج الشركس الذي هو اضمن بفائدته المحسوسة المغرية من الالتحاق باولئك الذين قتلوا رفاقه وسيلحقونه بهم ؟؟.

لم تطل مدة التردد عند عايد بين اختيار احد الجانبين خاصة بعد ما ثبت لديه ان رفاقه قتلهم الثوار لذلك بادر بتنفيـذ رأيه الاخير اي الالتحاق بفوج فرسان الشركس فلم يتردد مكتب التجنيد عن قبوله فوراً ولا عجب ان يقدم له ١٣ جنيهاً ذهبياً كراتب شهر مقدم لا عجـب بذلك فقد كانت ملامح الفتوة والشجاعة بارزة في محياة ومتجسدة بوجهه الصارم الذي هو كحد السيف .

لم يكن عايدبحاجة الى التدريب على ركوب الخيل ولا على معرفة استعمال السلاح .. فكلا هاتين الناحيتين كان مدرباً عليهما منذ نعومة اظافره .. امـــا الشجاعة فقد كانت مطبوعة بدمه ولحمه .

ولما كانت الشجاعة خلقاً في جبلة المرء والجبن ايضاً خلقاً فكما ان الجبان يفر هارباً عن ابيه في ساحة الوغى لينجو بنفسه .. كذلك الشجاع يقاتل قتـــال الابطال حتى ولو حكمت عليه الظروف ان يقاتل بجانب اعدائه ..

وما يقال عن الشجاعة والجبن يقال ايضاً عن الامانة والاختلاس وعن الوفاء والغدر فالوفاء خلق ايضاً يجعل صاحبه يفي مع الداعدائه والخيانة والغدر خلق يجعلان صاحبهما يغدر باقرب الاقربين اليه ويخون اعظم من يحبه ويأمنـه.

وهكذا كان خلق عائد الشجاعة التي لم يتجرد عنها وهو مع الاسف مع الد اعدائه وقد استعملها مع الاسف اقولها مرة ثانية وثالثة ضد بني عقيدته الروحية وبني دمه وبني وطنه ولغته محارباً بجانب اولئك المستعمرين الطغاة الذين لا تربطه بهم اية رابطة اللهم الا رابطة المنفعة المادية التي دفعته الى القتال بجانبهم ..

ولم يكن قتال عايد وشجاعته قتال المرتزق بل كان كقتال الشجاع الذي يقاتل كشجاع من اجل الشجاعه والشرف بصرف النظر عن كون الخزى والعار اللذين ينالهما بسبب شجاعته الجنونية هذه هماسوأ واقبح الف مرة من عار الجبن الذي لا يستطيع ان يقبله لنفسه بل والذي لم يبد شجاعته هذه الا فراراً من وصمة عار الجبن الذي هو اقبح العيوب عند الاعراب ..

لقد اشتهر عايد بالشجاعة شهرةفائقة ونال ما ناله من الاوسمة الحربية تقديراً لشجاعته وجمع من المال ماهو كافان يشتري له ابلاً تجعله انساناً ثرياً بين قومه فاصبح الان ليس بحاجة الى البقاء في عمله هذا الذي شعر بالتالي بعذاب وجدانه وبوخز ضميره عندما يذكر انه يقاتل بجانب العدو ولم يكن عايد في هذا الجيش شرطياً مدنياً محافظاًعلى امن المدينة او شرطي صحراءمحافظاً على امن الصحراء من غزو البادية وسلب بعضهم لبعض .. لا لم يكن لا من هؤلاء ولا من اولئك وانما هو من فرقة الفرسان المحاربين فقد كان محارباً بجانب عدوه المبين ومقاتلاً لبني ملته وامته . . لقد شعر عايد ان كل ساعة تمر عليه في بقائه في جيش الاحتلال البغيض انما هي لعنة تاريخية ابدية ولذلك ليس لديه الا ان يستقيل من هذه المهنة اللعينة ولم يتردد الفرنسيون عن قبول استقالته وذلك انهم ليسوا بحاجة لان يدفعوا له ١٣ جنيها بالشهر ولا سيما وقد سحقوا الثوار .. ولذلك رحبوا باستقالته كما رحب هو بفراقهم خاصة بعد ما شعر بمقدار الاثم الذي ارتكبه في مناصرته لهؤلاء الغزاة الباغين .

ذهب عائد الى اهله جامعاً من المال ما لم يحلم بجمعه وابتاع ابلا ونصب بيتاً واصبح ذا جاه بين قومه .. ولكن شيئاً واحداً ظل يلاحقه وهو شبح اولئك المواطنين الذين كان في مقدمة الهاجمين عليهم والذين لا بد انه قتل منهم من قتل، ظل عايد يعاني من القلق النفسي والشعور بمركب النقص الشيء الذي كدر صفو عيشه وجعله امرأ لا يهدأ له بال ولا يطيب له عيش ولا يشارك رجال عشيرته في سرورهم وافراحهم .. حاول الرجل ان يقاوم مركب النقص الذي يشعر به

باعمال الزهد والتصوف والسخاء فبدل مجرى حياته رأساً على عقب .. فبعدما كان ذلك الشاب الوسيم الذي يظهر دائماً بمظهر الفتوة والتجمل والاعتناء بهندامه الخ .. اصبح الان في زي الناسك شكلاً وفي سلوك العابد تطبيقاً عملياً وفي خلق الكريم المحسن اعتقاداً وفعلاً .. قام بهذه الاعمال التي تعتبر انقلاباً من نفسه على نفسه ظاناً انه اذا واصل استمراره في اعماله هـذه فانه سوف يذهب عنـه ذلك القلق الوجداني الذي ازعجه في حياته ليلها ونهارها .. يقظاً كان ام نائماً .. ولكن صلاته النافلة التي يبتهل بها باستمرار آناء الليل واطراف النهار وصيامه الدهر المتواصل وسخاؤه في سبيل البر والاحسـان وتسبيحه وتهليله الدائمين واعتزاله اندية قومه وابتعاده عن اللغو ، بل وتجرده من الدنيا زاهداً بكل متعها ومغرياتها كل ذلك لم يدخل في قلبه الطمأنينة والهدوء بل ظل شبح اولئك الشهداء الابرياء يلاحقه في محرابه وفي خلواته وفي سباته وفي كل حركة من حركاته وسكناته ..

ماذا يفعل التعيس بعد ذلك لقد اصبحت حياته عبئاً عليه .. كيف لا وهو المسلم الذي لم يهدد دستور الاسلام بوعيده لمرتكب اية جريمة كتهديده لقاتـل المؤمن بقوله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيماً .)

وعندما يسمع عابد هذه الآية ويذكر ما جنته يداه بقتله لاخيه المؤمن وأي مؤمن هذا ؟ وبأي سلاح قتله.. ولصالح من قتله وتحت راية من كان يقاتل؟.. حينما يذكر ذلك يعود نادباً حظه الاسود وماقتا يومه التعيس الذي جاء به الى هذه الدنيا ولاعنا ظروفه السيئة التي آتت به الى ارتكاب تلك الجريمـة النكراء ومحاولاً ان يريح نفسه من هم حياته هذا بأي وسيلة كانت ما عداالانتحار لاجبنا من الموت او خوفاً من الردى وانما لما قرئه من وعيـد في الدستور الاسلامي لقاتل نفسه .

سمع عائد بالحديث النبوي ما معناه : (يضحك الله من رؤية القاتل والمقتول في الجنة. فقيل كيف يكون ذلك يا رسول الله فقال : يكون المقتول قتل بيد خصمه عندما كان مشركاً ومن ثم يؤمن القاتل ويجاهد في سبيل الله ويبلي بلاء حسناً حتى يلاقى ربه شهيداً من اسهم احد المشركين كما استشهد اخوه المؤمن من سهمه فيلتقيان في الجنة وكلاهما نال الشهادة) ..

كان عايد يرى ان لا مخرج له من عذاب ضميره ومن الازمة النفسية التي يعانيها الا ان تتاح له الفرصه التي يجاهد فيها حتى يلاقي ربه شهيداً وكم تمنى وقوع ثورة اخرى بين المواطنين والغزاة المستعمرين لعله يقوم هذه المرة بعمل معاكس لعمله الاول عملاً برضي به ضميره ويرضي عنه مولاه .. ولكن هذه الامنية طال مداها بدون ان تتحقق حتى بدأ جسم ذلك الشاب القوي يذوي الى ان ظل هيكلاً خاويا .. فمن رآه لا يظن الا انه ابن خمسين او ستين سنة وظل يزداد جسمه انحطاطاً وضميره ايلاما وكل يوم يمر عليه يكون اسوأ من اليوم الذي قبله الى ان جاءت بشائر الفرج والسرور توحي الى نفسه المعذبة بقرب الامنية التي كان يحلم بها .. لقد لاح له الان بريق من الامل عندما تناقل الركبان لـه احتمال وقوع حرب بين اليهود من جانب وبين المجاهدين العرب من الجانب الثاني.. لقد بدأت الشائعات تزداد كما بدأت آمال عائد تنمو وتزدهر كازدهار الورد في ايام الصيف .. وبدأ الدم يسير في عروقه وقد كانت المواصلات بين قبيلته وبين المدن شبه معطلة الامر الذي جعله يتحرى الاخبار من القادمين من مدن العراق المتاخمة لمنازل قبيلته بحرص شديد ..

وفي ذات يوم جاءت قافلة من الشام تزف لـه البشرى باسمى ما يحلم به من امان واعظم ما يداعب عقله الباطني من أمل .. انها البشرى التي ظل يرقص على اوتارها بزهو وخيلاء كالطاووس ويصدح على نغماتها كالبلبل .. لقد كانت خلاصة هذه البشرى تفيد ان الجامعة لعربية فتحت مكتباً في دمشق من اجل

تجنيد اي متطوع من المجاهدين العرب يرغب في الكفاح دون فلسطين والذود عنها من غزو اليهودية العالمية ومن وراءها دول الاستعمار الظالمة .

هلل عايد وكبر لهذه البشرى السارة التي طالما تمناها وابتهل الى الله سراً وعلانية سائلا اياه تحقيقها .. اما وقد تحققت امانيه فلا يسعه الآن الا الذهاب الى دمشق قلب العروبة ومركز قيادة المتطوعين المجاهدين .. ولم يبت تلك الليلة التي بلغه به النبأ السار عند اهله بل سرعان ما اعد العدة وذهب فوراً ممتطياً راحلته النجيبة التي اعدها لمثل هذه الرحلة.. وكان اكره الناس اليه من اهله الرجل او المرأة اللذين يقولان له (اعادك الله علينا) لانه مصمم على ان لا يعود الى اهله..

كانت المسافة بين منازل بادية عايد وبين دمشق لاتقل عن ثلاثة عشر يوماً لمسير الابل النجائب ولكنه جعلها بسيره الحثيث مدة اقرب من الحد المعتاد . وصل عايد الى عاصمة الامويين بالامس ومركز الانطلاقات العربية اليوم ولم تكن البلاد غريبة عليه الآن فقد سبق ان جاءها عام ١٩٢٥ كما سلف ذكره .. وكان وقتذاك في آخر العقد الثاني من عمره وها هو الآن في بداية العقد الخامس كان وقتها في ريعان فتوته وشبابه اما الآن فقد طوى جسمه البائس وخز الضمير واوهن قواه الهزيلة شبح اولئك الشهداء الابرياء فأصبح من ينظر الى – وجهه الشاحب الذابل وجسمه النحيل الضامر لا يقول عنه الا انه في العقد السابع او الثامن من عمره ..

ذهب فوراً الى مقر قيادة المتطوعين محاولا الانضمام بصورة رسمية الى جيش المجاهدين المسمى وقتذاك (جيش الانقاذ) والذي يتولى قيادته فوزي القاوقجي ويتولى الاشراف على تنظيمه وتدريبه وتموينه المرحوم طه الهاشمي ..

وبعد الجهد الكثير والعناء الطويل تمكن عايد من مقابلة طه الهاشمي في المبنى القديم لرئاسة اركان الجيش السوري .. وبعد تبادل التحية بين الهاشمي

وعايد اوضح الأخير رغبته الصادقة بالانضمام الى جيش الانقاذ فدار بينهما الحوار التالي :

الهاشمي – انت رجل كبير السن ونحن لا نقبل الا الشباب ..

عايد – اعاهدك الله انني سوف اكافح كفاحاً لا يقوم به من هو في سن العشرين ..

– ومع كبر سنك لست مدرباً ..

– ابعثني لجبهة الحرب واذا لم اثبت لكم مقدرة فلك ان تعاقبني بما تريد..

– على أية حال لا استطيع اقبلك بحكم كبر سنك ..

– انا اريد الجنة يا هاشمي وابواب الجنة مفتوحة للشهداء المخلصين لافرق بين الشاب والشيخ .

– اذا كنت تريد الشهادة صادقــاً فهاهم اليهود اذهب وقاتلهم حتى تنال الشهادة ولا داعي لان اسجل اسمك ضمن المجاهدين بل انت سجل نفسك عملياً..

– سوف افعل يا هاشمي ..

خرج عايد من مكتب الهاشمي وراح الى الموقــع الذي اودع به راحلته فوضع الرسن في رأسها وسلمها رجلا يتولى بيعها وما هي الا لحظة حتى جاء له الرجل بثمن راحلته التي كان ثمنها الاساسي من بقية ذلك المال الذي جمعه من مرتباته عندما كان في سلاح الفرسان الفرنسي فذهب واشترى من ثمــن ذلوله بندقية طيبة وعتاداً كافياً وقصد ميدان القتال رأساً . فألتحق بالمجاهدين ولحسن حظه وحظ المجاهدين ايضاً انه وجد على رأس احدى سرايا المجاهدين شخصاً

يدعى سعدون حسن من نفس قبيلته كما وجد في تلك السرية كثيراً من المتطوعين الذين يعرفونه بل ويعرفون عنه البطولة .. فكان السرور متبادلاً وبقدر ما سر بوجود مجاهدين يعرفونه جيداً بقدر ماسر اولئك المجاهدون الذين يعتبرون عايدا بشجاعته واقدامه سرية كاملة .. انضم عايد الى تلك السرية التي كان يقال لها السرية الاولى التابعة لفوج اليرموك الاول.. وكان هذا اسمها في بداية الحرب اما فيما بعد فقد سميت (السرية الثانية السعودية التابعة للفوج السعودي) ..

لقد بلغ عايد امنيته الآن من حيت المبدأ اما من الناحية العملية فانه لازال لم يبلغ منتهى امنيته بعد ولكنه في طريقه اليها هذا وقد اسعده الحظ بحضور اول معركة وثانية وثالثة الخ .. وكل واحدةمن هذه المعارك كان يقوم بها باقدام الشجاع الذي يريد الشهادة ولا شيء غير الشهادة .. ولكنه لم يحظ بكل ما يتطلبه المحارب المنتصر على عدوه من انتصار وغنيمة الا الشهادة لم تتيسر له .. كان يطلب الموت ولكن كانت الحياة توهب له وقد جاءت الهدنة الاولى التي توقف بها القتال بين العرب واليهود مدة تقارب الاربعين يوماً وعاد عايد خلال تلك المدة الى حزنه وبؤسه .. وكل يوم يمر عليه من ايام تلك الهدنة اللعينة يعتبره يوم شؤم ما بعده شؤم .. وكل ما يخشاه هو ان تدوم الهدنة الى اجل غير مسمى وهذا يعني تحطيم امانيه وبقية آماله المعسولة .. لقد ظل الرجل ينتظر انتهاء الهدنة بفارغ الصبر وقد جاءه نبأ انتهاء الهدنة واعادة القتال ببشرى ما بعدها بشرى اليه وبالرغم من ان اليهود بعد الهدنة الاولى قد بلغوا من قوة السلاح الثقيل الشيء الذي يفوق ما كانوا عليه من القوة قبل الهدنة اضعافاً مضاعفة ولكن هذا شيء قد يحسب له رجال السياسة او من هو على شاكلتهم حساباً اما عايد فان هذه الناحية لا تهمه لا من بعيد ولا من قريب .. والسبب انه كان معتمداً على قوة ايمانه باحدى الحسنيين اما النصر على العدو واما الشهادة وكانت الاخيرة احب الى قلبه من كل شيء بل كانت امنيته الوحيدة وعزاؤه بوحدته وانسه بخلوته ولكنه يرى ان الوقت طال عليه بانتظار ما يستهدفه وما

تصبو اليه نفسه المطمئنة الطاهرة التي لا يطيب لصاحبها العيش ولا لذيذ المنام حتى يلاقي ربه شهيداً بعدما يبلي بلاء حسناً في الجهاد المقدس ضد اليهود المعتدين..

« انتهت الهدنة الاولى المشؤومة التي بقدر ما كانت بصالح اليهود بل امتدادا لاجلهم وتوطيداً لجذور سلطتهم في قلب وطننا العربي كانت كارثة علينا ووصمة عار تاريخية لا يمحوها الا انقلاب فكري يوحد امة العرب وعندما تتحد هذه الامة فان اسرائيل لا تستطيع ان تقف صامدة في وجه العرب لحظة واحدة ولا اعتقد انها بحاجة الى حرب بل سوف تنهار اعصابها وتتحطم نفسية رجالها بمجرد أن تتم وحدة امة الضاد لانها لم تهزمنا عسكرياً وانما هزمتنا بسبب اختلافنا وتفرقتنا .. ولهذا سوف نهزمها لا محالة عندما يزول هذا السبب نفسه بعون الله.. ولعل المطلع على مجرى الاحداث في تاريخنا العربي القريب يذكر قلق اسرائيل ومدى ما وصلت اليه من الانهيار والضجيج عندما شعرت في مناسبة ما بقيام وحدة او اتحاد بين الدول العرب .

* * *

ولنعد الآن الى عايد الذي كان ينتظر انتهاء تلك الهدنة والعودة الى السلاح بفارغ الصبر ..

لقد انتهت الهدنة وبانتهائها انتهى كل ما لدى عايد من بؤس وتشاؤم ولئن خاض قبل الهدنة معارك دامية واراد الشهادة بقدر ما استطاع ولم يحظ بها فانه هذه المرة سوف لا يترك الفرصة تفوته بدون ان يبلغ امنيته التي لا يطيب له عيش ولا يهدأ له بال الا بتحقيقها ..

لقد دارت المعركة الاولى بين اليهود والعرب وخاض غمارها عايد بشجاعة لا يقال عنها منقطعة النظير فحسب بل شجاعة تهور وغنم من اليهود رشاشاً ولكنه لم يحظ ايضاً بغنيمة الشهادة التي حارب وسيحارب من اجلها ...

سمع عايد ان هناك مفاوضات تجري بشأن وقف القتال بين العرب واليهود وهذا يعني بالنسبة له القضاء التام على جميع آماله وامانيه ، فسنه لم يشفع لهحق ينتظر جولة اخرى تأتي بها الطواريء او تخلقها المفاجآت ولا بد له والحالة هذه ان لا يدع الفرصة تضيع من بين يديه بل ينبغي له ان يبذل كل ما لديه من الجهد باهتبال الفرصـــة التي تمكنه من الوصول الى امنيته وان لا يتوانى عندما تأتي الفرصة المناسبة عن المبادرة بالحصول على الفوز بالغنيمة قبل ان تفلت من يديه كاافلتت بالمناسبات السابقة ومن ثم لا تتاح له الساعة التي يتمكن بها من الحصول على غنيمته التي تدغدغ خياله وتداعب آماله في كل حركاته وسكناته ..

وما ان جاءت معركة الشجرة الكائنة في لواء الجليل في عام ١٩٤٨ - ١٣٦٧هـ حتى فاز عايد بغنيمته وبلغ اقصى ما تصبو اليه نفسه الزكية من امنية سعيدة ولقي ربه شهيداً وذلك بعدما اباد من اليهود برشاشه الذي اغتنمه منهم العــدد الوافر وذلك انه هجم على اليهود الغزاة المعتدين في وسط استحكاماتهم وحصونهم مما جعل الحقد يبلغ بالطغاة حداً جعلهم يحرقون جثمان الشهيد فغفر الله لعايــد واسكنه فسيح جنانه .. (١)

(١) وهكذا يأتي الخير احياناً عن طريق الشر وتأتي السعادة عن طريق الشقاوة ، ولئن كان الفقر قبحه الله العامل الاساسي الذي ادى بعايد الى ما وصل اليه من قتاله بجانب الفرنسيين المعتدين فان شعوره بجريمته واحساسه بمركب نقصه ويقظة ضميره الحي النير كل ذلــك خلق منه انساناً لا يعترف بخطيئتها ويحاول ان يكفر عنها بالصلاة والصوم وقيام الليل والاحسان فحسب بل رأى ان يجود بنفسه الكريمة قرباناً لله وكفارة عما ارتكبه من خطيئة .. ومن جاد بالنفس الكريمة أجود .

اطلب الموت توهب لك الحياة

- ٤ -

احترت اي العناوين اضع لهذه الحادثة : اهو العنوان الاعلى ؟ .. ام اضعها بعنوان (اما الصدر والا القبر) .. فوضعت قرعة فجاءت على العنوان الاول وكلاهما من حيث المعنى واحد فهذا العنوان من الحكمة المأثورة عن الخليفة الاول ابي بكر رضي الله عنه فكانت من أهم وصاياه لجنوده هذه الكلمة : (اطلب الموت توهب لك الحياة) .. واما الكلمة الثانية فانها مأخوذة من بيت الشاعر القائل :

ونحن اناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين او القبر

ولا شك ان المعنى واحد في كلا الامرين والشيء الذي نحن في صدد ذكره الآن رجل كتب عنه الكتاب حتى كلت اقلامهم وتحدث عنه مؤرخو العرب وغير العرب حتى اصبح الكاتب الذي يريد ان يكتب عنه كأنه يردد عبارات معينة قد تختلف عما كتبه سابقوه من حيث اللفظ ولكنها لا تختلف قيد شعرة من حيث المعنى ولذلك نجد ان الكتابة عنه بأي معنى من المعاني يكون من تحصيل الحاصل .

والذي يخفف الوطأة علي امر واحد وهو انني بهذا الباب بالذات اكتب عن الشجاعة التي هي من خلق العرب وشيمهم وكتابتي عن هذه الصفة بصورة خاصة وعن اي معنى من المعاني التي تعتبر (من شيم العرب) وعاداتهم بشكل

اشمل واعم محصورة على الاحداث والقصص التي لم تدون بعد في الكتب المطبوعة تلك التي اخذتها عن صدور الشيوخ الذين منهم من لقي ربه ومنهم من هو في طريقه اليه .

والقصة التي اقدمها بين يدي القارىء وان كان بطلها كما اسلفت لم يترك الكتاب من ترجمة حياته شيئاً على حد اجتهادهم الا جاؤا بـــه ولكن المعنى الذي سوف اورده لم يشر اليه احد لا من قريب ولا من بعيد .

وخلاصة البحث يأتي كما يلي :

عندما خرج المرحوم الملك عبد العزيز من الكويت على رأس النخبـــة الاشاوس قاصداً بلاده الرياض التي كانت تحت نفوذ المرحوم الامير عبد العزيز بن رشيد والتي يحكمها بالنيابة عنه عجلان رحمه الله كان الفتى قد عقد العزيمة بصورة تختلف عن مغامرته الاولى التي حاول بها ان يهجم على نائب ابن رشيد والتي باءت بالفشل .. اما محاولته الاخيرة والتي كانت بداية مجده وانتصاراته كما كانت بداية هزيمة عدوه .

خرج الفتى من الكويت وهو واضع باحدى يديه الكفن من جهة والنصر من الجهة الاخرى وعندما دنا من مدينة الرياض ليلا رسم الخطة التي صمم على تنفيذها لا محالة بعد ذلك طلب من رفاقه ان يسيروا معه الى مكان ما فذهب النخبة بمعية قائدهم بدون ان يعرفوا مادا يريد حتى وصلوا الى المقبرة ..

وكانت الغاية من ذلك هو ان يقف برفاقه عند قبر شقيقه فيصل [1] ويعلن لهم انه اما ان ينهي مهمته بنصر على العدو والقضاء عليه او انه سيلاقي حتفه ، فان كانت الاولى فبها وان كانت الثانية فانه يوصي ان يكون قبره غداً بجانب شقيقه .. ثم طلب من رفاقه المغامرين ان يختاروا احد السبيلين : اما المضي

١ : ثمة رواية تفيد انه قال لرفاقه تلك الجملة بدون ان يذهب بهم الى المقبرة .

معه الى هذه العزيمة ومن لم يكن كذلك فما عليه الا ان يذهب الى حيث يشاء، فلم يتخل عن مشاركته بالمغامرة احد .

هذه الكلمة التي تعتبر من أهم القواعد الاساسية التي بنى الفتى على اساسها مغامرته الناجحة ، لم يشر اليها أي مؤرخ .

وبالنظر لما لهذه الجملة من اثر فعال في مجرى تاريخ الجزيرة ولما تعتبر لنا عن اقدام وشجاعة قائلها فقد وجدنها صالحة بأن اضع لها مكانا ضمن فصل الشجاعة في حقل الشيم العربية .

اما ان يموتوا ظمأ او يحيوا شجعانا

-٥-

كثيراً ما يقع في شمال شبه الجزيرة صراع مستمر بين قبيلة شمر وبين قبيلة عنزة فالاولى قحطانية والثانية عدنانية ، وكانت الحرب بينهما سجـــالا والغزوات متبادلة ، ولهاتين القبيلتين من العادات والتقاليد ما هو متقارب اكثر بكثير من تقاربهما في أية قبيلة اخرى واجمل سجية يتفقان عليها هي اعترافهما ببعضهما للبعض بالشجاعة والكرم والمروءة .. وبالرغم من ان العداوة التقليدية التي بين هاتين القبيلتين تكاد ان تكون من ارسخ العداوة القبلية قدما ولكن رغم ذلك نجد كلا منهما ينظر لصاحبه نظرة اجلال وتقدير .. وهذه الظاهرة التي هي امتداد للخلق العربي الاصيل تتجلى بصورة بارزة على افواه شعراء كلتا القبيلتين في شعرهما الشعبي الذي هو المرآة المنعكسة عن اخلاقهما فنجد الشاعر مبيريك التبيناوي شاعر قبيلة شمر في عهده منذ مائة وثمانين سنة نجد هذا الشاعر في كثير من شعره يمتدح فرسان قبيلة عنزة وعلى رأس اولئك الفرسان فارس عنزة المشهور (عقاب) العواجي ، فنجد التبينـــاوني يقول في قصيدته التائيـــة الطويلة ما يلي :

وعقَابْ يامَا قالَ بالبْيتْ قمْهاتْ   عَزّي لكَم يالَابةٍ فاقِدِينَه

يقول الشاعر ان عقابا كريما مضيافا فكم من مرة ومرة قال لرجاله في بيته اذهبوا واتوا لنا بكذا من المائدة للضيوف هذا المعنى بقولـــه الشاعر في صدر البيت اما في عجز البيت فانه يقول ما اكبر مصيبة القبيلة التي تفقد كريمـــا شجاعا (كعقاب) .

وفي قصيدة بائية للشاعرالتبيناوي نفسه وفي مناسبة اخرى نجد الشاعر ايضاً يشير الى الفارس عقاب ورجال قبيلته فيقول :

أولاَدَ وَايِلْ كِنِّهم جَارى السَّيِلْ   قِدّامِهم غَلْبا يُهدُّون الأصْعَابْ
الكل منهم فَارَسِ يدّبَ الخَيلْ   متقَابِلين مِثْل أبآ زيدوذِيَاب

يقول الشاعر في صدر البيت الاول ان قبيلة عنزه كأنهم في الحروب السيل الجارف وفي عجز البيت ذاته يقول امامهم قبيلة شمّر الذين يستطيعون ان يقفوا موقف التحدي للفرسان الجبابرة ..

وفي صدر البيت الثاني يقول الشاعر كل من فرسان عنزة وفرسان شمر لهم مواقف مشهورة بالفروسية وفي عجز البيت يوضح المعنى الذي يشير اليه بهـذا الشأن فيقول ان ابرزفارس من قبيلة شمر التقى بابرزفارس من قبيلة عنزة فهما اشبه ما يكونان بابي زيد الهلالي المشهور وبذياب ابن غانم الفارس المشهور ايضاً والشاعر يقصد بهذا المعنى هايس القعيطاحد فرسان قبيلة شمر وعقاب العواجي اشهر فرسانقبيلة عنزة بزمانه المقصود انشاعر قبيلة شمر عندماامتدح بقصيدته التائية والبائية فرسان قبيلته لم ينل من فرسان قبيلة عنزة بأدني هجاء بل اعترف لهم بالفضل كرجال ابطال ينظر اليهم بعين ملوها التقدير والاعجاب كما نظر لفرسان قبيلته بنفس العين..وهذا هو الخلق العربي الاصيل فلم يكن للقذف يوالسباب في ادبهم مكان ، وهذا شاعر قبيلة عنزة واحد ابطالها المدعو مشعان بن زيدان عندماجاء بقصيدته التي امتدح بها قومه ولكنه في الوقت ذاته امتدح ايضاً رجـــال قبيلة شمر بالرغم من ان رجال قبيلة شمر في تلك الحادثة كانوا مقررين ان يتركوا ابن زيدان وغزاة قبيلة عنزة يموتون ظمأ لولا ان غزاة عنزة قاتلوا قتال الابطال حتى هزموا قبيلة شمر وشربوا الماء الزلال بالقوة لا بالرحمة وبالسيف لا بالمنة.

والقصة وقعت حوالي عام ١٢٣٤ هـ واليك مضمونها كما يلي :

خرجت حجافل غزاة من فخذ يقال له الصقور، ومن قبيلةعنزة ، قاصدين قبيلة شمر ، فبلغ المغزوين خبر الغزاة . فاخذوا لهم الحيطة. كما ان الغزاة ادركوا انه لا مكان لهم بالطمع باغتنام شيء من ابل العدو ، ما دام انه اصبح على اهبة الاستعداد . ومن الاعمال التي اتخذتها قبيلة شعر ، من اجل محاربة العدو والحيلولة دون مطامعه، انها اعدت العدة لضرب حصار على الآبار التي يحتاج العدو ، لان يستقي منها فيما اذا مسه الظمأ — اذ لا بد من ان يحس بالعطش فيحتاج الى الماء ، لان الظرف كان صيفاً — شديد الحرارة ..

وكان موقع الماء الذي لا بد للغزاة من ان يمروا به هو ما يسمى (الحزل) . فجاءت شمر وطوقت هذا المكان كي لا يتمكن العدو من ان يستقي منه . وكان سبيل الغزاة محتوماً على ان يكون على هذاالبئر الغزير بمائه والزلال القراح بطعمه ، ولكن هؤلاء الغزاة بعد مادنوا من البئر بلغهم الخبر ان العدو انذر بهم وانه طوق البئر بكل ما يملك من قوة السلاح والرجال . ولكن هذا النبأالسيء لم يبلغ الغزاة الا بعد ما دنوا من البئر وابتعدوا عنالآبار الاخرى مسافة بعيدة. او بالاحري بعد ما بلغ بهم الظمأ حداً لا يطاق . فما يسعهم بعد ذلك الا احدى السبل الآتية . — اما ان يستسلموا لشمر بدون قيد ولا شرط . واما ان يموتو ظمأ — واما ان يغامروا بانفسهم ويهجموا على العدو المتحصن بالخنادق المحفورة بحيث يسهل على اعدائهم ان يقتلوا منهم ما شاء الله ان يقتلوه . بينما عدوهم المتحصن في حصنه المنيع لا يستطيع رصاص الغزاة المهاجمين ان يمس احداً منهم بسوء — لقد فكر الغزاة ورأوا ان لا محيص لهم من اقتحام احدى هذه السبل الثلاث . فرأووا ان السبيل الاول قد يكون فيه نجاتهم وسلامتهم . ولكن هذه النجاة وتلك السلامة لم يكونا مضمونتين وان كان هناك شيء من السلامة . فانها سلامة لم تكن الا بدفع الثمن اغلى وانفس ما يمتلكه العربي ويفخر به . الا وهي كرامته — وهذا الثمن يهون على العربي الحر ان يدفع حياته قرباناً له . ولا

ولا يستهتر بكرامته في سبيل حياته الفانية . - او السبيل الثاني وهو ان يستسلموا للظمأ كي يفتك بهم فيموتون ميتة رخيصة ، كما تموت السوائب بدون أن تدفع ادني ثمن يذكر وهذا كيف يمكن ان ... يقبلوه ... وهم يسمعون حمود العبيد الرشيد يقول :

لَاخيَرَ في نَاسٍ هلاكي وذلاَّن   مَا يَجْدعَون أرْقَابَهْم بَالَمهافي
اما يجيَّ بِعقُودْ حص ومرجان   وان عاضبت يعلها للذلافي

يقول الشاعر في صدر البيت الاول . ان من يبلغ به الامر الى درجة من الهلاك الذي يهدد حياته . بالموت - ثم مع ذلك يكون جباناً ذليلاً فهذا لا يستحق ان يقال له انسان . لانه لا خير فيه . ومن لم يكن لا خير في حياته من بني الانسان فمعناه ان في حياة السائبة منفعة وفائدة اكثر منه . وفي عجز البيت داته يقول الشاعر - لماذا لا يغامرون بحياتهم - هؤلاء القوم الذين بلغ بهم الهلاك الى درجة الفناء والموت ...

وفي البيت الثاني يقول الشاعر ان المغامرة بحياة امثال هؤلاء اصبحت الزامية . بالنسبة لهم ، لانهم بهذه المغامرة - على رأي الشاعر - لا يخلون من امرين - فاما ان يربحوا المعركة فيحيوا حياة سعيدة ، وشريفة مرفوعي الرؤوس ، موفوري الكرامة - ثم يقول : - واما اذا فعلوا كل ما لديهم من الجد والاجتهاد ولم يساعدهم ، ذلك الجد ، فعند ذلك يتحتم عليهم ان يموتوا ميتة الكرام ولتكن بعد ذلك الف داهية وداهية ما دام ان النهاية هي الموت . وهذا المعنى الذي قاله الشاعر حمود العبيد الرشيد ، سبق ان اشار اليه ابو الطيب المتنبي بقوله :

اذا لم تجد ما يبتر الفقر جالساً
فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان ثروة أو منية
لعلك ان تحظى بواحدة عذرا

وهذه المعاني سواء التي وردت باللغة الشعبية على لسان الشعراء الشعبيين اوالتي وردت على لسان شعراء اللغة العربية الفصحي كالمتنبي وغيره وكل من هذه وتلك انما تعبر عن نفسية العربي الحر . في كل زمان ومكان .. ولذلك عندما يكون السبيل امامه محاطاً بالمخاطر والاهوال : ولم يكن نصب عينيه الا احد الامرين اما الاستسلام – وهذا يخالف شيمة العربي وتقاليده – واما الاقدام فاما ان يحيا شريفاً او كما ذكرنا يموت كريماً .

وهكذا – ... نجد هؤلاء الغزاة اختاروا لانفسهم السبيل الاخير فجاؤوا برحالهم ، وربطوا كل واحدة بذيل الاخرى وساقوها امامهم وهجموا بعد ذلك : والابل عادة اذا سمعت الرمي يزداد جريها . وكل ما ازدادت هذه الرجال جرياً يزداد هجوم الغزاة الذين يدفعونها الى الامام ويدفعون انفسهم حتى يقفزوا على المتحصنين بخنادقهم . – وازاحوهم عنها بحد السيف او كما يقال في المثل الشعبي(بخشم البنادق) – ...

فشربوا الماء الزلال بالقوة .. كما ذكرنا .. لا بالمنة ولا بالاستجداء ولكن بعد ما دفعوا ثمناً غالياً لامن رحالهم فحسب ... بل ومن خيرة شبابهم كما هو واضح من معاني الشعر الشعبي المتبادل بين شاعر الغزاة وبين شاعر المغزوين ... واليك قول شاعر الغزاة المدعو مشعان بن زبدان [1] ... :

انتم وحنا تحاربنا	يا زوبع والسنا عيسي
حنا ويلكم تراهنا	ان ما رجعتم مفاليسي
الطيب ما هو لكم عنا	يا كاسبين النواميسي
قلنا لكم جنبوا عنا	يا محرقين الحاميسي
لعيون من نشدن عنا	نصلهن للمتاريسي

(١) مشعان من نفس قبيلة **عنزة** – ومن عشيرة الصقور ، قتل رحمه الله في غزوة اخرى صبها على قبيلة شمر فجرح جرحاً خطيراً أودى بحياته ...

سبق ان اشرنا الى القصيده التي من هذا البحر المسمى (هجيني) لا يمكن ان تتجارز عشرة ابيات وهي ادعي للحفظ ، اكثر عند الرواة لا من حيث قلتهـا فحسب بل من حيث ان نوع القصائد التي على وزن هذه القصيدة كثيراً ما يتناقله هواة الشعر من الفتيان ، فيترنمون به في الاسفار والخلوات . الخ ...

والشاعر هنا عبر بكل فخر واعتزاز عن كسبهم للمعركة بدون ان يمس اعداءه بأدنى هجاء بل نجده هنـــا يمدحهم . ويثني عليهم كما هى شيمة شعراء القبيلتين .

يقول الشاعر في البيت الاول والثاني يخاطب اعدائه قائلاً نحن وانتم اصطدم بعضنا ببعض ووضعنـــا رهاناً بيننا ، أي منا سوف يخسر المعركة . ومن الذي سوف يربحها . وفي عجز البيت الثاني يقول الشـــاعر : وها انتم خسرتم المعركة ونكصتم على اعقابكم مفلسين .

ويقول في صدر البيت الثالث ، (ان الطيب) لم يكن وقفاً لكم من دوننـــا وكلمة الطيب باللغة الشعبية غالباً ما يقصد بها الشجاعة .
يقول : انتم واثقون من انفسكم انكم شجعان ، ولكن لا تنسوا اننا نحن بضاً ننافسكم على هذه الشجاعة . ونجد في عجز البيت زيادة بالتأكيد لما هو في صدر البيت قائلاً . : ليس المجد والشجاعة وقفاً لـــكم . وان كنتم معروفين باكتسابكم للثناء .

وفي البيت الرابع يقول الشاعر مخاطباً خصومه قائلاً : الم نقل لكم اجتنبوا الوقوف امامنا ياايها الكرام – وقوله في عجز هذا البيت (يا محرقين المحاميسي) اي يا ايها الكرام الذين يحرقون القهوة باستمرار لضيوفهم .

وفي البيت الخامس الختامي ـ ينهج الشاعر منهج الشعراء الشعبيين بهذا الصدد ـ وهو افتخارهم بأنفسهم أمام النساء ـ فيقول ابن زبدان كانت شجاعتنا

من أجل الفتيات الجميلات . اللواتي سوف يسألن عنا وعن بطولتنا ـ من أجلهن سقنا رحالنا وانفسنا حتى طردناكم عن الخنادق التي أنتم متحصنون فيها ..

ويرد عليه شاعر قبيلة شمر الذي لم يردني أسمه بقصيدة لم احفظ منها سوى بيتين فقط . فيقول :

لو كثرنا كثركم حنـــا لـــا وردتم المتاريسي
الجيش ثلثين ما ثنـــا والزلم نصفه مفانيسي

وهذا الشاعر على حد زعمه يقول :

انكم غلبتمونا بكثرة عددكم الذي يربو على عددنا . فيؤكد بأنه لو كان عددهم مكافئا لعدد الغزاة لما استطاع الغازون أن يصلوا اليهم بخنادقهم ..

وفي البيت الثاني يقول : ومع هذا استطعنا أن نثبت حتى اننا قتلنا ثلثي الرحال ونصف الغزاة .

وعلى كل فقد كانت الغلبة والنصر للغزاة وفي هذه الغزوة وقعت حـــادثة جديرة بالاشارة . ومضمونها كالآتي :

يقول الرواة ـ ان شخصا من الغزاة أغمي علية من الظمأ . وذلك في الحين الذي كان الغزاة قريبين من الماء ، وقبل ان يتبادل الطرفان اطلاق النار ،وكان هذا الشاب من بين الغزاه وكان الشاعر مشقان وسيما وذا حظ عظيم عند الجنس اللطيف . وبالاضافة الى ذلك كان شاعرا شعبيا مجيدا خاصة في شعر الغزل الرقيق ـ وسريع البديهة . فيما اذا حضر المهرجان الذي يسمى عند بادية الشمال بـ (الدحة) [1] ومنهم من يقول له « المصنع » ولابن زيدان في هذا الميدان صولات وجولات ، وقليـــل من ينافسه من الشباب الامر الذي جلب له حقد وحسد كثير من فتيان قبيلته ،

وعندما وقع أحد الغزاة مغميا عليه كما ذكرنا ، عند ذلك وقف شاب من منافسي ابن زيدان ودنا منه وقال :

(أرني شجاعتك يا ابن زيدان الآن هذا رفيقك بحالة احتضار من الظمأ ثم أردف قائلا : ليست القضية اليوم قضية (دحة) أي رقص . وغناء عند الفتيات .

وانما هي قضية شجاعة وبطولة ثم ختم حديثه مكررا العبارة نفسها قائلا :

(أرني بطولتك الآن .. لا بطولة المصنع .. أنقذ رفيقك من الموت بشربة من الماء .. وها هو الماء قريب رؤية العين .. أقرب مسافة من مسافة المصنع الذي كان بينك وبين منزلك . الذي كنت تسبقنا اليه . في أيام السلم وساعات اللهو .. الخ ..) ..

لم يستطيع ابن زبدان ان يحتمل هذه التحديات .. بل سرعان ما اختطف دلوا وذهب الى احدى الآبار التي احاط بها وطوقها فتيان قبيلة شمر من جميع الجهات .. فتوشح بحبال الدلو على ذراعه .. وراح يصفق و (يدح) أي يرقص بمشيته كما كان يفعل في تمايله ورقصه عندما يكون في قلب ذلك المكان الذي يمرح ويصفق فيه الفتيان وترقص فيه الفتيات .. وقد استمر بمشيته هذه أو هي رقصته حتى وصل الى البئر .. وأدلى دلوه .. ثم ملأه ماء .. وعاد مسرعا وسقى رفيقه المغمى عليه ..

وموضوع الاعجاب والعجب . هو أن قبيلة شمر عندما رأوا هذا الفتى

---

(١) هو اسم يطلق على لعبه يقوم بها فتيان البادية وفتياتهم . فترقص احدى الفتيات على نغمات الفتيان الذين يرددون بيتاً من الشعر يقوله شاعر هذا المسرح .. ثم يصفق الجميع بعدما ينشد البيت ويلحنه ..
وتأتي الفتاة فترقص على هذه النغمات وكان ابن زيدان بطلا بهذه اللعبة ومحطا لانظار الفتيات

مقبلا على البئر (بمشية هسترية) .. بدون أن يحمل سلاحا تركوه بدون ان يطلق أحدهم عليه رصاصة واحدة .. ويؤكد الرواة .. بأن قبيلة شمر عندما رأوا هذا الشاب مقبلا على البئر بدون سلاح تكهنوا بالامر الواقع .. واعتقدوا أن هذا الفتى الشجاع .. لا بد الا أن يكون قد تحدى رجولته واحد من قبيلته كما هو الامر الواقع .. فعفوا عنه ولم يطلقوا النار عليه .. شيمة منهم بصفته اعزل .. من السلاح .. وتقديرا منهم لبطولته ، ويزيدنا الرواة أيضا تأكيدا بأن فتيان قبيلة شمر عندما رأووا ابن زيدان لم يضع في فيه قطرة ماء.. بعدما غرفه من البئر :. عند ذلك ثبت لديهم الدليل القاطع أن هذا الفتى لم يغامر هذه المغامرة ليشرب هو بنفسه ، وانما فعل ذلك انقاذا لغيره .. ولهذا لم يمسسه أحد منهم بسوء ..

شجاعة وصبر فوق طاقة الانسان

- ٦ -

لم يكن ثمة بلد في شبه الجزيرة العربية اهلها على جانب كبير من الحيوية التي تتجاوز الحد المعتدل كأهل الجوف اي المساة سابقا بدومة الجندل .. كان اهل هذه البلادلا يدوم لهم استقرار قطعيا وذلك قبل ان يوحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، كانوا قبل تلك الفترة في حروب اهلية دامية وثورات داخلية مستمرة فهم من قبائل مختلفة .. فالقرشة ضد قبيلة المعاقلة والمعاقلة ضد القرشة وهكذا .. دواليك فلا هؤلاء يذعنون لهؤلاء ولا اولئك يذعنون للاخرين .. فلو توفرت القيادة الشعبية لزعيم ما من زعمائهم وما اكثر زعماءهم لو توفرت مثلا هذه القيادة فانهم لايذعنون لهذا الزعيم ولن يذعنوا .. والذي درس ادبهم الشعبي يدرك للوهلة الاولى ما لهؤلاء القوم من نفوس ابية لا تعرف الاستكانة ولا تبيت على الضيم .. ولعدم وجود القيادة الشعبية فيهم او على الاصح لعدم اذعانهم لقيادة بعضهم بعضا نجدهم دائما يساومون ابن رشيد الحاكم لمدينة حائل وضواحيها الكائنة شرقا قاعنهم وبين ابن شعلان امير قبيلة الرولة التي تقطن بادية الاراضي السورية الكائنة غربي الجوف .. وحتى هذه المساومة لا تستمر طويلا فهم اذا استدعى بعضهم مثلا ابن شعلان وجاء هذا بجيشه وكامل قوته وحكم البلاد ووطد الامن وحسم النزاع الى فترة من الوقت ثم ترك البلاد وذهب الى الصحراء بحكم انه بدوي لا يستطيع ان يبقى في البلاد ويترك ابله وماشيته وقبيلته بدون مرعى ولكنه يضع نائبا عنه من احد رجال قبيلته ،

وعندئذ يذهب البعض الاخر المضاد لزعيم القوم الذي استدعى ابن شعلان يذهب هذا الى ابن رشيد فيستدعيه فيأتي الثاني ملبيا لدعوة مضيفيه فيطرد نائب ابن شعلان او يقتله هـــذا الزعيم الداعي لابن رشيد ليثبت للامير الرشيدي صدق دعوته وولائه له كما فعل ذلك احد زعماء الجوف وهو المدعو رجا ابن مويشير الذي قتل نائب ابن شعلان المدعو (عامر المشورب) ثم بعـد ان قتله ذهب يستنجد بسعود بن رشيد وذلك عام ١٣٣٨ هـ حيث جاء هذا واستولى على الجوف بعد حرب ضروس دامت بين ابن رشيد الذي جاء منجدا لابن مويشير وبين ابن شعلان الذي جاء ليأخذ الثأر من قاتل نائبه ويعيد سيطرته على البلاد من جديد وكما ان ابن رشيد له الانصار الذين استنجدوا به من اهل البلاد كذلك ابن شعلان له انصاره السابقون .. وهكذا دامت الحرب بين الفريقين مـــدة طويلة وكل ما يقال عن اهل الجوف هو انهم اناس لا يستقر لهم قرار ولا يمكن ان يذعنوا لحكم اي واحد منهم ولولا ان قيض الله لشبه الجزيرة المرحوم الملك عبد العزيز ووفق لتوحيد البلاد ودخلت الجوف ضمن هذه الوحدة المباركة التي نرجو ان تكون نواة لوحدة عربية شاملة لولا ذلك لبقيت الجوف على ما كانت عليه من عدم الاستقرار ومن الحروب الاهلية الدائمة . ومن المساومة بالعهود فيعاهد بعضهم ابن شعلان مثلا فيأتي هذا حاكما احيانا ثم يعاهد الجانب الثاني من اهلها ابن رشيد فيقدم هذا حاكما طورا آخر وحتى ابن رشيد اذا حكم بلدة الجوف وان كان حضريا ويختلف عن ابن شعلان البدوي الذي يترك البلاد من اجل رعاية ابله .. حتى هذا يترك البلاد ايضاً .. ويضع نائباً له ويذهب الى عاصمة امارته حائل ومن هنا تبتدىء المسرحيـــة المتكررة اي يسهل على من يريد ان يستدعي ابن شعلان من اهل الجوف ان يستدعيه بكل سهولة .. وفي حوالي عام ١٣٣١هـ كان الجوف تحت نفوذ ابن رشيد وكان واضعا نائباً من قبله ومن اصهاره يدعى سبهان العلي وهو غير سبهان الاول وتحت امرة سبهان ما يزيد عن مائة مقاتل من خيرة فتيان رجال ابن رشيد وقد حكم ابن رشيد الجوف هذه المرة مدة طويلة من الزمن فتوطد الامن واستقرت الاوضاع

وهذا شيء لم يألفه اهل الجوف الذين يعبر لنا لسان حالهم عن المعنى الـذي اشار اليه بعض العرب الذين لايحبون ان يتقيدوا بأي قيد من السلطة حيث قال :

ولذيذ العيش ما كان فوضى   ليس فيه حاكم او امير

ولذلك ذهبوا يستدعون النورى ابن شعلان ليحكمهم .. فجاء هـذا ملبياً لدعوة مضيفية فعلم نائب ابن رشيد بما قام به اهل الجوف فلم يسعه الا ان جعل من مقر امارته حصناً له ولجنوده ولحسن حظه ان القصر فيه بئر ماء كافيه من المؤونة ما يكفي لهؤلاء الجنود مدة محدودة .. وما زاد على هذه المدة فسيكون حتماً على حساب ما يتحمله الجنود من صبر وجلد ..

كان آمر السرية على جانب كبير من المعرفة بأساليب الحروب وخاصة حروب الحصار ولذلك قام الرجل منذ اليوم الاول يقتر على جنوده مؤونتهم بالتقسيط وبدرجة محدودة لا تتجاوز لقيمات من (عصيد) البر الذي لا يعدو من كونـه طحيناً مسلوقاً بالماء الفائر لا يمازجـه اي شيء من السمن او الخضروات فضلاً عن اللحم ..

لقد مضى الاسبوع الاول وتلاه اسبوع ثان وثالث الخ .. والحرب قائمة على قـدم وساق والقلعة مطوقة من جميـع الجهات فلا نجـــدة ولا امل للمحاصرين بالنجدة .. فالامير ابن رشيـد في شغل شاغل عنهم والعـدو كل يوم يزداد قوة معنوية واهل البلاد كلهم رحبوا بمجيئه ويحاربون العـدو المحاصر بجانب جنود الشعلان جنباً لجنب .. وكان ظن النورى الشعلان ان آخر مدة يستطيـــع المحاصرون استمرار القتال اسبوع او اسبوعان الى ابعد حد يمكن ان تتحمـله طاقتهم ، وكان تقدير الشعلان لا يعدو عن ان يكون صوابـاً من حيث التقدير الواقعي الذي يمكن ان تتحمله طاقة الانسان في حالة كهذه ولكن التجارب اثبتت ان للانسان طاقة من القوة اذا شاء ان يستغلها في حالة امتحان مـــا لا يمكن ان تحصر بزمان معين او يحدد لها مدى معلوم ... وقد ادرك ابن شعلان انه خاطيء وذلك بعد ما مضى الاسبوعان وتلى الاسبوعين شهر وتلى الشهر

شهر ثان وثالث ورابع ..

رأى ابن شعلان انه كلما زاد الحرب وزادت مدة الحصار زاد هؤلاء الرجال صلابة وعناداً وقوة وبأساً فضاق بهم ذرعاً فهو لا يعلم لهم اي مصدر ياتيهم التمويل منه فجميع السبل مقطوعة عنهم وحتى لو اراد ابن رشيد ان يمولهم فانه لا يستطيع ذلك بحكم قوة ابن شعلان الضاربة حولهم بالاضافة الى اهل البلاد الذين تحيط بيوتهم المنتشرة حول القلعة المحاصرة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً..

كان المحاصرون (بفتح الصاد) يأملون في اول الامر ان تأتيهم نجدة من اميرهم ابن رشيد ولكنهم في آخر الامر يئسوا من مجيء اية نجده وذلك بعد ما تسلل عليهم مندوب يقال له سعد الصلعا من قبيلة شمر الذي استطاع ان يغامر بنفسه وتسلل خلسة في آخر الليل هو وراحلته في القلعة المحاصرة، فكان الصلعا يحمل لسبهان قائد السرية رسالة من اميره تفيد ان الظروف غير مواتية لنجدته. وان عليه ان يستسلم بأية طريقة يختارها لنفسه من طرق الاستسلام .

كان قائد السرية قبل هذه الرسالة مصراً على عدم مهادنة العدو ، ولكنه بعد الرسالة وجد نفسه مضطراً للتسليم ، لا للاستسلام و - اي انه على استعداد ان يسلم للعدو ، بقيود وشروط ، تصون كرامته هو ورفاقه الابطال - لا ان يستسلم بلا قيد ولا شرط فيضع نفسه موضع الخنوع والذلة ، تحت رحمة العدو ، ولكن ابن شعلان كان في بداية الامر على استعداد لأن يقبل التسليم المشروط ، وذلك قبل ان يأتيه الأخوان الشقيقان اللذان فرا من القلعة المحاصرة ،وهما حمود السيف ، وعبد المحسن السيف . وذهبا لابن شعلان واخبراه بأن قائد القلعة ورجاله ليس لديهم من المؤنة ما يقوم بأودهم وأكثر من ذلك أكد الاخوان لابن شعلان ان القائد في اول الامر كان يفرق بيده على المقاتلين كل يوم حبيبات من التمر لا تبلغ عدد اصابع الكف وكان المقاتل يضع حبة التمر في فيه فيظل يمتصها دون ان يمضغها ثم يحتفظ بنواتها فيحرقها ثم يلتهمها بنهم كالمسعور وبعد

ما كمل التمرظل القائد يفرق على المتقاتلين حبيبات من الحمص وزاد الاخوان ابن شعلان تأكيداً ان الذي ساعد المحاصرين على المقاومة هـو الرسـول الذي جاءهم من قبل ابن رشيد فهذا الجمل لم يتقاسموا لحمه فحسب بل حتى دمه وجلده وعظامه ايضاً حيث كان قائدهم يوزع عليهم لحم الجمل بالتقتير .. اما دمه وجلده وعظامه فقد سمح قائد المتقاتلين ان يأخذ كل فرد منهم نصيبه فتناهب المقاتلون الدم والجلد والعظام وكل جاءه نصيب من ذلك ومن افلس من الغنيمـة راح يستنجد باخيه الذي اتيحت له الفرصة بأن ينهب غرفة من دم الجمل وقطعة من جلده او كسرة من عظامه .

لقد كان ابن شعلان كما اسلفنا قابلاً او على وشك ان يقبل الصلح مع المحاصرين على اساس الشروط التي طلبها قائدهم وهي كما يلي : ان لا يمس احد منهم بأذى او اهانة وان يهيء لهم المنتصر رواحل ومؤونة حتى يصلوا الى اهلهم وان يكتفي اي المنتصر باستسلام القلعة والسلاح والعتاد كل هذه الشروط لم يمانـع ابن شعلان في قبولها فيما لو طلبها قائد القلعة قبل ان يأتيه آل سيف ولكن بعد ما تأكد من آل سيف عن وضع المقاتلين الاقتصادي... بعد ذلك رفض الشعلان رفضاً باتاً اي شيء من هذه الشروط معتقداً ان القائد وجنوده بعد ما وصل بهم الامر الى هذا الحد من المجاعة فانه سوف يستسلمون بدون قيد ولا شرط او على الاقل سوف يهرب الجنود من القلعة واحداً تلو الآخر حتى تنهار المقاومة وعندئذ يهجم بجنوده على القلعة فيفتحها بدون ان يجد من يقاومه .. هكذا كانت تقديرات ابن شعلان ولكن تقديراته هذه سرعان ما تبين له انها تقديرات خاطئة وذلك عندما رأى القائد يقابل طلبه بالتسليم بدون قيد ولا شرط بالرفض بكل عناد واصرار وتحـد وزاد ابن شعلان حيرة في الامر وارتباكاً عندمـا سمع الجنود المحاصرين ينشدون القصائد الحماسية [1] التي قالها شاعرهم المدعو قمعان العنبر وفي كل بيت من قصائد قمعان ما يعبر عن تحدي المقاتلين تحدياً صارخاً وجارحـاً

١ — ـف آتي بالقصيدتين في خر القصة وقمعان من ساكني حائل .

لكبرياء الشيخ (ابو نواف) اي النوري بن شعلان وعلى اية حال فقد صبر على تحديهم هذا ظاناً انها كما يقال رقصة الموت فظل يضاعف هجومه بصورة دائمة مستمرة اما الحصار فانه مشدود ولا يحتاج الى مزيد من المضاعفة وانما كرس جهوده بالهجوم على هذه القلعة التي ظن ان الذي نقله اليه الاخوان سوف يؤثر على معنوياتهم فيفرون من القلعة هاربين لائذين بجواره طالبين رحمته واحسانه عليهم الحياة، ولكن الذي حصل هو ان الهجوم من جنود (ابونواف) واهل الجوف معاً كان يقابل بصمود وجلد وقوة بأس فيرجع الهاجمون على اعقابهم بعد ما يكبدون خسائر فادحة من الجرحى والقتلى ..

ومن هنا ظن ابو نواف ظناً سيئا في هذين الاخوين مما جعله يتوهم ان فرارهما كله كان مصطنعاً من اساسه وان حديثهما عن الجماعة التي يذكرانها لا اساس لها من الصحة وان الغاية من فرارهما المصطنع انما هو حيلة دبرها قائد السرية الماكر لكي يجعله يطمع باستمرار الحصار لبينما يأتي ابن رشيد من حائل فيحاصره بالجوف ومن ثم يقع بين الكماشة بين رجال السرية الذين سوف يهاجمونه من الامام مجرد ما يسمعون لعلعلة بنادق اميرهم بن رشيد ...

لقد ذهبت الظنون بابن شعلان الى ابعد من ذلك فظن بأهل الجوف ايضاً سوءا فخيل اليه انهم طلبوا ابن رشيد وانه مجرد ما يأتي الرشيدي لنجدة سريته فان اهل الجوف سوف يستقبلونه مجددين له العهد السابق وفي الوقت نفسه يحاربون ابن شعلان حرباً لا هوادة فيها ليثبتوا صدق ولائهم لابن رشيد ..

لقد لعبت هذه الخيالات دورها الخطير في رأس (ابو نواف) فرأى ان يأتي بالاخوين الفارين ويأخذ افادتهم من جديد وان يستعمل معهم ما يمكن استعماله من وسائل التعزير فيما اذا دعا الامر الى ذلك فبعث رسولا يحضر الاخوين فجيء بهما فهددهما ابو نواف بأشد العقوبات فيما اذا لم يخبرا بالحقيقة المبهمة الكامنة من وراء فرارهما، ولكن الاخوين لم يكن لديهما اكثر من افادتهما

الاولى فزاد ابو نواف شكا عندما رآهما مصرين على افادتهما السابقة فتوعدهما بالقتل فيما اذا لم يقولا الحقيقة فقال احداهما ماذا الذي تظنه بنا ؟ وما هو الذي تريده منا ان نقوله :

قال ابو نواف : لستما بهاربين وانما بعثكما سبهان لما هو كيت وكيت وكل ما تقولانه عن المجاعة التي يعانيها المقاتلون فإنها لا حقيقة لها اذ لو ان المجاعة بلغت بهؤلاء القوم الحد الذي تقولانه لما استطاعوا ان يقاتلوننا بضراوة وقـوة بأس على النهج الذي يقاتلون به الآن .. فكيف اصدق انكم تركتم القوم على الوضع الذي اكدتم لنا به من المجاعة ومن ثم اجد ان المقاتلين يزدادون كل يوم قوة بقتـالهم اكثر من اليوم الذي قبله .. فاجابه الاخوان بما هو آت .

ـ الان ثبت لدينا اننا متهمان عندكم ..

ـ ابو نواف : اجل

ـ هناك حكم فاصل في الموضوع يكشف لك حقيقة الامر .

ـ ما هو هذا الحكم ؟

ـ اليس العربي اذا وفد عليه وافد من مكان ما قالـه لا يدخر شيئا من اكرامه وتقديم كل ما يمكن له من ضيافة وحفاوة .. ؟

ـ هذا لاشك فيه ..

ـ اذن فينبغي لك ان تنتدب رجلا من ذوي المكانة المحترمـة المعروف بمنزلته عندكم وعند سبهان ليطلب من سبهان مقابلته بحجة التفاوض على عقد الصلح بين الجانبين فاذا وجد هذا المندوب عند قائد القلعة ما يقدمه له كقرى فمعناه اننا

كاذبان بكل ما قلنا وان عاد الينا ولم ير الا وجوه الرجـال المصفرة الشاحبة بدون ان يقدم له شيء فمعناه اننا صادقان بما قلناه لكم .

ابو نواف : ان ما تقولانه رأي لا يخلو من الاخذ به بحذر ..

ذهب ابو نواف وهو عازم على الاخذ برأي الاخوين بعدما وضعهما تحت المراقبة فراح من فوره يبعث رجلا من عنده لقائد المقاتلين بالقلعة ليخبره بأنه ينوي انتداب ابن عمه طراد الصطام من بني الشعلان ليتفاوض مع القائد في شروط الصلح .. فقبل قائد القلعة ذلك الطلب من حيث المبدأ الا انه طلب ان تكون المقابلة في اليوم الثالث من الطلب فكان عدم اهتمام قـائد السرية لقبول طلب الصلح بصورة مستعجلة ولا ينسجم وحالة المجاعة التي ذكرها الشقيقان مما جعل ابو نواف تزداد شكوكه الاولى في مجيء الاخوين ومما جعله يضاعف الرقابة عليهما .. اما قائد السرية سبهان فقد كان كما ذكرنا رجـلا محنكا ومن افذاذ الرجال الذين عركهم الدهر فاصبـح قادرا على ان يعد لكل شيء عدته الامر الذي جعله يفكر من الاساس بادخار قوت احتياطي من الطحين ومن التمر ومن السمن ومن اللحم المجفف ، لساعة امتحان فجائية قد يمتحنه بها عدوه كهذه الساعة وكان هذا القائد قد وضع هذه الاشياء في مخبأ تحت الارض وقد استعمل الوسائل التي من شأنها ان تحفظ هذه المأكولات بصورة لا يلحق بها ضرر مهما طال بها المدى .. وفي اليوم الذي قرر به قبول مجيء الوفد اخرج هذه المؤن المدخرة ليوم كهذا ووكل من يطبخ الطحين على الطريقة الشعبية التي تسمى (قرصا) وفوق هذا القرص اللحم المجفف وفوق الجميـع السمن السائح وعلى جوانب هذه المائدة التمر الجوفي اللذيذ الذي يقطر دبسا وفي الوقت ذاته امر رجاله المقاتلين ان يلبس كل منهم احسن مالديه من لباس وان يهيء نفسه للعرضة الحماسية اي رقصة الحرب التي ينشد فيها القصائد الحماسية المهيجة .. ولما كان رجاله كلهم قد اثر الجوع على وجوههم حتى اصبـح وجه احدهم شاحبا مصفرا فقد اعطى كل فرد منهم قطرة من السمن ليدلك بها وجهه فاصبـح ذلك

الوجه الاغبر الشاحب يتلألأ من اثر السمن المدهون به الذي يتمنى احدهم ان يدهن به معدته اليابسة بدلا من وجهه .

ولم تأت الساعة المحددة التي سوف يأتي بها وفد (ابو نواف) الا وكل شيء على اكمل وجه وعلى اكمل ما يمكن ان يكون وكانت التعاليم التي يحملها الوفد الشعلاني تشير الى أنه اذا كان قائد السرية لم يقدم له قرى فعليه ان يرفض قبول اي شرط فيه ادنى قيد .. اما اذا قدم القائد ضيافة دسمة ونظر الى وجه الرجال المقاتلين ووجد ان معنوياتهم لم تتأثر رغم طول الحرب والحصار اذا كان الامر كذلك فان التعاليم لدى الوفد تقضي بأن يقبل الشروط السالفة الذكر اي التي يتعهد بها ابن شعلان بحفظ دماء المقاتلين جميعا وصيانة كرامتهم وترحيلهم الى بلادهم محترمين مكرمين ..

هذا وقد ذهب الشيخ طراد الصطام رئيس الوفد الشعلاني الى مقابلة قائد القلعة فأول ما لفت نظره واثار اعجابه منظر اولئك الفتيان ذوي الوجوه الوضاءة والثياب الناصعة البياض فكأنهم لم يحاصروا يوما واحدا كما انه رأى هؤلاء الفتية يرقصون الرقصة الحربية وينشدون الابيات الشعبية التي كل بيت منها يحمل طابع التحدي والاستفزاز فازداد اعجابا وذعرا في آن واحد ..ومما ضاعف اعجابه وعجبه ما رآه من المائدة التي قدمت له فازداد دهشة وقد كانت تعاليم قائد السرية لجنوده تقضي بأنه لا يمد يده اي واحد منهم على المائدة حتى يخرج الوفد ..

وهذا مما جعل رئيس الوفد بحيرة من أمره عندما ترك المائدة وعاد يشرب اكواب القهوة بينما المقاتلون مستمرون في رقصتهم الحماسية او كما يقال (عرضتهم) بدون ان يحدث ادنى تبديل في اناشيدهم او عرضتهم التقليدية .. مما اضطر رئيس الوفد ان لا يبارح القلعة حتى عقد المعاهدة القاضية بتنفيذ جميع الشروط التي طلبها قائد السرية ولم يخرج الوفد الا وقائد السرية ونخبة من

رجال القائد سائرين بصحبة الوفد ليسلموا على ابي نواف وعندما دنا رئيس الوفد من مجلس ابي نواف ذهب اليه بينما .ادخل القائد وثلة من رجاله في دار الضيافة وقد اخبر رئيس الوفد ابا نواف بما رآه من قوة معنوية المقاتلين والمائدة التي قدمت له الخ .. فزاد اعتقادا الشيخ ابن شعلان انـــه كان على صواب في حدسه السابق اي ان الاخوين لم يكونا هاربين وانما هروبهما مصطنعاً وعلى هذا الاساس يكون (ابو نواف) ادرك بفكره الثاقب مدى الخطة البعيدة التي كانت مدبرة له ومعناه ايضا ان الحرب لم تنته بعد .. وان ابن رشيد سوف يأتي لا محالة .. وقد ظلت هذه الخيالات تدور في ذهنه وما عليه الان الا ان يذهب بنفسه للقلعة لينظر مقدار كمية المؤونة التي فيها والتي يمكن ان يعتمد عليها قائد القلعة فيما لو طالت الحرب لكي يقدر بدوره المدة التى يمكن ان يأتي ابن رشيد في حدودها فذهب ابو نواف بنفسه الى القلعة لينظر الى مقدار المؤن المدخرة في القلعة هذا من ناحية وليستلم القلعة ويضع فيها عددا من جنوده البواسل .. فراح هناك فوجد القلعة افرغ من فؤاد ام موسي فنقب هنا وهناك لعله يجد في الدور المقفلة او في المخابيء فلم يجد لا هنا ولا هناك ما يفطر به الصائم لا من الطعام ولا حتى من حشرات الارض لان حتى هذه اذا وجدها المقاتلون عتبروها رزقا ساقه الله اليهم من السماء ولم يقنع ابو نواف حتى عثر على المخبأ الذي كان قائد السرية قد طمر فيه آخر ما عنده من بقية المؤن التي قدمها لرئيس وفده عندئذ ادرك ان ما رواه له الاخوان هو الحقيقة بعينها وان قائد السّرية لم يكن ورجاله شجعانا وعلى جانب كبير من الجلد والصبر والثبـــات فحسب بل وعلى قسط وافر من الحنكة في فنون الحرب وعلى خبرة واسعـــة النطاق في معرفة اساليب مكر الحروب ومخادعة العدو ..

وبعد ذلك ذهب يستدعي رئيس القلعة من اجل السلام والاكرام .. هذا وقد دار بين الشيخ النوري بن شعلان وبين قائد السرية سبهان العلي السبهان حوار كان البادىء به ابن شعلان الذي عاتب قائد السرية اي سبهان عتابا عنيفا

قائلا له : لماذا تكابر خلال هذه المدة الطويلة وانت ورجالك على وشك ان تموتوا جوعا ؟

فرد عليه القائد :

لا يخفي ابا نواف ان الخداع والمكر وحتى الكذب كل هذه الخصال وان كانت غير مقبولة في الخلق العربي ولكنها في منطق الحروب مقبولة ومشروعة ومستحسنة حتى ...

فبلغ الحقد بابي نواف الى انه هدد قائد السرية بالقتل .

فأجابه هذا قائلا: (نحن لم نستسلم لك عن ضعف في عزائمنا وكنا عازمين على ان نقاتل ونقاتل ولن تحتل القلعة الا على جثثنا ولكنك انت الذي بعثت ابن عمك مندوباً عنك ليفاوضنا ويعاهدنا فوضعنا عهدالله بيننا وبينك وعلى هذا جئنا مسلمين لا مستسلمين .. فان نكثت عهد الله وقتلتنا فسوف نلاقي ربنا شهداء مغدوراً بنا وهذه هي اطيب ميتة يموتهاالانسان وسوف يبقى ذكرنا خالداًمدى الدهرونحن اذا لم نمت اليوم سوف نموت غداً [1] وكلانا سوف يلاقي ربه نحن وانت سواء طال بنا الزمان او قصر ولكن شتان بين من يلاقي ربه شهيداً مظلوماً وبين من يلاقي الله ناكثاً بعهده قاتلا نفوساً بريئة ظلماً وعدواناً .

يؤكد الرواة ان الذي تأثر كثيراً من هذا الحوار هو الشيخ نواف الابن الاكبر للشيخ النوري فهذاهو الذي حسم النزاع وأمر رجاله بأن ينحروا للقائد ورجاله عدداً من النوق ويذبحوا عدداً اكثر من الغنم وقد اعتنى بهم كضيوف اعزاء واكرمهم غاية الاكرام .

وقد روى لنا المرحوم سويلم الشعلان [2] قصة طريفة في هذا الموضوع :

١ : مات هذا الرجل غدراً بيد ابناء عمه مع الاسف بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة .
٢ : من سكان حائل توفي رحمه الله عام ١٣٨٢ هـ ١٩٦٣ م

يقول الراوي« انه عندما اعتنى بهم الشيخ نواف اي انه عوضاً ما يضع رجالاً من حاشيته، خدامه الكثيرين ليتولوا خدمتنا عوضاً من ان يفعل ذلك ، ذهب وجاء بالاخوين الهاربين ليقوما بهذه العملية كتحقير لهما ويزيد الراوي الذي هو من اصدق الرواة واوثقهم وشاهد عيان يزيد تأكيداً بانهم اي المقاتلين بالامس والضيوف اليوم بعد ما انتهوا من طعامهم الدسم وراحوا يريدون ان يغسلوا ايديهم عند ذلك وجدوا المكلف بعملية سكب الماء على يدي الضيوف لاخدم الشيخ ابن شعلان ولا مماليكه وانما هما الاخوان آل سيف وعندئذ يزيدنا الراوي تأكيداً بان احد الرجال المقاتلين[1] وهو المدعو عبد الله القنب الذي قال لاحد الاخوين عندما كان يسكب الماء على يدي الضيوف : (اسكب الماء على اكف الرجال الابطال الذين يستحقون ان يسكب على اكفهم المسك والورد بقدر ما تستحق ان تكون خادما لهم بعد ما كنت شجاعا تقف منهم موقف الندللند.. فاغرورقت عينا هذا بالدمع [2] ..

هذا وقد وفى نواف بن شعلان بعهده حيث اعد لهم رواحل وزودهم بالمؤونة حتى وصلوا بلادهم حائل التي تبعد خمسة ايام للرواحل النجيبات وقد توفي بعضهم في الطريق من رواسب الجوع الذي كان على وشك ان يفتك بهم . وقد اكد لنا كثير من ابطال الحادثة وعلى رأسهم سويلم الشعلان سالف الذكر بأن الجوع بلغ بهم درجة الى الحد الذي اصبح الفرد منهم يقضي اليوم واليومين بدون ان يذهب الى بيت الخلاء ..

هذا ولا بد من الاشارة الى ان الذي اعتنى بهؤلاء الضيوف وكرمهم هو نواف بن الشيخ النوري اما النوري فانه كان حاقداً ولو لم يكن العهد مقيداً لكان له مع قائد السرية ورجاله موقف آخر وكل ما استطاع ان يتشفي به ابو نواف هو ان قتل الشاعر المهيج للمقاتلين المدعو «قمعان»

---

١ : عبد الله القنب توفي رحمه الله حوالي عام ١٣٥٠ هـ الموافق ١٩٣٠ في اليمن وكان يقوم بعمل لحكومته العربية السعودية وهو من الابطال الافذاذ .

٢ . ذكرت بالسياق ان تلك العملية كانت هي بداية الجبن ونهايته بالنسبة للاخوين .

واليك بعض ما ورد الينا من قصائد الشاعر المهيج الذي كانت رقبته ثمنـــا لقصائده الحماسية المهيجة التي ظن ابو نواف انه لولا قصائد هذا الشاعر لما استمر هؤلاء المقاتلون كل هذه المدة وقد غاب عن ذهن ابي نواف انـه لو لم يكن لدى المقاتلين رصيد لا ينضب معينة من البطولة والجلد والصبر وعدم الركون الى الاستسلام اجل لو لم يكن في صميم كيان كل فرد منهم ثروة راسخة الجذور من هذه المعاني لما اثر عليهم هذا الشاعر بشعره مهما كان بليغاً ومثيرا .

لقد فات ابا نواف ان الشعر الذي قالة هذا الشاعر لم يكن الا مقوما لغيره لا مرجحاً له ، وجهل ابي نواف لهذه الحقيقة او بالاحرى تجاهله لها جعله يقدم على قتل ذلك الشاعر الذي نوافي القارىء بما ورد الينا من قصيدته ، وقد يكون له من القصائد ما هو اكثر من ذلك وانما الذي اتيح لنا العثور عليه هما هاتان القصيدتان

وهذه احداهما :

وانكانَ تَبغي يا ابن شِعلاَن منّا	نسلّم لكم تسليم بليا قِتَالِ
فتراك غَلطَانِ أو تجهل خبرنا	لا تحسبَنا عن جموعك نبالي
إنشدِ عن حَاضِرنا أوماضي أهلنا	إنشِد هَلَ الْعليا اقروم العَيالِ
حنا كِعام الضّد وان سألت عنا	او حنا هل القلات الى الشيل مال
وانكانك يا ابو نواف اتجرب ظفرنا	ترنا معروفين قديم وتـــال
حنا الى منا ابتلينا صبرنا	نصبر على الشدات صبر الجمال
الحرب لو يأخذ اسنين شبتنا	نَثبت على البلوى وغير الليالي
حنا صناديد الجبل الى امتحنا	ولا العاش حكي ما يعقبه فعال
او لمن صكات الليالي بلتنا	نثبت ثبوت الراسيات العوالي

انشد اهل الشيمات يخبروك عنا   أهل الجنوب واللي براس الشمالي

هذه هي القصيدة الاولى وهاك شرحها :

١ – يقول الشاعر في البيت الاول والبيت الثاني : اذا كنت تريـد منا نحن المقاتلين ان نستسلم لك استسلاماً لا قيد فيه ولا شرط فأنت رجل جاهل بحقيقة امرنا .. فنحن لا نبالي بكثرة جنودك مهما بلغوا من الكثرة .

وفي البيت الثالث يقول : اذا كنت تجهل واقعنا الحالي وماضي اسلافنا فما عليك الا ان تسأل شجعان رجالك عنا وقوله (اسأل هل العليا) اي قبيلة ابن شعلان لانهم يكنون باهل العليا .

وفي البيت الرابع يقول : اذا شئت ان تسأل عنا فنحن القـوم الذين نلقم عدونا حجراً ونقابل المعضلات مهما استعصت بثبات وجـــد وهذه شيمتنا في سالف الازمنة القديمة والحاضرة .

وفي البيت الخامس والسادس يقـول الشاعر : اذا كنت يا ابا نواف يقصد النوري تريد ان تجرب شجاعتنا فنحن لا نحتاج الى تجربـــة لاننا معروفون في الازمنة القديمة والحالية فنحن اذا ابتلينا نصبر على البلوى ونتحمل الشدائد بصبر كصبر الجمال ..

وفي البيت السابع يقول الشاعر اننا سوف نستمر في قتالنـا وسوف نثبت حتى لو اخذت الحرب بيننا وبينك سنين عديـدة فاننا سوف نتحمل ذلك ولا نستسلم .

ويقول في البيت الثامن : نحن رجال جبلي طي (يقصـــد اجاء وسلمى) المعروفين بثباتنا اذا وصل الامر الى درجة التحدي لرجولتنا والامتحان لشجاعتنا

ومن لم يكن قوله مطابقاً لافعاله فهذا لا يستحق ان يعيش ويحيى بين بني البشر .

ويقول في البيت التاسع ـ اذا شاءت الليالي السوداء ان تبتلينا فاننا سوف نثبت امام هذا الابتلاء ثبوت الجبال الراسيات ..

وفي البيت الاخـير يقول الشاعر : يجب عليك ان تسأل عنا الرجال ذوي المروءة والشيمة سواء أكانوا من اعدائنا في شمال الجزيرة العربية او من كان في جنوبها ..

والمعنى الذي قاله الشاعر في البيت الثالث **مطابق** للمعنى الذي قاله في هذا البيت الاخير ففي البيت الثالث يقـول اسأل عنا قروم قومك اي اسأل عنا الشجعان الافاضل من نفس قبيلتك وفي البيت الاخير يقول : اسأل اصحاب الشيم من عرب الشمال وعرب الجنوب .

المقصود في البيت الثالث والاخير هـو ان الكرام هم الذين يمكن ان ترضى شهادتهم بصرف النظر عن ان يكونوا اصدقاء او اعداء .

* * *

واليك قصيدة الشاعر الثانية :

أرسلو لابن قِعيِّدِ نَصايحْ ... كأنه يفهم ني نَنْصحهْ
قبل ناتي كالمزون الروايحْ ... مانبأ من وادي نَمسحهْ
قبل هدم قصوركم والفلايح ... كم عذرا جيبها تشرحهْ
الرويلي الى اقبل القيظ رايح ... قال مالي عندكم مصلحهْ

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول والثاني : يجب ان تنصحوا ابن قعيد يقصد بابن قعيد زعيم من زعماء اهل الجوف الموالـــين لابن شعلان فيقول : اذا كان هذا الرجل لديه من الفهم ما يجعله يفهم الخطأ من الصواب فما عليه الا ان يبتعد عن ابن شعلان قبـــل ان يأتي اميرنا ابن رشيد بجيشه العرمرم الذي يسد الفضاء ويملأ الأودية .

ويقول في البيت الثالث : من الاجمل لكم يا اهل الجوف الذين حذوتم حذو ابن قعيد ان تصلحوا امركم قبل ان يأتيكم قومنا يهدمون بيوتكم ويرملوا نساءكم وعندها سوف لا تسمعون الا نعي نساءكم لقتلاكم ..

وفي البيت الاخير يقول : ان ابن شعلان وقبيلته اذا جاء فصل الصيف فانه سوف يذهب عنكم ويترككم لانه سوف لايجد في بقائه فائدة محسوسة لقومه ..

ويقول الرواة ان النوري بن شعلان عندما قتل الشاعر انه كان يدق رأسه بالعصا بعد موته ويتمثل بالبيت الاخير .

لا يفل الحديد الا الحديد

- ٧ -

يستميت العربي دون كرامته بقتاله كاستماتته دون حياته عينا بعين ..

والحقيقة التي لا جدل فيها هي ان العربي الابي الشهم لا يفرق بين الكرامة والحياة ، فالحياة بلا كرامة تعتبر موتا ادبيا ومعنويا ، والموت الذي بهذه الصفة هو الموت الابدي ، لان الموت المادي بالنسبة للرجال ذوي الفضل والمروءة والعلم والادب لا يعتبر موتا كما اشار الى ذلك الشاعر العربي خليل مطران برثائه لاحد الكرام عندما قال :

لا ترثه فاليوم بدء حيـــاته ان الاديب حيـــاته بمماته

واذا كان هناك نوع من البشر يرى ان الحياة مجرد النعيم برغيد العيش الهنيء والخلود الى الراحة في ظل المشرب المرئي والمركب الوطيء والمناخ العذب ..

فاذا كان هناك من قاصري الهمة من يرى ان منتهى امنيته الوصول الى هذه المتع الفانية ومتى ما بلغ ذلك ركن الى الخمول والاستكانة ، فان هناك رجالا يرون ان هذا النوع من الرجال لا يصح ان يعد من جملة بني الانسان ، بل انما هو الى خلق الحيوان اقرب منه الى الانسان .. فاذا كانت الحياة مجرد متعة وغذاء ونوم فان الكلاب والحمير وحتى الخنازير تنعم وترغد وتتمتع بهذه الاشياء المادية .. وهذا هو الفرق بين الانسان الحر الابي الذي لا يستسلم للضيم ولا يبيت

على الاذى ولا يرى للكرامة والحرية بديلاً ، وبين الانسان الثاني الذي على النمط سالف الذكر ..

وفي قصة هؤلاء الاعراب الذين كان بامكانهم ان يستسلموا للقوة التي تفوقهم عددا وعـــدة بدون ان يكبدوا انفسهم المشاق والعناء ولكنهم ابو وقاتلوا قتال المستميت الذي قرر مصيره باحد الامرين ، اما بالموت بدون الاستسلام واما الحياة المصحوبة بالعزة والكرامة ، وفي قصة هؤلاء الفتية ما يعطينا دليلا على ما اشرنا اليه .. واليك القصة باختصار .

كان نفر من قبيلة السبعة بادية سورية من عشيرة القمصه سائرين في طريقهم وصدفة اصطدموا بجيش الشيخ النوري بن شعلان العرمرم وكان النوري وقتها في عنفوان قوته وهو يمثل قوة اكبر رئيس عشيرة في عهده وبين قبيلة ابن شعلان المسماة بالرولة وبين عشيرة القمصة الذين يرأسهم حاليا الشيخ را كان بن مرشد عداوة تقليدية وقد كان عدد النفر الذين من قبيلة القمصة محدوداً لا يزيد عن عشرة انفار بينما قوة ابن شعلان من فرسان ومشاة واصحاب ركائب يعدون بالالوف . وقد وجد ابن شعلان هؤلاء النفر القلة لقمة سائغة بامكانه ان يستولي عليهم ويأخذ رواحلهم واسلحتهم . وان شاء قتلهم كاعداء وان شاء احسن اليهم بحياتهم .. هكذا كان المفروض ان يفعله ابن شعلان بحكم قوته وكثرة عدد فرسانه ووفرة رجاله وقلة عدد عدوه .. ولكن هؤلاء القلةاعطوا دليلا واضحا على انهم وان كان عددهم قليلا ولكنهم كثيرون بايمـــانهم وقويون بارادانهم وعزائمهم قوة تفوق عددهم او تزيد عما يتصوره العدو عنهم.. رأى هؤلاء الفتية بأن يكون قتالهم قتال المدافع لا المهاجم كما كان يتصوره العدو عنهم .. رأى هؤلاء الفتيه بأن يكون قتالهم قتال المدافع لا المهاجم بينما كان قوم ابن شعلان يقاتلون قتال المهاجم الطامع بالغنيمة وطبعا سيكون البون شاسعا بين من يقاتل من اجل الغنيمة والكسب وبين من يقاتل من اجل الحياة والكرامة لقد حمي الوطيس بين المهاجم وبين المكافح . وكلما دنا الفرسان المهاجمون ازداد ثبات

المكافحين فتصدوا للهاجين وردوهم على اعقابهم .. وقد استمرت المعركة من اول النهار حتى سواد الليل الذي كان حاجزا بين المهاجين والمكافحين .. ومن هنا يأتي الشاعر الشعبي فيقول :

إن جِيْتْ عندالعرب ياهطيل　　إمدح هَــلَ الْعشر ياشين
نَطْ الرِّقيْبَةَ وشَافْ الَخيلْ　　واسلاَفِ بَينِ إلرحيلَــينِ
ذبحت ذَلولي على مَاقِيْلِ　　وانا ذَبحتْ الأصيلَــينِ
لِعيونِ رِغدْوِ يدق الهَيلْ　　نَنَطَحْ جُمُوع الشَعالِيني

القصيدة ربما كانت اكثر من ذلك ولكنها لا يمكن ان تزيد عن عشرة ابيات بحكم انها على وزن البحر الذي يسمى (هجيني) .. باللغة الشعبية ومثل هذا لا يتعدى اكثر من العدد المحدود المشار اليه اعلاه وهاك الشرح ..

يقول الشاعر في البيت الاول مخاطبا احد رفاقه العشرة المسمى هطيلا فيقول: اذا اتيحت لك الفرصة في اندية العرب فما عليك الا ان تثني على مواقفنا نحن الذين لم يتجاوز عددنا عشرة انفار ..

وفي البيت الثاني يقول : قد فوجئنا عندما جاءنا (الرقيبة) اي السبر وهو مأخوذ من (الرقابة) أي الذي يصعد جبلا عاليا ليسبر غور العدو فهذا هو الذي اخبرهم بكثرة خيل العدو وقوة عدته وكثرة رجاله ..

وفي البيت الثالث يؤكد ان راحلته اصابتها رصاصة اودت بحياتها ثم يؤكد انه قتل فرسين من الخيل الاصايل والرواة يزعمون ان هاتين الفرسين هما فرسا الشيخ النوري بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وفارسها أي ان الشيخ النوري هجم على هؤلاء العشرة يتقدم فرسان قبيلته ، فقتلت الفرس الاولى والثانية

والذي قتل الفرسين هو شاعر العشرة الذي لم يردني اسمه لان الحادثة لها اكثر من خمسين سنة على اقل تقدير ..

وفي البيت الرابع يقول الشاعر : لقد صددنا هجوم فرسان الشعلان ووقفنا امامهم موقف البطولة وذلــك لــكي نكون بعولة مقبولين عند الفتيات الجميلات ..

وهذا المعنى بالذات كثيرا ما نجد الشعراء الشعبيين يشيرون اليه خاصة عندما يفخر فارسهم بعمل بطولي .. وهذا ايضا مما يدلنا على ان الفتيات العربيات يعشقن الفتى لا لماله ولا لجماله وانما لشجاعته فقط .

والجدير بالذكر ان كلا من قبيلة السبعة المتفرع منها عشيرة القمصة وقبيلة الرولة كلاهما يجتمعان بأصل واحد وتجمعهما اسم قبيلة عنزة ولذلــــك تجدني وضعت عنوان هذه القصة : (**لا يفل الحديد الا الحديد**)

ليست الشجاعة وقفا على البدوي دون القروي

- ٨ -

كل من عاش بين ظهراني البادية يدرك جيدا مدى احتقـــار البدوي لابن المدينة واذا كان احتقار البدوي لابن المدينة بالمائة خمسين فانه سيكون احتقاره لابن القرية بالمائة مائة والسبب واضح عندما نذكر ان البادية في الزمان السابق بل وحتى الثلث الاول من قرننا الهجري الحالي كان لهم صولة وجولة لا في شبه الجزيرة فحسب بل وفي سورية وفي العراق وربما كان نفوذها في هذين الاقليمين على ساكني القرى اشد منه على ساكني قرى شبه الجزيرة . وليس الامر غريبا عندما نذكر ان كل فرد من افراد اية قبيلة كان لا بد ان يحمل بندقية بعتادها الكامل فالاحتفاظ بالبندقية والفرس اولا وقبل كل شيء عند البدوي الفارس الشجاع ثم بعد ذلك يأتي دور الاحتفاظ بناقته وجمله فهو يبيع الجمل والناقة ليشتري فرسا وبندقيـة وليس العكس وخذ دليلا على ذلـــك قول احد شعرائهم :

بـع الجمل واشتر فرس   واشتر سوارى معدلة
يا ناقل عفن الحديد   ارع الموازر بدلـــه

الشرح : ربما كان صدر البيت الاول لا يحتاج الى شرح فهو واضح بلفظه ومعناه فالشاعر يقول لصاحبه بصيغة الامر المفروض عليك ان تبيع جمالك وتشتري عوضا عنها فرسا وبندقية من البنادق الثمينة سوارى يقصد البندقية

القصيرة التي صنعت من اجل ان يحملها فرسان الخيل وفي البيت الثاني تأكيد لما جاء في البيت الذي قبله من المعنى .

المقصود ان رئيس القبيلة اشبه ما يكون بقائد جيش في عصرنا الراهن ويرتفع نفوذه في قبيلته بقدر ما يزداد عدد اسرته ورهطه الاقربين كما يكون له من الهيبة والقوة في خارج قبيلته بقدر كثرة عدد سكان فرسان قبيلته .. وغاية ما يقال ان رئيس القبيلة اذا كان له قبيلة كثيرة العدد فانه كما ذكرنا اشبه بقائد جيش بل ان بعض رؤساء القبائل يتصرف برقاب رجال قبيلته كتصرف الجزار بقطيع الغنم يقتل من رجالها من يشاء دون ان يخشى اخذ الثأر كابن شعلان في في قبيلة الروله والدويش في قبيلة مطير ومن هنا نعرف ان رجال البادية في الصحراء كانوا قوة ضاربة مدربين على الاسلحة وعلى ركوب الخيل والحروب ولذلك من البديهي ان ينظر البدوي الى الحضرى بعين السخرية والى القروي بعين الاحتقار لان اهل القري ما كانوا يحملون السلاح خاصة فلاحي العراق وسورية. واما بعدان حمل السلاح فلاحو هذين الاقليمين بعد ذلك فقد وقفوا نفوذ ابناء عمهم البدو عند حدهم .. فعكف الاسد ذيله هارباً . والقصة التي نحن بصدد ذكرها كانت في اوج مجد البادية وفي عنفوان سخريتهم من الحضرى واحتقازهم للقروي وهي بلا شك لا يقل تاريخ حدوثها عن قرنين وما فوق والشاهد الذي نستدله به على بعد عهد الحادثة كالآتي :

اولا — اننا لم نجد من يذكر لنا اسم الفارس الذي يعتبر بطل القصة .

ثانياً — لم نجد ايضاً من يحدد وقوع الحادثة لا من ناحية الزمان ولا من ناحية المكان .

ثالثاً — لم نجد ايضاً من يذكر بصورة واضحة اسم الفتاة التي هي الطرف الثاني بالقصة .. كل هذه الاشياء تجعلنا لا نشك ان الحادثة لها زمان طويل وطويل ولولا وجود القصيدة التي انشدها بطل القصة لدرست الحادثة كما درس

المئـات بل الوف القصص والحوادث التي وقعت في جزيرة العرب من قرون طويلة فطوتها الاحقاب .

وكل ما يتناقله الرواة بسرد الحديث عن هذه القصة هو ما يستنتجونه من قصيدة الشاعر الفارس على الرغم من ان في القصيدة بيتاً يتنافي مع ما يتناقله الرواة كل المنافاة.. وبالرغم ايضاً من ان القصيدة يوشك ان نقول ما من مواطن في شبه جزيرة له ادنى ميل في حفظ شيء من الادب الشعبي او الاستماع اليه الا وسيكون حافظاً لها او لبعضها او سامعاً بها ..

والرواية المشاعة المتواترة بين كافة الرواة تفيد انه في عهد الامير ابن عريعر الذي كان حاكماًلشبه الجزيرة العربيةقبل قرنين من الزمان والذي يحدثنا الرواة عن مدى نفوذه وسلطته احاديثاً اشبه ما تكون بالخرافات .

وفي ذات يوم قام فرسان الحاكم ابن عريعر بمهرجان تطارد به الفرسان امام الامير وكان بين هؤلاء الفرسان فتى وسيم يتدفق حيوية وفتوة الامر الذي جعله محط انظار الفتيان والفتيات على حد سواء. وعندما انتهى المهرجان ترامت حروف الاستفهام نحوه .. ممن يكون هذا الفارس .. وكان الحرص على معرفة الفارس من الفتيات ثلاثة اضعافه عن الفتيان وهو من ابنة الامير ابـن عريعر حسب الرواية اكثر منه من اي فتاة كانت .. ولشد ما كانت الصدمة عنيفـة عندما علمت الفتاة ابنة الامير بان الفتىالفارس الوسيم لم يكن بدوياً ولا حضرياً وانما كان قروياً ومن قرية متواضعة يقال لها (ثرمدا) من قري الوشم الواقعـة غرباً الى الشمال عن مدينة الرياض ومن اسرة العناقرة فقالت الفتاة (خيال القري زين تصفيح) اي ان القروي قد يكون وسيماً بركوبه للفرس ويكون جميلا وفارساً عندما يكون طراد الخيل طردا سلمياً لا قتال فيه وانما هو مهرجان شعبي كهذا اما اذا جد الجد وحمي الوطيس واشتدت الهيجاء فان القروي لم يكن من فرسان هذا الميدان ..

وقد اشاحت الفتاة بوجهها عن الفتى بعد ما كانت شديدة الالحاح بالسؤال عنه . اما بعد ما تبين لها انه قروي عندئذ اصبح لا يستحق ان يسأل عنه .

اما الفتى الفارس فقد بلغه خبر سؤال الفتيات عنه بصورة عامة وسؤال ابنة ابن عريعر عنه بصورة اخص واكثر حرصاً كما بلغه ايضاً الخبر المعاكس اي ان الكلمة التي قالتها ابنة الامير وقد نقلت اليه حرفياً ..

فأسرهـا في نفسه .. ولما كانت موهبة الشجاعـة لا تبرز الا في الحروب والشدائد والمحن فقد كان ذلك العهد عهداً طافحاً بالحروب المستمرة مليئـاً بالغارات والغزوات التي لا تنقطع ، وكشيء مألوف جاء فرسـان قبيلة الفضول وصبوا غاراتهم على الحي الذي يقطنه اهل الفتاة ونهبوا ابلهم وشرعوا يتحدون فرسان القبيلة في عقر بيوتهم بدون ان يتصدى لهم من فرسان قبيلة الفتاة او من اخوتها من ينازلهم منازلة الند للند ..

وعندئذ نزل الميدان الفارس الفتى القروي وتصارع هو وفرسان العدو ولا زال في كروفر حتى استطاع ان يصد هجومهم فولوا هاربين بعدما حطم الفتي سنان رمحه فوق هامة اعدائه واشبع نصال سيفه من رقابهم ..

كان ذلك بمشهد من الفتاة التي ازدرته بتلك الكلمة التي قـد تكون حافزاً رئيسياً لبطولته هذه ولا بد له الآن الا ان يجعل بطولته هذه صدى وذكراً خالداًيتناقله الاحفاد عن الاجداد ولما لم يكن يوجد وقتها صحافة محلية ولا محطة اذاعة كما هي اليوم ولا وكالات انباء فما يسعه والحالة هذه الا ان يقوم هو بذاته بهذه المهمة والعادة المألوفة عند العرب منذ العهد الجاهلي هي ان الشاعر اذا كان فارساًفإنه مهما امتدح نفسه بشعره لا يعاب بل يستحسن، ولكن بشرط اساسي وهو ان يكون فعله سابقاً لشعره وان اختل هذا الشرط فسوف يلاقي عنـد

العرب ما لاقاه بصري الوضيحي[1] .

اما وقد سبق شعره فعل بمشهد من رجال ونساء آل قبيلته بكاملها فمايسعه الآن الا ان يمتدح نفسه بما يشاء وان يسخر من ابنة الامير باسلوب لبق بلفظه جارح بمعناه فراح ينشد : قصيدته الحائية الآتية :

وراكْ تَزَهَدَ يا ريش العين فِينا   تقول خيَّالْ القرى زين تصِفيحْ
الطيب ما هـو بس للظاعنينا   قسم على كل الوجيه المفاليحْ
البدو واللِّعي بالقِرى ساكنين   كل عطاه الله من هبة الريحْ
يوم الفُضول بحلتك شارعينا   والخيل باخوانك سوات الزنانيحْ
يوم انكسر رمحي جذبت السنينا   لما جعلت الخيل صم ٍ مدابيحْ
هيا عطيني الحـــق هيا عطينَا   وان مـــا عطيتنيه والله لصيح
لصيح صيحة من غدا له جنينا   والا خلوج فاختوها السواريح
يبو نهود تقل فنجال صـــبنا   وياغصن موز حركه ناعم الريح

الشرح :

يقول الشاعر في البيت الاول مخاطباً الفتاة ابنـــة الامير ... لماذا يا ناعس الطرف تزدرينني ، — هـذا معني صدر البيت امـا معنى عجز البيت فقـــد شرحته آنفـا — .

---

[1] بصرى الوضيحي شاعر من شعراء قبيلة شمر قال قصيدةامتدح بها نفسه قبل ان يفعل وعندما وقعت معركة بين قبيلة شمر وقبيلةعنزة جبن الشاعر ولاذ بالفرار بدون ان يبدي ادنى مقاومة فما كان من رئيس قبيلته الاان اقسم الا يركب الشاعر فرساً مدة حياته . وزاد على ذلك انـه اي رئيس القبيلة امر ان يغسل ظهر الفرس التي ركبها الشاعر بالماء الحار والصابون . . والقصة والقصيـدة معروفتان لدى رواة الادب الشعبي ولذلك لا ارى ما يدعو الى شرحها هنا .

واما معنى البيت الثاني والثالث فانهما مفسران لما قبلهما . فيقول: لقد قلت ان القروي ليس بفارس ميدان وانما هو فارس مهرجان ... ولكن يجب ان تعلمي ان الشجاعة ليست وقفا محدودا مختصاً بها البدوي دون القروي ، بل انما هي ملك مشاع لجميع اصحاب المواهب النبيلة ..

ويقول في البيت الرابع والخامس : عندما هجم العدو على بيوت ذويك .. حينذاك لاذ اخوانك الاشقاء بالفرار .. وعندئذ تصديت لهجوم الاعداء واشبعت العدو طعنا برمحي حتى تحطم سنان الرمح على هامات الاعداء . وبعد ذلك سللت سيفي وقمت أضرب به رقاب الفرسان حتى ولوا هاربين كـــأنهم صم بـكم ..

هذه الابيات الخمسة هي خلاصة القصيدة من حيث المعنى .. أما البقية فانها كلها تغزل . ويقال : إن الفتاة بعد ذلك بدلت رأيها وعشقت الفتى الفارس ولكن الفتى ناء بجانبه عنها ورفض الاجابة على رغبتها منه بالزواج .

وبعد فقد أوردت القصة على الشكل الذي يتناقله الرواة بصورة مشاعة بدون ان ابدل او اغير شيئا مما نقلته كما انني لم ادخل في صميم القصة شيئا من التعاليق التي كنت ادخلها في القصة اي كما كنت افعل في الجزء الاول (من شيم العرب) الامر الذي عابني عليه بعض من الكتاب والقراء فمن هؤلاء الناقدين من يرى ان من الافضل ان لا يكون المؤلف دخل في صميم القصة من آرائه الخاصة بل عليه ان يأتي بالقصة ويضعها بين يدي القارىء ويترك للقارىء الحكم ومنهم من قال : يجب على المؤلف ان يوضح رأيه للقارىء فيما اذا كان في القصة اضطراب بين المتن والرواية او بين الرواية والقصيدة كهذه القصة مثلا .. وهؤلاء الذين يرون هذا الرأي الثاني كذلك يعيبون على المؤلف ادخال رأيه في صميم القصـــة ويرون ان يكون رأيه الخاص بعد انتهاء القصة واصحاب هذا الرأي الثاني وجدتهم على صواب في رأيهم .وهذا مما جعلني لم ابد رأيي في هذه القصة

الا بعد انتهائي من كتابتها التي نقلتها من الرواة نصا كما اوردتها بالسياق . ومما جعلني ايضا آتي برأيي مؤخرا في هذه القصة على الشكل الآتي :

اولا ان القصة من حيث الاصل وصحة حدوثها حقيقة لا تقبل الجدل كما اشرت الى ذلك آنفا .

ثانيا – كون بطل القصة قرويا فهذا شيء يبدو واضحا من معاني القصيدة اما انه عنقري النسب او غير عنقري فهذا لا استطيع البت فيه ولكن الرواية المتواترة كلها تفيد ان الفارس من العناقرة .

ولكن الاضطراب يأتي الى القصة من الوجوه الآتية :

اولا – ان من سماهم الفارس بالفضول فهؤلاء لم يكونوا من القبائل الذين لهم من كثرة العدد وذيوع الصيت والشهرة بالفروسية خاصة عندبادية شرقي وجنوبي شبه الجزيرة المكانة – المرموقة كالقبائل المعروفة لدينا حاليا منذ قرنين وما دون اللهم الا اذا كانت الحادثة لها اكثر من ثلاثة قرون وهـذا يعني ان قبيلة الفضول كان لها شأن ثم تلاشي شأنها وتضاءل حتى اختفى كما اختفى شان قبيلة بني خالد الذين منهم ابن عريعر نفسه .

فاذا كان الامر كذلك فهذا يعني ان قبيلة الفضول كان لهم من القوة وكثرة عدد فرسان قبيلتهم ما يجعلهم يقفون من ابن عريعر موقف النـد الند ومن المعروف ان ابن عريعر كان باسطا نفوذه وسلطته عـلى قسم كبير من شبه الجزيرة . .

طبعاً يجب ان يكونوا بهذه الصفة والا كيف يمكن ان يصب الفضول غارتهم على حاكم كابن عريعر وعلى نفس اهله ومحارمه والعادة المألوفة عند العرب ان الغارة على البيوت لا يمكن ان يصبها الا الحاكم او القوم الذين يضاهون بقوتهم

وكثرتهم قوة الحاكم بعددهم وعدتهم .

وخلاصة رأيي في هذه الحادثة هو اما ان يكون للفضول في سالف الزمان قوة ضاربة تجعلهم كما ذكرنا آنفا يقفون من ابن عريعر موقف الند للند وهذا معناه ان الحادثة كما ذكرت لها اكثر من ثلاثة قرون اي قبل ان يبلغ ابن عريعر من سلطة الحكم القدر الذي يتناقله الرواة والمؤرخون عنه .

او ان الحادثة وقعت مع ابنة امير من امراء البدو العاديين الذين رمى بهم الفال فنزلوا بأهلهم بقرب قرية ثرمداء التي يسكنها العناقرة فحدث مهرجان شعبي بيوم عيد او ما شابه ذلك فجاء ابن العنقري بفرسه وشارك البدو المجاورين لقرية أهله بمهرجانهم فرأته ابنة امير العشيرة المجاورة للقرية فتحدثت بكلمتها سالفة الذكر فبلغت الفتى القروي كما ذكرنا ثم بعد ذلك جاء فرسان قبيلة الفضول وصبوا غارتهم على قبيلة الفتاة التي كانت مجاورة للقرية فاصبح دفاع الفتى وشجاعته امرين حتميين الاول ان اهل الفتاة جيران له ويتحتم عليه ان يدافع عنهم ويقاتل من اراد ان يعتدي على حرمة جيرانه الى آخر نقطة من دمه .. والامر الثاني هو ان يثأر لنفسه من الفتاة التي ازدرته وسخرت منه .

وهذا الرأي الاخير هو الارجح في نظري

مغامرة فارس من اجل ناعس الطرف

- ٩ -

نزح نفر من قبيلة شمر القاطنين في جزيرة الفرات واستوطنوا الاراضي التركية المتأخمة للحدود السورية برئاسة زيد بن عمرو الجرباء ويقطن الارض التي استوطنها ابن عمرو ورفاقه قبيلة تدعى (قيس) وفي هذه القبيلة فتيات بارعات الجمال جامعات بين حسن الحضارة الذي هو الى البياض والحمرة أقرب منه الى السمار البدوي وبين رشاقة وخفة روح الفتاة العربية ، وبين الفتيات القيسيات فتاة تمتاز بجمالها ورشاقتها على جميع فتيات قبيلتها وقبيلة شمر معاً كما يمتاز البدر بانواره وصفائه على سائر النجوم .. وكان الامر طبيعياً ان تلفت نظر فتيان الحي وان يحاول كل فرد منهم ان يحظى بلفتة من لفتاتها أو بايماءة من طرفها .. ولكنها كانت ابعد منالا عنهم من الجوزاء .. لقد كان الفتيان مجمعين على حبها ومتفقين على الهيام بغرامها ومتحدة قلوبهم في عشقها. ولكن معشوقتهم لم تمنح حبها لأي واحد من عشاقها ولا بأدنى اشارة عابرة .

وكلما ازدادت فتنة شباب الحي بسيدة الجمال ازدادت الفتاة تجاهلاً لهم .. ولم يعزّ هؤلاء الفتيان عن **تجاهل** الفتاة لهم الا امران :

الاول : **انهم** لايعرفون لها معشوقاً تهواه ..

الثاني : انها كشأن فتيات البادية اللواتي لا يعشقن الفتى لجماله ولا لماله وانما لشجاعته فقط ولذلك كانت أمنية كل فتى من كلتا القبيلتين شمر وقيس

هي ان تأتي مناسبة يغزوهم فيها العدو أو يغزون العدو لكي يقوم من تحدثه نفسه بغرامها بدور بطولي يجعل له عند الفتاة منزلة لا ينافسه عليها احـــد . ولكن المشكلة هي ان عهد الغزوات والحروب بين القبائل بدأ يتلاشى تدريجياً بحكم قوة الامن المشددة وخاصة في الصحراء السورية التي كانت محاطـــة بسياج من حديد ، ولئن كان لكل شيء حسنات وسيئات فان الاستعمار الفرنسي البغيض للوطن العربي السوري كله سيئات اللهم الا عملية واحدة وهي توطيـــده أمن الصحراء وذلك انه جند جنوداً من نفس شباب البادية مهمتهم الوحيدة حماية البدو من غزو بعضهم لبعض وحماية القوافل التي تمر عــبر الصحراء من السلب والنهب .. ويسمى هذا الجيش بالهجانة . . فكانو يطوفون الصحراء السورية شرقها وغربها على رواحلهم كما كانوا مدربين على الاسلحة الحديثة كالرشاشات وامثالها .. وليس من السهل ان يفلت من ايديهم اي غاز كان لان الغزاة لايعدو امرهم من ان يكونوا اما من قبيلة عنزة وامـــا من قبيلة شمر وهؤلاء الهجانة اغلبهم من هاتين القبيلتين .. ومن هنا يصح المثل القائل : لا يفل الحديـــد الا الحديد .

أماني الفتية تتحقق .

ولئن كانت حراسة الهجانة مشددة ورادعة ومخيفة لكل فارس يحـــاول الغزو على طريقة أهله الوراثية فان هذه الحراسة مها كانت مشددة ومهما بلغت من القوة فانها لاتستطيـع ان تقهر فارساً كزيد بن عمرو الجرباء الذي اشرت الى ذكره من قبل بأنه نزح من الحدود السورية الى الحدود التركية هو وشلة من من فرسان قبيلته .

ففي حوالي ١٣٥٠ هـ ١٩٣٠ م اعد العدة زيد بن عمرو قاصدا غزو عشيرة الفدعان التي يرأسها مقحم بن مهيد وكان مجرد اعلان ابن عمرو للغزو يعتـــبر

امنية سعيدة بالنسبة للفتيان الذين يود كل منهم ان يبدي شجاعة خارقة يرضي بها اميرة الجمال .

كان ذلك اليوم الذي حدد فيها ابن عمرو موعداً لغزوة يوما أغر محجلا لكل من فتيات قبيلة قيس وقبيلة شمر .

واما ان جاء الوقت المعين لذهاب الغزاة حتى حضر الفرسان بكامل عددهم وعدتهم وكان من بين هؤلاء الفرسان والد الفتاة .. وعندما تهيأ الفرسان للسفر وامتطى كل منهم جواده في تلك اللحظة جاءت اليهم سيدة الجمال تمشي مشية زهو وغرور وتحد .. ولشد ما اندهش الغزاة جميعهم حينما دنت منهم الفتاة وخرقت صفوفهم ثم وقفت في وسط جموعهم بقوامها المشوق وهي تزيح بكفها الناعم خصلة من شعرها انحسرت على جبينها المشرق ثم اتجهت نحو الفرسان بوجهها الناصع البياض الممزوج بحمرة تشبه زهرة الورد فقالت(:ان والدي قد تجاوز سن الشباب الامر الذي جعلني اخشى عليه من ان تطرحه فرسه بين الاعداء فيما اذا حصل بينكم وبين فرسان العدو كروفر :) ثم صمتت الفتاة بعد هذه الكلمة لحظة تنتظر من هؤلاء الفرسان من يقول لها لا تحملي هم والدك فانه بعهدتي ، ولكن الفرسان كل واحد منهم لا يريد ان يتطوع بمثل هذه الكلمة تطفلا من عنده ، لا لما يترتب عليها من مغامرة انتحارية فحسب وانما يريد كل منهم ان الفتاة نفسها تنتدبه للقيام بهذا العمل .

وقد غشى الفرسان وجوم من الصمت بعد تلك الكلمة فكان على رؤوسهم الطير . كما ان الفتاة ادركت ما يختلج في نفوس الفرسان ولذلك عادت وغيرت مجرى الحديث بحديث آخر متجاهلة ما قالته في كلمتها الاولى . فراحت تتمنى لهم التوفيق في غزوتهم هذه سائلة المولى ان تكون غزوة ميمونة ، وفي اللحظة التي تواصل فيها حديثها هذا الطافح بالدعوات كانت ترسل نظراتها خلسة نحو الفرسان تتفرس في وجوههم النجابة فكأنهم خيل تعرض للبيع وكأنها واحد

من هواة سباق الخيل يريد ان يختار جواداً سباقاً يضمن له رهناً رابحاً ، وعندما ايقنت انها وجدت حصانها الرابح بعد ذلك قطعت حديث الدعوات وعادت الى حديثها السابق مؤكدة للفرسان العبارة السابقة وهي خوفها على والدها من ان تطرحه فرسه في الساعة التي يحمى فيها الوطيس ويشتـــد الطراد بين الفريقين الغازي والمغزو وقد واصلت حديثها هذا بدون انقطاع خلافاً لحديثها السابق الذي تريثت فيه وبينما كانت مسترسلة بحديثها هذا مضت بخطى وئيدة وبمشيـة ممزوجة بين الخيلاء والغرام فمن نظرها بعين الاعجاب قال عنها انهـــا تتبختر بمشيتها. ومن نظرها بعين الغرام قال انها ترقص .. وبينما الفرسان مأخوذون بين معجب ومغرم في تلك اللحظة قطعت الفتاة مشيتها ووقفت بقامتهـــا المديدة بجانب احد الفتيان الفرسان المدعو تركي العجرش فربتت على كتفه قائلة : (ان والدي بعهدتك) ..

فابتسم الفتى ابتسامة الواثق من نفسه والفخور بهذا الوسام الذي وشح بـه من قبل ناعسة الطرف ثم اجابها بهدوء قائلا (سوف يعود اليك والدك سالماً ان أحياني الله) .. فقفلت الفتاة راجعة بمشية خيلت للفرسان انها مشية الساخر المتحدي.

اما الفتى العجرش فقد كانت نظرته للفتاة نظرة اعجاب وغرام في آن واحد، خلافاً لنظرة رفاقه الذين راحت اعينهم تنظر الى الفتاة شزراً ويتمنى كل فرد منهم ان يقع ابوها من جواده في ساعة حرجه لا مجال لانقاذه وفي معركة من اشد المعارك هولا، والغريب في الامر ان الفتى العجرش هو الأخر يتمنى الامنية نفسها التي يتمناها رفاقه الفرسان ... لقد التقى هو ورفاقه على صعيد واحد من حيث الوسيلة ولكنه يختلف عنهم طبعاً في الغاية فهم يتمنون ان يقع والد الفتاة بين ايدي الاعداء في معركة حاسمة تجعل الفارس العجرش في مأزق حرج فامـا إن يغامر بنفسة كوفاء لما تعهد به للفتاة بانقاذ حياة والدها وعندها تكون نهايته فيرتاحون منه لاكرها له ولكن نكاية بأميرة الجمال التي اشاحت بوجهها عنهم جميعاً

ولم يقع اختيارها إلا عليه، واما ان يعجز عن حماية والد الفتاة وإنقاذه فيكونون ربحوا الشماتة بالفتاة التي هجرتهم وبالفارس العجرش الذي حسدوه على اختيار الفتاة له دون غيره ممن يضارعونه بالفتوة والشجاعة .

هذا هو معنى امنية الغزاة ! اما امنية الفتى العجرش فانه يود ان يقع والد الفتاة من جواده في احلك الظروف وفي اشد المعارك هـولاً واعظمها ضراوة ، وفي ساعة حاسمة لا يفكر بها اعظم الفرسان الا بنجاة نفسه فقط

وقع ما تخشاه الفتاة

لقد سبق ان اشرت بأن جيش الهجانة في الحـــدود السورية كان حارساً للصحراء حراسة قوية ويصعب جداً ان يفلت من ايديهم غزلة من هذا النوع..

ولسوء حظ الغزاة ان الهجانة كان لديهم علم بهم مسبقاً ولذلك اتخـذوا اي الهجانة جميـع الاحتياطات اللازمة لتعقب حركاتهم وسبر غورهم بصورة دقيقة وكانت خطة الهجانة تقضي بتطويق الغزاة واسرهم اذا امكن الامر .

اما الغازون فلم يعملوا حساباً للهجانة وانما كان جل همهم مصبوباً نحومقاومة فرسان الفدعان فبعثوا فرساناً يسبرون مواقع ابل العـدو وبينما هم يسبرون من قبل الهجانة.. وفي الحين الذي كانوا يسيرون آمنين غير خائفين ويظنوا أنفسهم أنهم غـزاة ، فاذا بهم فجأة يقعون بالفخ الذي نصبه لهم الهجانة وبدا لهم الامر انهم مغزوون وان سلامتهم مهـددة وان امامهم قوة الحكومة المجهزة بالاسلحة الحديثة لا قوة فرسان البدو الذين يضارعونهم بنوع الاسلحة .

فكر الغزاة وقدروا في الخروج من المأزق الذي وقعوا فيه . فوجدوا ان كل سبيل امامهم من سبل المقاومة موصداً بل وعقيماً .. وان لا سبيل لهم الا أحد السبيلين ، اما الاستسلام بدون قيد ولا شرط وهذا منتهى ما يصبوا إليه الهجانة

او الفرار على صهوات خيلهم .. وبينما هم في حيرة باختيار اهدى السبيلين ، عند ذلك زحف عليهم الهجانة واصلوهم برشاشاتهم بوابل من الرصاص المدرار فلم يسعهم الا ان ارخى كل فارس منهم عنان جواده وفروا هاربين فرادى وكل فارس منهم لايعلم ماذا حل بصاحبه . ولما كان الهجانة على رواحل والغزاة على الجياد فانه من المسلم به ان لا يستطيع راكب الناقة بان يدرك راكب الفرس وانما العكس هو الصحيح ، ولذلك لم يستطيع الهجانة اسر او قتل اي واحد منهم .

الامنية المزدوجة تتحقق .

لقد نجا الغزاة من الاسر بعدما ابدوا مقاومة بسيطة جرح بها احد الهجانة اما الفرسان فلم يصب احد منهم بأذية ولم يفقد منهم احد قط . اللهم الا والد الفتاة الذي جاءت فرسه تسحب رسنها بدون فارسها الذي سقط من فوق صهوتها في اول المقاومة ولكن سقوطه هذا ظل مجهولاً لدى رفاقه فلا يعلمون هل اصيب برصاصة من رصاص العدو ، ام ان كلمة ابنته اثرت على معنويته بصورة جعلته منه لا يستطيع ان يتماسك على ظهر فرسه .. ؟ كان الفرسان بحيرة من أمر والد اميرة الجمال وقد بدا لهم الامر جلياً فيما بعد ان صاحبهم لم يصب بجراح وقد نظروه رؤية العين يسير على اقدامه سليما من كل اصابة .. ولكنه محاط بقوة الهجانة التي لا زالت تلاحق فلولهم وترشقهم برصاص منهمر ..

لم يحزن الغزاة على والد الحسناء التي سخرت بهم جميعاً بل يرون انهم وان افلسوا من غنيمتهم لابل العدو فانهم لم يفلسوا من شماتتهم باالفتاة وبالفتى العجرش الذي شمخ بأنفه عليهم بعدما انتدبته الفتاة لحراسة والدها واسقطتهم من حسابها ، ولكن العجرش لم يدع لرفاقه فرصة يشمتون بها على سيدة الجمال فسرعان ما كر الفارس على والد الفتاة المطوق بجيش الهجانة والذي يعتبر اخذه من بين هذه القوة تحدياً لسلطة الحكومة واستهتارا بحياته ومغامرة ما بعدها مغامرة ولكنها مغامرة لذيذة بالنسبة اليه فهو ان نجا منها وفاز باختطافه والد

الحسناء من بين يدي الهجانة، فمعناه انه حقق نظرية اميرة الجمال به وفي الوقت ذاته يكون استولى على لب الفتاة واحتكر غرامها له وحده بصورة لا يستطيع اي فتى ان ينافسه عليها .. اما ان لقي حتفه من جراء مغامرته هذه فانه يرى نفسه كفتى بدوي مغامر بطبيعته خيراً له ان يغامر من اجل ناعسة الطرف حتى ولو لقي حتفه من ان يغامر بحياته من اجل غنيمة جمل من ابل عنزة ..

وقد غامر الفتى بحياته وكان من المسلم به ان يقتله الهجانة بطلقات رشاشاتهم التي صرفوها عن الغزاة ووجهوا افواهها الى هذا الفارس الذي وضع نفسه هدفاً لرماتهم او ان يقتلوا فرسه فيكون وقتذاك من السهل استلامه وقيده اسيراً او بالاحرى يحولون بينه وبين اختطافه للفارس الذي سقط من جواده ..

ولكن المجرش استطاع ان ينهب الشيخ من فكي الاسود بدون ان يصاب بأدنى سهم لاهو ولا جواده بالرغم من ان الهجانة المدربين على رماية البنادق والرشاشات لم يدخر كل فرد منهم اقصى ما لديه من الجهد لاصابة الفارس اصابة فرسه سواء باقباله او بادباره .. ولكنه نجا من سهامهم ..

وهكذا عاد الغزاة مفلسين وموتورين من اميرة الجمال التي تحدتهم باختيارها للفتى المجرش ومقهورين من المجرش الذي حقق للفتاة ما كانت تتوسمه به .

اما الفتى المجرش فانه يرى نفسه الفارس الوحيد الذي غزا وعاد بالغنيمة الدسمة .

ولما كان الهجانة الذين تحداهم الفارس واختطف الرجل من بين ايديهم كلهم أو اغلبهم من البادية الذين تستهويهم الشجاعة انى كان مصدرها فانه من البديهي ان يتساءلوا فيما بينهم من هو هذا الفارس الذي قام بهذه المغامرة العنيفة النادرة من نوعها ؟..

وقد كان من بين هؤلاء الهجانة جندي يدعى (مراح) من نفس قبيلة العجرش ، فهذا الجندي قال لرفاقه الهجانة انني على اتم الاستعداد لأن اضع رهاناً لمن شاء ان يراهنني بأن الفارس الذي قام بهذه المغامرة هو ابن العجرش فلان يقصد الفارس بالذات تكهنا منه بصفته – يعرف رجال قبيلته شمر واحدا واحدا خاصة الذين نزحوا الى الحدود التركية . . وبما ان الارض التي يقطنها الغزاة قريبة من الحدود السورية التي يعسكر فيها الهجانة لذلك كانت معرفة الفارس سهلة جداً بحكم ذهاب واياب المسافرين من والى الحدود التركية ولم تمض ايام قليلة حتى جاءت الاخبار للهجانة مؤكدة لصحة ما تنبأ به الجندي (مراح) وموضحة الأسباب الدلعية لمغامرة الفتى ..

هذا وقد روى لي مراح انه اجتمع بعد هذه الحادثة بعم الفارس المغامر المدعو مطلق العجرش وتحدث له بالمغامرة التي قام بها ابن اخيه وما كان الجواب من عم الفتى الا ان قال (فهل تعتبر مثل هذه العملية شجاعة من شاب استنجدت بنخوته فتاة حسناء .. ثم استطرد الشيخ وقال : كنتُ اتوقع ان تقول لي انه هجم على الهجانة وأسر عدداً منهم واغتنم رواحلهم واسلحتهم ..

وهكذا نرى الشيخ يستصغر هذه المغامرة من ابن اخيه .

الشيخ الذي دفع حياته ثمناً لكرامته

- ١٠ -

كانت صلتي المباشرة بكثير من الشيوخ الرواة الذين تجاوز البعض منهم قرنا كاملاً . هي التي أتاحت لي الفرصة لنقل الكثير من هذه القصص ، كما أنها أتاحت لي ان اعرف شيئاً عن تاريخ حياة رجال لعبوا دوراً هاماً في شبه الجزيرة العربية .

وكان من الواجب التاريخي ان لا يغفل اسمـــاء امثال اولئك الرجال من التاريخ ، ولكن مع الأسف ، اننا لم نجد اقل ذكر لأي واحـــد من هؤلاء . والسبب في ذلك، كما ذكرته أكثر من مرة هو ان الفترة التي عاشها اولئك الرجال لم يكن فيها مؤرخون ، وحتى الذين كتبوا عن تاريخ البلاد في الفترة الاخيرة ، كان اكثرهم من غير أهل البلاد ، كما انهم غرباء عن معرفة الادب الشعبي المتصل بحياة بلادنا اتصالا لا ينفصل ، ومن الرجال البارزين الذين يشار اليهم بالبنان ، المرحوم زامل بن سليم – زعيم مدينة عنيزة وأميرها . لقد كان هذا الرجل من ابطال الرجال الافذاذ . وقد كانت شجاعته بقلبه كشجاعته بعقـله . وكانت معركة المليداء التي وقعت بين محمد بن رشيد من جهة وبين حسن ابن مهنا وزامل بن سليم من جهة أخرى . من اعنف المعارك التي وقعت في الجزيرة ، أو قـــد تكون هي البداية والنهاية من نوعها في عهدها الغابر لا اعاده الله ، لانها وقعت في العهد الذي كانت الحروب الاهلية بين المواطنين قد بلغت الذروة . وذلك في عام ١٣٠٨ هـ . وهذا الشاعر المرحوم حمود العبيد الرشيد يصف هـذه المعركة ببيت من قصيدته البائية الطويلة ، وصفاً تاريخياً صادقاً فيقول :

يوم جرى بالضلـّفعة له ضلال   يعده الاول لناس بالاصــلاب

الشرح : الشاعر هنا يؤكد ان اليوم الذي حدثت فيــه تلك المعركة سوف يرويه الاحفاد عن الاجداد وسوف يتحدث عن هوله ويتناقــله الاحياء للابناء الذين لا زالوا في اصلاب آبائهم لم يخلقوا بعد .

وها نحن ننقل اخبار هذه المعركة من افواه الرجال الذين خاضـوا غمارها وهم بمثابة الاجداد لنا والذين لا اذكر منهم واحداً على قيد الحياة وسوف تظل في حقل هذا السجل الخالد الى ما شاء الله .

روى لي المرحوم الشيخ سلمان بن رشدان الذي كان من رجال تلك المعركة يقول الراوي كان اللقاء بيننا وبين العدو وقع في معركتين اولى وثانية فاما الاولى فقد سقنا على العدو ابلا تسمى الصخريات وهذه الابل دربت تدريباً متقناً يقضي بأنه متى ما سمعت لعلمة الرصاص هجمت على العدو وعندئـــذ نأتي نحن المشاة ونهجم على العدو على اثر الابل فيكون العدو وفتها في ذهول من مباغتة الابل له بصورة لا تمكنه من مقاومة الابل والمهاجين المشاة والفرسان من قومنا .

يقول الراوي كنا قدرنا ان عدونا لايستطيـع ان يثبت ويقاوم الابل والرجال المهاجمين على حد سواء ولكن سرعان ما اتضـــح لنا ان المكيدة التي ابرمناها والتقدير الذي قدرناه كل ذلك تحطم على صخرة شجاعة وبطولة اعداءنا العنيدين حيث قابلوا الهجوم بهجوم معاكس وتمكنوا من مواجهة الابل فعقروا بعضها بسيوفهم وعقلوا البعض الآخر ثم قابلوا هجومنا بهجوم عنيف وقد ظلت المعركة دائرة بالسلاح الابيض حتى كان النصر للعدو ..

كانت هذه المعركة في ارض رملية بصورة لاتستطيع الخيل ان تجري بفرسانها .ويقول الراوي انــه عندما ادركنا فشل تجربتنا الاولى ووجدنا انفسنا

كمشاة اعجز مـــن ان نهزم مشاة العدو وعند ذلك رحلنا ونزلنا في ارض صلبة جرداء تستطيع الخيل ان تجري فيها بصورة يكون فيها لفرسان الخيل كر وفر ومجال للقتال اكثر من المجال الاول الذي كان في ارض رملية لا مجال للفرسان فيـــه ..

وكان العدو يملك القوة الكافية من حيث المشاة الذين أثبت بهم تفوقه على خصمه ولكنه لا يضمن لنفسه النصر على خصمه فيما اذا نازله في ارض صلبـــة صالحة لطراد الفرسان بحكم انه لا يملك من وفرة فرسان الخيل التي تضمن له النصر كما يملك من وفرة المشاة الذين اثبتوا شجاعة هزموا بها ابن رشيد وابـله المدربة ورجاله الشجعان ..

كانت هذه الظاهرة يدركها المرحوم زامل بن سليم الشجاع برأيه وبقلبـــه ولكن المرحوم حسن بن مهنا الذي كانت شجاعته بقلبه اكثر من شجاعته برأيه ما استطاع ان يفهم هذه الحقيقة وذلك انه كان مصراً على ان ينازل العـــدو في أرضه ولا سيما وان العدو بدأ يتحرش برجاله وكان قصد العدو من تحرشه هذا هو ان تأخذ الامير حسن بن مهنا النخوة ويخرج برجاله الشجعان من الارض الرملية الى الارض الصلبة ليتسنى لفرسان ابن رشيد الكثيري العدد القتال الذي لم يستطيعوا القيام به في تلك الارض الرملية ..

فما استطاع الشيخ حسن ان يصبر على ذلك التحرش من خصمـــه الذي يعرف انه سبق ان هزمه من عشرة ايام عندما جاء بكل مـــا يملك من القوة وعندما ساق ابله المدربة ورجاله الشجعان وحينما قال شاعره في هذه المناسبة:

الى سِيقَت البل بالمسَاوْق روسها   سِقْنا عَمـــار بالمواسم غاليه

الشرح : يقول الشاعر اذا كنتم تسوقون الابل وقاية لاعماركم فاننا نسوق أعمارنا

الغالية ونرخصها في (موسمها)اي اننا نفدي انفسنا على صخرة الكرامة والوطن.

فالقائد الذي يقـول شاعره المعبر عن لسان حال جنوده هذا البيت ويثبت قوله بالفعل حري به ان لا يتحمل تحرش خصمه الذي هزمـــه بالامس القريب ولماذا لا يزحف عليه في ارضه وينازله فيها ؟؟

وهكذا قرر الشجاع الشيخ حسن بن مهنا ولكن شجاع الرأي والقلب معاً الشيخ زامل ابن سليم لايوافق زميله على هذا الرأي بل يرى ان يبدأوا هم بالتحرش بعد مرورهم في ارضهم الرملية التي سبق ان كسبوا بها المعركة فان فقد اعصابه عدوهم وهجم عليهم فانهم واثقون من الانتصار عليه بحـــكم الموقع الرملي الذي سبق ان جربوا ما له من تأثير على قوة العدو ولكن الشيخ حسن لا يرى هـذا الرأي وانمـــا يرى ان يزحف على عدوه ويعتقد ان التأخر عن مهاجمة العـدو هو جبن بينما يرى الشيخ زامل ان مهاجمة العدو في ارض صلبة كهذه حماقـــة لا مبرر لها. قاصر على رفض الهجوم ولكن الشيخ حسن تحدى اصرار زامل باصرار معاكس وزاد على ذلك بكلمة جرحت كرامة الشيخ زامل حيث قال له : «كنا نعتقد انك شجاع كما يقال» .

فلم يسع الشيخ زامل حيال هذه الكلمة الا ارتكاب احـد الامرين : اما ان يصر على رأيه ويرفض الهجوم وهذا معناه اعتراف منه بالجبن امام نـد شجاع من انداده الذي ينافسه على زعامة القصيم. واما الاقدام على مهاجمة العدو وهذا اقصى ما يتمناه العدو .. ومعناه الانتحار وبالتالي فضل الرجل ان يدفع حياته ثمناً لكرامته فكانت آخر كلمة قالها الشيخ زامل للشيخ حسن بن مهنا اشبه مـا تكون بالكلمة التي قالها عتبة بن الوليد لعمرو ابي جهل في غزوة بـــدر عندما ابدى رأيه بعدم مهاجمة جيوش محمد(ص) فقال له ابو جهل : « اجبنت يا عتبة » فأجابه عتبة بتلك الكلمة التاريخية اللاذعة بل الوقحة .

ثم مضى في سبيله هاجماً على اصحاب النبي (ص) مطالباً البراز حتى لقي حتفه. وهكذا فعل الشيخ زامل اخذتـه النخوة ومن مكانه ذهب وحشد رفاقه اهل بلدته وهجم على العدو وكما ان الشيخ حسن آل مهنا هو الآخـر الذي لا يريد من يثير نخوته هجم بمن عنده برجاله فكانت هذه امنية العـدو فما اشدها مـن معركة عنيفة التقى فيها الجمعان وحمي فيها الوطيس ولم يسمع فيها صوت الا اصوات رصاص البنادق الذي بدأ يدوي كالرعد فترة ثم انقطع وبقي صوتان فقط وهما صوت (نخاوي) ابطال الجانبين وصوت انصلة السيوف واسنة الرماح .. لقد ظل هذان الصوتان يدويان كدوي النحل فـترة ليست بالقصيرة ثم انقطع الدوي وحل محله الانين. لقد تحقق للعدو ما يريد حيث طوق فرسانه رجـال الشيخين زامل وحسن ودفع الاول حياته في المعركة الخاسرة رحمه الله كما سقط الثاني جريحاً ثم جاءوا به اسيراً ثم توفي رحمه الله بعد ذلك ..

وهكذا دفع هذا الشيخ البطل حياته ثمناً لكرامته .

والواقع ان الشيخ زامل بن سليم من افذاذ الرجال الابطال كما انه شاعـر ولكنه مقل في شعره وقـد يكون له قصائد كثيرة ولكنها درست كما درس ذكره وذكر امثاله من الرجال البارزين بعهده ولم احفظ من شعره مع الأسف الا بيتين فقط قالهما جواباً على قصيدة قالها كما اظن حجرف البواردي[1] وحتى قصيدة حجرف لم احفظ منها الا بيتاً واحداً وهو قوله :

الضبعة العرجاء بدر منها النكر تنقز على رجـل والاخرى عايبه

الشرح : لم يكن في هذا البيت معنى ذو اهمية وكل ما فيه هو ان الشاعر يهجو زامل بن سليم بأنه بـدأ ينحرف عن جادة الصواب وفي الوقت ذاته يهجوه بأنه

(١) حجرف من زعماء مدينة شقراء عاصمة الوشم في نجد .

اعرج ..

فأجابه زامل بقوله :

رجلي بلاها صابها وطي الخطر   يوم اشهب الدخان كل هايبه
قـــدام ربعي والمنايا كالمطر   ما وَقَّفَتْ بالسوق تتلي الخايبه

الشرح : يقول الشاعر جواباً على البواردي ان العرج الذى اصاب رجلي كان اسبابه عدم مبالاتي بالاقدام على المخاطر في الحين الذي كثير من الناس يتقهقر عن الاقدام في الهيجاء هذا ما قاله في البيت الاول كما يقول في صدر البيت الثاني معنى قابل ان يكون تأكيداً لما قبله فيقول لقد اصاب رجلي الرصاص في الحين الذي كنت، اتقدم به رفاقي في الهيجاء .

واما في عجز البيت فانه يقول معنى مزدوجاً فيه ما يشير الى مدحه لنفسه بالعفة كما ان فيه همزاً للشاعر الذي هجاه ولكنه همز غير واضح ...

فيقول ان رجلي وان كانت عرجاء ولكنها لا تجري وراء امـــرأة مشتبه بعفتها .

حيثما تكون النساء تكون الشجاعة

- ١١ -

اذا تتبعنا تاريخ العرب نجد ان النساء من اهم العوامل الاساسية في بث روح الشجاعة والرجولة في كيان فتيان العرب ويبدو ان هذه الظاهرة كان لهـا الاثر الفعال عند العرب منذ العهد الجاهلي وذلك اننا نجد قادة قريش في غزوة احـد استصحبوا معهم فتياتهم لكي يشاهدن القتال اعتقاداً منهم ان الفتى عندمـا يرى قاصرات الطـرف الحسان يزغردن للفتيان الشجعان ويستحثنهم على المضي قدماً في قتال العدو فانه سوف يقاتل بلا وعي ونحن على سبيل الاستشهاد نذكر شيئاً من ذلك ففي وقعة (الطرفية[١]) الكائنة بين أبن صباح وابن رشيد نجد ان فرسان قبيلة العجمان جاءوابفتياتهم ليشاهدن المعركة او بالاصح ليدفعن الشباب الى القتال .. وفي معركة(جراب[٢]) نجد فرسان قبيلة شمر جاءوا ايضاً بفتياتهم بل ويؤكد الرواة ان بعضاً من الفتيات هن اللواتي يطالبن رجالهن بمشاركتهم في المعركة كما فعلت رقية ابنة سراي[٣] بن زويمل تلك الفتاة التي تعطينا صورة ناطقة عن خلق النساء العربيات: هذه الفتاة انكحت من ابن عمها وهي في سن مبكرة فانجبت بكرها صبياً وكان ذلك في الوقت الذي يتهيأ به ابناء عمها وفرسان قبيلتها الى غزوة « جراب » فراحت الى بعلها تخبره برغبتها بالذهاب مع الغزاة

---

(١) وقعة الطرفية كانت في ٢٦ ذي القعدة ١٣١٨ هـ. ١٩٠١ م.

(٢) وقعت في ١٣٣٣ - ١٩١٥

(٣) سراي بن زويمل من فرسان ورؤساء عشيرة سنجار المتفرعة من قبيلة شمر .

فرفض بعلها بحجة وجود المولود الذي لم يتجاوز اربعين يوماً بعد فأجابت الفتاة بعلها قائلة إنني أريد ان أحضر المعركة التي يقاتل فيها ابناء عمي اعداءهم واريد ان انهض بهمتهم واستحث شجاعتهـــم لان انتصارنا على العدو اوجب علي من حياة ابنك .. وغلب العدو لنا اشد علـيّ وطأة من موت ابننا .. قالت الفتاة هذه الكلمة وذهبت الى بيت اخويها فهد ومحمد فطلبت منهما مشاركتها الغزوة فلبيا طلبها فوراً حيث اعدا لها الهودج وقد حضرت تلـك المعركة العنيفة التي تعتبر من اعنف المعارك التي وقعت في تاريخ بلادنا القبلي الذي ذهب الى غـــير رجعة ..

ويؤكد كثير من الرواة انه عندما هجم العـدو على الجناح الذي فيه هودج الفتاة ودنا منها يقال انها ظلت تستثير نخوة الفرسان من بني عمها وتندبهم واحدا واحداً مما جعلهم يقاتلون قتال الابطال ولا زالت تصرخ بهم وتزغرد وترفـــع صوتها عالياً قائلة : (حب الذرة يالصبيان) اي معناه ان رصاصات العدو لا اثر لها وانها اشبه ما تكون بحبيبات الذرة التي لا تضر المرء بسوء فـيما اذا اصابته وبفضل صوت الفتاة الناعم المعسول استطاع الفتيان الفرسان ان يصدوا هجوم العدوّ ولكن بعدما دفعوا الثمن باهظاً غالياً . وهـــذا الثمن المدفوع هو خمسة وعشرون فارساً من زهرة فتيان قبيلة الفتاة واكثرهم من ابناء عمها الادنين كلهم قتلوا بمشهد منها ودفاعاً عن هودجها وعلى مقربة من خفي جملها .. وقد شاهدت بعيني رأسها الشجعان من جميع الغزاة كما شاهدت ايضاً من جبن وفر وراحت تنشد قصيدتها (الهجينية [٢]) هاجية بها شخصاً ما فتقول :

سلّم على البيض يا هالناير　　　واللي شرد لايعشقنـــه
شرد ان يوم الدخن ثاير　　　ابو قرون يعرفنـــه
يا مالة لك يا لنايـــر　　　يعل قرونـه يعدمنـــه

---

(١) انظر كتاب المؤلف الطبعة الاولى الجزء الاول من شيم العرب ص ٢٨٣
(٢) سبق ان اشرت بأن القصيدة الهجينية لا تتجاوز ابياتا محدودة .

الشرح :

تشير الفتاة في البيت الاول الى شخص يسمى (ساير) وساير هذا من جملة الاشخاص الذين انتدبهم امير الغزاة ليذهبوا كي يخبروا اهل البلاد بنتائج المعركة .

فتوصي الفتاة سايرا قائلة اذا وصلت نساء الحي الناصعات البياض فابلغهن تحيتي وقل لهن اياكن ان تعشقن الجبان او ترضين ان يكون لكن بعلا .

وفي البيت الثاني والثالث تشير الى شخص معين وتهزأ به وتدعو عليه بالمنيه .

وهذا شاهد واضح على ان النساء من أهم العوامل التي تدفع فرسان العرب الى الشجاعة اذ ان الفتى اذا لم يكن شجاعاً فانه قد لا يجد من ينكحه ابنته من فرسان العرب ، والبيت الذي انشده الفارس المشهور خلف الاذن ابن شعلان من اكبر واعظم الشواهد على ذلك اذ يقول :

ما ننعشق للبيض لو ما فعلنا   ولا يلكد باعقابنا كل اصيلة

هذا البيت هو من قصيدة طويلة للشاعر الاذن الفارس ،

فيقول : اذا لم نثبت بالادلة القاطعة عملياً بأننا فرسان فمعنى ذلك اننا لن نجد من نساء العرب اية فتاة ترضى بالنكاح من اي فتى منا والشواهد بهذا الصدد اكثر من ان تحصى . واني اذ استشهد بقليل من كثير فانما هو من اجل ان اثبت بالدليل القاطع بأن الشجاعة النادرة التي يبديها فتيان العرب في كثير من المناسبات كانت ناشئة من المسؤولية الكبيرة التي يواجهونها امام فتياتهم وخاصة كالشجاعة الغريبة من نوعها التي قام بها فتيان من قبيلة شمر والتي يطيب لي ان اوافي القارىء بها كما يلي :

من المعروف ان ابن هذال من كبار رؤساء القبائل [1] وفي مناسبة ما اصطدم وجهاً لوجه بأهل ركائب محدودي العدد من قبيلة شمر وذلك في تاريخ لا استطيع تحديده ولكنه لا يعدو من ان يكون حوالي عام ١٣٢٨ هـ

وكان لابد لأهل الركائب القلة من التماس احد السبل الثلاثة الاول من شأنه ان يأخذوا لانفسهم عهداً من ابن هذال على ان يكون هذا العهد محصوراً على سلامة دمائهم فقط وهذا يعني ان ابن هذال سوف يغتنم ركائبهم واسلحتهم .

السبيل الثاني هو ان يقاتلوا حتى تخور عزائمهم وعندئذ يستسلموا للعدو بدون قيد ولا شرط فان شاء العدو ان يعفو عن قتلهم فذلك صدقة منه وان قتلهم فلا يعاب .

السبيل الثالث : يحتم عليهم ان يقاتل كل فرد منهم الى آخر نقطة من دمه وان لا يستسلموا قطعياً بل يقاتلوا حتى الابادة .

لقد تداولوا الامر وانقسم الرأي الى قسمين فرجحوا في بداية الامر السبيل اي الاستسلام بقيد وشرط ولكن هذا السبيل لا يعلمون هل يقبله العدو الذي يفوقهم اضعافاً مضاعفة عدداً وعدة ام انه لا يقبل الا ان يستسلموا بدون قيد ولا شرط وبينما القوم يتداولون الرأي عند ذلك قفز واحد منهم وقال (فلنسلم جدلا ان ابن هذال قبل منا الاستسلام بعدما يسلب اسلحتنا من ايدينا وبعد ان يغتنم رواحلنا فما هو عذرنا الذي نعتذر به عند فتياتنا الحسان غداً فيما اذا اتينا قبيلتنا حفاة مجردين من ركائبنا ومن اسلحتنا ؟ ثم ما هو عذرنا الذي نعتذر به عند اميرة الجمال (ابن لامي) التي كل فتى منا يتمنى ان تمنحه لحظة بطرفي عينيها القاتلتين ..

---

(١) ابن هذال من بادية العراق

وما ان انتهى الفتى من كلمته هذه حتى استرد الفتيان شجاعتهم فصاحوا جميعاً يهتفون قائلين وبالاجماع : (وش عذرنا عند بن لامي) اي مرددين العبارة التي قالها ومعناه انهم قرروا ان لا يذعنوا لكلا السبيلين وانما يقاتل كل واحد منهم حتى النفس الاخير . وهكذا صمم الفتيان على هذه العزيمة .. وقد حاول ابن هذال ان يسيطر عليهم بكل ما يملك من القوة ولكنه ما استطاع فكل ما هجم فرسانه ثبت هؤلاء للهجوم حتى اوقفوا المهاجين عند حدهم بعدما ألحقوا بهم خسائر في الخيل والارواح .. واخيراً يئس ابن هذال من مطاردتهم وعادوا الى اهلهم بدون ان يستسلموا وقد انشد شاعرهم ثلاثة ابيات على وزن القصيد الهجيني فقال :

مَاعاد نِعطي ركايبنا   وِشْ عذرنا عند ابن لاميْ
بالخيل بانت مضَاربنا   لِعيون من نهدَها زَاميْ
والبيك ما عاد يْطلبنا   دُبْ الليَــالي والأيامِيْ

الشرح : يقول لن نستسلم للعدو فيكسب رواحلنا .. هكذا يعني في صدر البيت اما في عجز البيت فان الشاعر يأتي بالمعنى نفسه الذي كان باعثاً لقتالهم وعدم استسلامهم فيقول : عندما نستسلم للعدو ماذا نقول لاميرة الجمال المكناة بابن لامي .. وهذا لم يكن اسم الفتاة الحقيقي وانما اطلق هذا اللقب عليها والسبب ان هناك عقيداً من قادة وفرسان قبيلة مطير يسمى صاهود بن لامي وهذا العقيد له شهرة كبيرة ادخلت في قلوب اعدائه الرعب ولذلك كنيت هذه الفتاة بالفارس ابن لامي معناه ان جمالها يفتك بقلوب الفتيان كما يفتك الفارس ابن لامي باعدائه .

وليس غريباً ان نجد من لا يعرف الحادثة معرفة راسخة عن كثب يخيل اليه

للوهلة الاولى ان المقصود بابن لامي هو الفارس صاهود بن لامي لا الفتاة مع ان البيت الاخير يوضح المعنى ، وعندما ذكر الشاعر اسم البيك فالبيك معروف بانه المرحوم الشيخ فهد بن هذال فيكون الامر والحالة هذه واضحاً لان الذين يتاخمون قبيلة البيك ابن هذال قبيلة شمر لا قبيلة مطير .

وفي البيت الثاني يقول الشاعر : لقد قاومنا حتى اننا اصبنا فرسان العدو اصابة بينة محسوسة وفي عجز البيت يقول : لقد كانت شجاعتنا هذه كلها من اجل سواد عيون الفتاة ذات الثدي البارز .

وفي البيت الثالث يقول اننا لقنا البيك درساً يجعله لن يقرب لنا مدة حياته ويقصد بالبيك شيخ قبيلة الحبلان من عنزة المدعو فهد ابن هذال .

الفارس الذي حالفه التوفيق أينما حل

- ١٢ -

لعل القارىء يستغرب مني عندما اقول انني ادركت منذ سن الطفولة ان الشجاعة توفيق وشهرة اكثر منها تطبيقا عمليا ..

انها حقيقة واقعية ادركتها وشاهدتها طفلا كما شاهدتها رؤية العين رجلا .. وليس معنى ذلك انني اعني ان التوفيق والشهرة يغنيان عن الشجاعة .. كلاوانما اقصد ان الشجاع اذا لم يحـــالفه التوفيق وتؤازره الشهرة وذيوع الصيت الذي يرهب به الاعداء ويجعل له عند قومه مكانة محترمة فانه يفقد منزلته وحرمته بين مجتمعه حتى ولو كانت شجاعته تتجاوز الحد اما اذا حالف الشجاع التوفيق وناصره ذيوع الصيت فانه سوف يفرض هيبته على اعدائه كما يفرض حرمته على بني قومه ولو كانت شجاعته دون شهرته .

اما كيف ادركت معرفة هذه الظاهرة منذ كنت طفلا لا اتجـــاوز السنة الحادية عشرة من العمر فالقصة تأتي على النهـج التالي :

كان اطفال الاحياء في مسقط رأسي مدينة حائل اذا جاء يوم الجمعة بالذات يذهب ابناء الحي الشرقي مع ابناء الحي الغربي خارج سور المدينة فيتقاذفون بالحجارة فيظلون يتحاربون من قبيل صلاة الجمعة الى بعد العصر فيما اذا لم يأت رجال يفرقون بين الجانبين وكان الامر طبيعيا ان يكون بين المتحاربين من كلا الجانبين افذاذ بارزون يمتازون على غيرهم بشهرة الشجـــاعة .. وكنت أعتبر

نفسي واحدا من هؤلاء البارزين ولا سيما بعدما حالفني التوفيق في مناسبة ما وبعدما وجدتني اذا أقبلت على رفاقي وهم يتبادلون قذف الحجارة مع اندادهم تزداد معنويتهم ويتنادون «أبشروا جاء فلان» وفي الوقت ذاته يصيب خصومنا رعب بمجرد ما يسمعون رفاقنا يستبشرون بالقادم الجديد ، فكان الامر طبيعيا ان انخدع بهذه الظاهرة ، وان اعتبر كل من لا يشاركني بهذه الشهرة من زملائي هو دوني شجاعة ، ولكن سرعان ما جاءت احدى المناسبات التي جعلتني ادرك انني مخدوع بما كنت اتوهمه سابقا وان هناك من رفاقي الخاملين من هو يفوقني شجاعة واقداما بقدر ما افوقه توفيقا وشهرة بين صفوف الرفاق والخصوم على حد سواء ..

وكانت المناسبة التي عرفت بها هذه الحقيقة هي اننا في يوم ما من ايام الجمعة الذي نتبارز فيه . خطر على ذهني أن اقوم ونفر من رفاقي بعملية نطوق بها خصومنا ولا سيما وقد رأيت ان عدد الخصوم قليل وانه بالامكان تطويقهم فيما اذا وافقني الرأي رفاقي وشاركني بالقيام بهذه العملية عدد من خيرتهم ، وعندما قنعت بنجاح الخطة قلت للرفاق انني اريد ان اذهب لاطوق خصومنا من الخلف فمن منكم يذهب معي لتنفيذ هذه الفكرة ؟؟ فاجابني واحد منهم على الفور قائلا : انا وكان هذا الذي اجابني لا يزيد عني بالسن و لا ينقص ولكنني اعرفه كما يعرفه رفاقنا جميعا بأنه طفل عادي من حيث شجاعته واقدامه ، وكنت اريد ان يشاركني بمهمتي هذه غيره من الاطفال الذين لهم شهرة لا هذا الطفل العادي ولما لم اجد غيره .. ذهبنا سويا وكنا مضطرين لأن نتوارى عن اعين خصومنا وهذا يقضي ان نسير مسافة بعيدة المدى نتخطى بها جميع المساكن الكائنة جنوب البلاد وشرقها وفعلا قطعنا هذه المسافة البعيدة حتى وصلنا المكان الذي كنا عازمين على تنفيذ الخطة منه ولكن عندما جاءت ساعة التنفيذ وجدنا ان خصومنا زاد عددهم زيادة مضاعفة عما كانوا عليه من قبل كما رأينا انه جاء اليهم اطفال أكبر منا سنا فاصبحت العملية فاشلة فقلت

لصاحبي : من الخير ان نعود الى رفاقنا لاننا لا نستطيع ان ننفذ العملية بعدما زاد عدد خصومنا وبعد ما جاء اليهم فلان وفلان الذين يكبروننـــا سنا .. فأجابني صاحبي قائلا : من العيب ان نعود بدون ان ننفذ الخطة التي تعهدنا بها لرفاقنا .. قلت : كان ذلك ممكنا فيما لو لم يزدد عدد خصومنا ويأتيهم من هو اكبر منا .. قال : حتى ولو تضاعف عدد خصومنـا فانه بالامكان ان نهجم عليهم ونباغتهم بينما رفاقنا يهجمون عليهم من الامام . قلت : اذا فعلنا ذلك فمعناه اننا جئنا بمحض ارادتنا وسلمنا انفسنا لخصومنا . قال ! اذاً ماذا تريد ان نفعل ? .. قلت نعود الى رفاقنا من الطريق نفسه الذي جئنا منه .. قال : من العيب ان نعود مع طريقنا البعيد ونحن نرى رفاقنا قريبين منا وانما نهجم على خصومنا وبهجومنا نشق لنا طريقا على رفاقنا حتى نصلهم .. قلت وهذه ايضا مغامرة تعرضنا الى ان يأسرنا خصومنا ولا يمكن ان نقدم عليها .

وما ان انتهيت من كلمتي هذه حتى انحرف نحوي رفيقي قائلا : سوف امضي وحدي في طريقي (وانا أخوريا) قال هذه الكلمة ثم انطلق كالسهم شاقا صفوف خصومنا ، فلم يسعني بعد ذلك الا ان اتبعته لا بدافـــع الشجاعة ولكن كما ورد في المثل العربي القائل : (مرغم اخوك لا بطل) فشققنا صفوف خصومنا بدون ان ينالنا اي واحد منهم بسوء .

وهكذا تركنا رفاقنا وصاحبي تابع لارادتي وعدت تابعاً لارادته معترفا في قرارة نفسي ان رفيقي هذا وان يكن عاديا ليس له ادنى شيء مـن الشهرة التي كان لي منها النصيب الوافر ولكنه من حيث الحقيقة هو اشجع مني [1] ..

ومن تلك اللحظة اخذت درسا كافيا بأنه عندما نسمع بشجاع ذائع الصيت

---

(١) رفيقي المشار اليه هو المرحوم سعدون الفهد السعيد المتوفي عام ١٣٠٩ هـ وقد اثبتت الايام بعدما بلـغ سن الفتوه بأنه شجاع لا تلين له قناة ، ولكن شجاعته كانت بغير محلها كما ان همته وطموحه كانا دون شجاعته بكثير . رحمة الله عليه .

فليس معنى ذلك انه لم يكن بين قبيلته ان كان بدوياً من هو اكثر فروسية منه ولا بين جنوده ان كان حضرياً من هو اشجع منه ، لا ليس الامر كذلك بل قد نجد شجاعاً مغواراً لا يباري ولكنه ليس له شهرة الشجعان ولاهيبة الشجاع في قلوب اعدائه كما انه ليس له حرمة الشجاع عند اهله الادنين ..

هذا واني ارجو القارىء ان يغفر لي اسهابي في ذكريات الطفولة وما كان ينبغي ان أشير الى ذلك لولا امران: الامر الاول هو ان هذه القصة على بساطتها اعطتني درساً في الحياة على النهج الذي اشرت اليه آنفاً .

الامر الثاني : هو ان القصة التي سوف نضعها بين يدي القارىء تعطيناصورة ناطقة ومؤيدة لما اشرنا اليه ..

وقد رويتها من أحد فرسان الحادثة المرحوم هباس[1] بن هباس ، والجدير بالذكر ان بطل القصة هو الفارس المشهور ناصر بن سرحان العجمي الذي لازال على قيد الحيـــاة والذي لا يعتبر فارس قبيلته العجمان فحسب بل جدير به ان يقال عنه بأنه من بقية فرسان الجزيرة العربية .

في عام ١٣٣٨هـ الموافق ١٩٢٠ ذهب المرحوم سعود بن رشيد غازيا نواف بن شعلان الذي كان محتلاً المدينة الجوف[2] وكان غزاته في بداية الامركلهم من اهالي بلدته حائل وعندما طالت مدة الحرب بين الشعلان والرشيد عند ذلك استنجد الاخير بقبيلته شمر وكانت الحرب اولاً بين المشاة والمشاة اما بعدما جاءت قبيلة الغازي فلا بد ان تكون المعركة الان معركة فرسان لفرسان بالاضافة الى مشاة كلا الجانبين ، ولا بد ايضاً من ان تكون المعركة شديدة وفاصلة : لم يكن بين قبيلة شمر اي فارس غريب عن القبيلة اللهم الا ناصر بن سرحان العجمي ولم يكن ابن

١ ـ هباس بن من فرسان قبيلة شمر البارزين .
٢ ـ اي دومة الجندل .

سرحان من الفرسان المجهولين ، وحتى لو خفي امره على بعض فرسان شمر بصفتهم بأقصى شمال الجزيرة وابن سرحان بأقصى الجنوب.. لو خفي على هؤلاء لما خفي الفارس هباس بـــن هباس الذي قضى فترة من عمره في جنوب الجزيرة بجانب المرحوم الملك عبد العزيز . ولذلك كان كل ما يخشاه هباس هو انه عندما يدنو فرسان الجانبين بعضها من البعض الآخر ويكون كل منهم على اهبة الاستعداد للهجوم كان يخشى في تلك اللحظة ان يتولى زمام المبادرة الفارس بـن سرحان ومن ثم يتحين الفرصة المناسبة ويهجم على العدو بصورة مباغتة متقدماً لفرسان قبيله شمر ، فان نجا من هذه المغامرة التي لا بعدها مغامرة يكون وقتها ربح لنفسه ولرفاقه معاني عديدة :

اولا – بالنسبة له فانه سوف يكسب شهرة تطغى على جميع فرسان ابـن رشيد ، وهذه وحدها كافية لفــارس كابن سرحان ان يراها ربحاً معنويـــاً لا بعده ربح .

ثانيا – انه واثق بأنه عندما يكون الاول بهجومه فانه سوف يجعل فرسان ابن رشيد مرغمين على مشاركته الهجوم لا محالة اذ انه من المستحيل ان يتركوا رجلا ضيفاً عندهم فريسة للعدو ، فهو والحالة هذه واثق بأنه عندما يهجم سوف يضع فرسان شمر امـــام الامر الواقع لمشاركته الهجوم .

ثالثا – يعتقد انه عندما يباغت هو وفرسان شمر فرسان العـــدو وبهجوم موحد فانه ورفاقه سوف يربحون المعركة .

كانت هذه التقديرات التي يتصور (هباس) انها تختلج في فؤاد ابن سرحان هي عين الصواب فأضمرها هباس في نفسه ولم يسر بها الا لافذاذ من فرسان رفاقه مؤكداً لهم رأيه بما سوف يقوم به ابن سرحان ومحرضاً اياهم ان يفوتوا الفرصـة على الفارس الضيف مهما استطاعوا .

وتأكيدا لذلك يحسن بي ان اوافي القارىء بما نقلته عن المرحوم هباس بهذا الصدد لقد روى لي هباس هذه الحادثة اكثر من مرة على الشكل الآتي :يقول: في اللحظة التي حشد بها العدو فرسانه وحشدنا نحن فرسانا وكانت المسافة التي بيننا وبين العدو قريبة للغاية ولم يكن بيننا وبينه الا جبل منخفض يقول : ففي تلك اللحظة كنت أترقب حركات الفارس ابن سرحان وتصرفاته بصورة لا تقل عن مراقبتي لمباغتة العدو لنا .. ويؤكد الراوي بأنه وجد حركات الضيف وتحمسه (ونخاويه) واقباله وادباره فوق جواده تارة يذهب لميسرة الفرسان يستحثهم ويشجعهم وتارة اخرى يذهب الى ميمنتهم متوشحا بكامل سلاحه وكل شعرة في شاربه وفي رأسه المكشوف واقفة كالرمح فاتحا فاه كأنه اسد يريد أن يثب على فريسته : يقول هباس في هذه اللحظة ادركت ان كل ما كنت اظنه بالرجل سيصبح الآن حقيقة واقعية ، وانني اذا لم افوت عليه الفرصة الآن فانه سوف يهمز جواده بقدمه ويهجم على العدو وسيرغمنا ضيفنا على اقتفاء اثره وعندئذ سيقول لسان حاله بل سوف يتحدث الرواة والتاريخ بأن الذي تقدم فرسان قبيلة شمر وارغمهم على الهجوم وكان العامل الأول بهزيمتهم لعدوهم ليس الا الفارس العجمي ناصر بن سرحان وسوف تكون حقيقة تاريخية لا نستطيع جحودها وانكارها وهنا استدرك هباس :

وقال : ما علي الآن الا ان ابذل اقصي ما لدي من الوسائل التي تفوت عليه الفرصة : ولذلك صحت بأعلى صوتي قائلا : يا ناصر انظر فرسان الميسرة من قومنا متراخين اذهب استحثهم ويمضي هباس بحديثه فيقول : وحالما ذهب الفارس الضيف الى الميسرة ليقوم بتنفيذه للخطة صحت برفاقي الفرسان ناخيالهم فهجمت كما شاركني بالهجوم كل من الفرسان الآتية اسماءهم فهاد بن مصطح دعيبع : سلامه السبيعي وفارس (نسيت او تناسيت اسمه) .. ويصور لنا هباس الصدمة التي فوجيء بها ابن سرحان عندما سبقه الفرسان على خطته التي رسمها ولم يشعر بالحيلة حتى كساه غبار خيل الفرسان المغاوير عند ذلك يقول

هباس صرخ صرخة عنيفة كان لها دوي مفجع ..

ولكن بالرغم من ان هذا الفارس الذي حاول ان ينهب المجد من مضيفيه لنفسه حتى فعل مضيفوه اقصى ما لديهم من الحيلة لكي لا يأتي اليهم شخص بمفرده وينهب منهم اغلى شيء يعتزون به وهم عصبة كثيرو العدد والعدة ، وبالرغم من انه لم يهجم الا بعدما سبقه خمسة من الفرسان وبعدما كان هجومه لا يعدو الا ان يكون كفارس عادي من جملة العدد الذي لا يحصى من فرسان القوم الذين اقتفوا اثر الفرسان الخمسة الاوائل. بالرغم من هذا كله نجد ان هذا الفارس لم يخنه الجد بل كان التوفيق حليفا له من عدة وجوه :

اولا : انه نجا بنفسه وبجواده من المصير الذي واجهه الفرسان الخمسه اولئك الذين كانوا طليعة الفرسان المهاجمين فقد لقي كل فرد منهم نصيبه من سلاح العدو فاما هباس فقد اصيب برصاصة خرقت ساقه وقتلت فرسه واما فهد ابن مصطح فقد لقي حتفه واما السبيعي ودعيع فقد اصيب كل منهما بجراح خفيفة واما الفارس الاخير فقد قتلت فرسه كما اصيب بجرح بيده اليسرى السليمة لان يمينه كانت مصابة برصاصة قبل هذه المعركة فاصبح الآن مشلولا .

ثانيا ـ انه لم يعدم من كونه كسب شهرة وغنيمة معا لم يكسبها اي واحد من فرسان ابن رشيد قاطبة بما في ذلك الفرسان الخمسه الذين تولوا زمام المبادرة بهجومهم على العدو وقصة هذه الشهرة والغنيمة تأتي كما يلي :

ثمة فارس يدعى (منديل) شقيق الفارس دعيع سالف الذكر احد الفرسان الخمسة فمنديل هذا ذهب غاضبا على اميره ابن رشيد والتف حول عدوه الشيخ نواف بن شعلان الذي لقي منه كل اكرام وتقدير وعندما وقعت الحرب بين ابن شعلان وابن رشيد كان منديل بمقدمة فرسان ابن شعلان بقدر ما كان شقيقه دعيع بمقدمة فرسان ابن رشيد .. وكان دعيع واثقا بأن اخاه سيكون في مقدمة فرسان ابن شعلان في حالة الطراد والكر المتبادل وكان لا يهمه ان يقتل

اخوه في المعركة بيد اي واحد من قومه كما يهمه ان يقتل بيد الفـــارس ابن سرحان الاجنبي ولذلك يقال ان دعيعا نبه ابن سرحان لهذه الناحية مؤكدا له ان اخاه يحارب بجانب العدو وانه اذا وقع بيده كأسير يحرص بـــألا يقتله ولكن ابن سرحان اولا انه لا يعرف اخا دعيع شخصيا ..

ثانيا : ان اللحظة التي يحسب لها دعيع بوقوع اخيه اسيرا بيد ابن سرحان سوف تكون لحظة حاسمة لا يستطيع ابن سرحان ان يسيطر فيها على اعصابه وانفعالاته النفسية .

وحينما التقى فرسان الرشيد والشعلان وجها لوجه كان منديل في مقدمة فرسان الشعلان وعندما احاط الفرسان الاولون بالآخرين وهزموهم كان منديل الفارس الاول الذي احاطت به فرسان الرشيد فعرفه احد الفرسان الخمسة وهو الذي لم اذكر اسمه فتركه وشأنه فأتى بعد ذلك بصورة مباشرة الفارس ابن سرحان الذي لا يعرف منديلا وصوب بندقيته اليه فصاح الفارس الاول الذي عرفـــه قائلا : (انه منديل يا ناصر) فيتذكر وقتهـــا ناصر وصية دعيع بأخيه فجأة به يقوده اسيرا مغتنما فرسه والعرف السائد يقضي بأن اغتنام الفرس يعتبر نصرا كبيرا للفارس المغتنم ويسمو على اية غنيمة . من الناحية المعنوية على اعتبار ان مجرد غنيمة الفارس للجواد دليل قاطع على الذي استطاع ان يغتنم فرسا من الاعداء فمعناه انه نازل صاحب هذا الجواد وجها لوجه أوانه تغلب عليه بالأسر او بالقتل فعندها سوف ترتفع اسهم الفارس بين قومه من الناحية الاجتماعية والمعنوية بالاضافة الى ان الفرس من الناحية المادية ثمينة في ذلك الوقت وهذا كله يعود على ما لدى هذا الفارس من توفيق في الحروب .

والأمر الثالث الذي بنظري انه اهم من جميع ما ذكرناه هو ان المرحوم الفارس هباس ورفاقه الاربعة استطاعوا ان يحرموا ابن سرحـــان من تقدمه عليهم وتمكنوا عن طريق الخدعة ان يجعلوا من ابن سرحان فارسا من الدرجة

الثانية فيما اذا اعتبرنا ان اصحاب الامتياز الأول هم الخمسة طليعـــة الفرسان الزاحفين وهذه حقيقة لا يسعنا الا الاعتراف بها من الناحية الواقعية .

ولكننا اذا تدبرنا القصة بامعان ودرسناها بعمق واضفنا الى ذلك شهادة الفارس هباس الذي شهد من نفسه على نفسه بأن الذي حفزه هو ورفاقة على تلك المغامرة هو الخوف من ان يتقدمهم ابن سرحان : اقول : اذا تدبرنا هذه المعاني بوعي وانصاف فاننا سوف نعتبر وجود الفارس ابن سرحان من الناحية التاريخية في تلك المعركة من أهم العوامل التي حفزت اولئك الفرسان الطليعة الذين سجلوا بمغامرتهم نصرا باهرا على عدوهم .

فتكة فارس عربي ارهبت المعسكر التركي

١٣

شئت ان اضع عنوان هذه القصة على الو جه الآتي : (الفارس الذي انقـذ الموقف) وانما بدلته بالاسم الذي وضعته اعلاه لان العنوان الذي اعرضت عنه وان كان منسجماً مع واقع القصة ولكن اصبحت العناوين المشابهة له في هـذا السفر كثيرة ..

وقصتنا هذه حدثت عام ١٣٠٩ هـ بالضبط لانني رويتها عن المرحوم سلمان ابن رشدا ن الذي ورد اسمه في هذا الكتاب اكثر من مرة وكان الراوي شاهد عيان للحادثة التي جاءت كما يلي :

كانت (دومة الجندل) المسماة الآن الجوف تحت نفوذ الامارة الرشيدية وكان اهلها دائماً وابداً يحبون الاستقلال والتمرد على الحاكم الا انهم مبتلون بعاهة من اكبر العاهات التي تحول دون امنيتهم التي تشغل بال كل واحد منهم وهي عاهة التفرقة وعدم اذعان بعضهم لبعض.. وهذه البلية اذا أصيبت بها امة او جماعة فلن تقوم لها قائمة مهما بلغ امرها من كثرة العدد والعدة .

وأهل الجوف كثيرو الشبه ببعض من اهل البلاد العربية التي كما يقـال عنهم (بانهم قوم لا يريدون ان يحكمهم أحد من غير بلادهـم ولا يستطيعون ان ان يحكموا انفسهم بانفسهم) وهكذا اهل الجوف رجـال يتمتعون بكل معنى من معاني الشجاعة والاباء والشهامة وشموخ الانف وعدم احتمال الضيم ، ولكن

شيئاً واحداً ينقصهم الا وهو كما اسلفنا الاتحاد ..

وفي التاريخ المشار اليه اعلاه اي عام ١٣٠٩ هـ ضاق اهل الجوف ذرعاً بحاكم بلادهم امير حائل محمد العبد الله، ولكنهم وجدوا انفسهم اضعف من ان يتمردوا عليه ويتحدوا قوته التي لاطاقة لهم بمقاومتها ، فقدروا وفكروا بالامر، فوجدوا ان خير وسيلة يتخلصون بها من أمير حائل هي ان يذهبوا للحكومة التركية ليطلبوا حمايتها ، مفضلين حكم الاتراك من ان يكونوا تابعين لابن رشيد الذي وان كان عربيا ومنهم وفيهم ، ولكنه من اهل حائل ، وبحكم النعرة الاقليمية والقبلية الضاربة اطنابها خاصة في ذلك العهد ، يرى أهل الجوف انهم عندما يكونون تحت نفوذ الحكم التركي خير لهم من ان يكونوا تحت نفوذ محمد العبد الله الرشيد ولا سيا والحكومة التركية في ذلك العهد كانت باسطة سلطانها على أغلبية البلاد العربية كسورية والعراق واليمن والحجاز والاحساء الخ ..

ولا يحتاج الجوفيون الى كثير من العناء عندما قرروا تنفيذ فكرتهم هذه ، فكل ما في الامر هو ان ذهب نخبة من كبارهم الى والي السلطان عبد الحميد في دمشق يطلبون منه حمايتهم من حاكمهم ..

وطبيعة الحال تجعل السلطان التركي يلبي هذا الطلب بانشراح صدر وطيبة نفس ..

وعلى الفور بعث السلطان فيلقاً من عساكره بقيادة االلواء محمد سعيد باشا ..

وما ان بلغ الامير ابن رشيد هذا النبأ حتى شعر ان امارته مهددة بالاحتلال التركي بحكم قرب الجوف من عاصمة بلاده حائل، ولا عجب فيما اذا كان لهذا الخبر وقع في نفسه كوقوع الصاعقة .. ولذلك لم يتأخر قطعياً من ان جهز جيشاً عرمرماً وقد كان راوي القصة ابن رشدان ضمن اولئك الجنود الذين قال هذا

الراوي نفسه ان عدد الخيالة اي الفرسان يبلغ الف فارس والعادة المتبعة هي انه في حالة كهذه يبلغ بها عدد الفرسان مثل ذلك العدد فان عـدد الهجانة راكبي النجائب غالباً ما يكون ثلاثة اضعاف هذا العدد ..

حرب الاعصاب :

لم يقصد محمد محاربة جيش الاتراك الذي عسكر في ربوع الجوف فهذا شيء لا يطيق احتماله ، وبالتالي سوف يقوده الى مالا تحمد عقباه ، وانمـا اراد ان يستعمل مع القائد التركي ما استطاع من الحكمة والعقل ، فان افاد معه هـذا الاسلوب فبها ، والا فسوف يستعمل معه حرب الاعصاب ..

سار الامير بجيشه اللجب من حائل قاصداً الجوف في الحين الذي كان القائد التركي قد وصل الجوف وبنى خيام معسكره خارجاً عن البلد ، وبعد بضعة ايام وصل الامير محمد الجوف وبنى معسكره هو الآخر بقرب معسكر القائد التركي بعدما بعث اليه رسولا من عنده يخبره بأنه لم يأت من اجل ان يحارب أهل الجوف الذين اصبحوا بعهدة وحماية السلطان وانما جاء ليتفاهم مع القائد اللواء محمد سعيد ويطلب منه تعيين الزمان والمكان اللذين يعينهما القائد للاجتماع ..

فكر القائد التركي في الامر ، بدون ان يتخذ قراره النهائي في الموضوع ، ثم بعد ذلك بعث رسالة لسميه العربي تتضمن كلمـة موجزة سلبية خلاصتها (سوف ننظر في الامر) ثم ذهب بعد ذلك يستعرض جنوده ويدربهم بقصد ان يقوم هو الآخر بحرب الاعصاب .. فكأن المحمدين العربي والتركي يريد كل منهما ان يغلب صاحبه بحرب الاعصاب ، فالقضية اصبحت من الناحية العملية الى حرب النفس والاعصاب وسعة الحيلة واتقان المكر أقرب منها الى اصطدام الجيشين ..

الحكم الفاصل .

كان الامير يقوم ايضاً بالدور التمثيلي نفسه الذي يقوم به التركي ، حيث أمر فرسانه ان يقوموا بعرضة الفرسان ، وهـــذه العرضة عبارة عن قيام الفرسان بطراد سلبي بعضهم يطرد بعضاً ومعناه التدريب على الحرب العملية ، وبعـد ان قام فرسان الخيل بالاستعراض قام بعدهم فرسان الجيش اي الهجانة ثم بعد ذلك جاءت عرضة المشاةالتي يدق فيها الطبول وينشد رجالها القصائد الشعبية الحماسية وهذه الاخيرة وان كان منظر الفرسان مثيراً ومهيبا فان تأثـــير عرضة المشاة يثير الحماس والرعب بصورة لا تقل عن عرضه فرسان الخيل والهجانة. لقد كان منظر فرسان وهجانة ومشاة محمد العربي كافياً ان يدخل الرعب في قلب محمـد التركي كان الاول ابرع بالتمثيل او بالاصح كان لديه من كـــثرة عدد الفرسان والجنود ما مكنه ان يكون اقدر عمليا بالتمثيل من سميه ..

لم يعد محمد العربي يطلب الاجتماع ثانية بل ترك الامر بيد سميه التركي ، وهذا الاخير بعدما رأت عيناه منظر الاستعراض المهيب اصبح أشد حرصاً على الاجتماع من سميه ، الامر الذي جعله يسرع بانتداب وفد من عنده مؤكدا به موافقته على الاجتماع تاركا اختيار الزمان والمكان للعربي ..

ومن هنا شعر الامير العربي ان هذه المبادرة من سميـــه التركي هي بداية الانتصار ولذلك وافق على ان يكون الاجتماع من حيث المكان في موقع يكون في المكان الفاصل بين المعسكر التركي والمعسكر العربي بحيث لا يزيـــد شبرا بقربه او بعده عن هذا وذاك ، وان يكون من حيث الزمان بعد الغد ضحي..

عاد الرسول التركي يحمل رسالة العربي المتضمنة تعيين الزمان والمكان ، ولم يتردد التركي عن موافقته عـــلى ما تحتويه الرسالة حيث بعث رسوله ثانية الى الامير العربي يؤكد فيها موافقته..

فبادر الامير بارسال نفر من رجاله لينصبوا خيمة بين المعسكرين وما ان جاء الموعد المعين حتى جاء القائد التركي ممتطياً صهوة حصانه يصحبه فارس من جنوده، كما جاء الامير العربي بصورة مماثلة ، فدخل العربي من باب الخيمة الشرقي كما دخل التركي من بابها الغربي وكان القائد التركي يتقن العربية ، فتبادلا التحية الروتينية، ويؤكد لنا الراوي سلمان بن رشدان الذي شاهد وقائع هذه المناورات ورافق الحادثه من بدايتها الى نهايتها بأن زمام المبادرة قد اعطي للأمير الذي استهل حديثه مع القائد التركي بما معناه :

— ان جيشه هذا ليس الا جزءاً لا يتجزأ من جيش السلطان خليفة المسلمين وانه كأمير ملزم بتنفيذ اوامر الباب العالي ثم استطرد وقال : ان كل خلاف يقع بيننا يفرضه تحريض الرعاع كبعض رؤساء قبائل[1] البادية وأهل الجوف الجهلة فانه سيؤدي الى حرب خاسرة بالنسبة لك انت بالذات ، لانني على ثقة بأن جنودك لا قبل لهم برجالي الذين كل فارس منهم يتمنى لو يرى مني ادنى اشارة ليهجم بها على بلدة الجوف وليسحقوا اية قوة تقف امامهم .. ثم استطرد الامير العربي بقوله : فوالله انني لم آت من عندهم حتى اصدرت اوامري المشددة بأن لا يقوم احدهم بأي عمل استفزازي لا من بعيد ولا من قريب .. قال هذه الكلمة محمد العربي ثم وجه سؤاله التالي الى محمد التركي قائلا :

— عسى ان يكون حضرة القائد. اصدر اوامره الى جنوده كما اصدرت اوامري بهذا الشان ؟ .. فتجاهل القائد التركي استفهام الامير العربي فقال :

— لم افهم ماذا تعني ؟ .. قال محمد العربي :

— كيف لم تفهم عبارتي الأخيرة وانت كما يبدو لي تجيد نطق العربية وتفهمها .. فأجابه التركي :

---

١ ـ يقصد بذلك بـدويا من رؤساء قبيلة بني صخر بادية الاردن حالياً يدعى قمعان كان من لمشجعين لاهل الجوف بتمردهم وطلبهم حماية الدولة التركية ..

ـ ولكن عباراتك الاخيرة لم أفهمها كما يجب فيمكن ان تعيدها لاستوعبها .. قال العربي :

ـ انني اكره تكرار الكلام ، فبادره التركي بلغة فيها شيء من التراجع فقال :

ـ لا أريد ان تعيد كل كلمة قلتها وانما اريد ان تعيد الجملة الاخيرة ولو بصورة موجزة ..

فقال العربي :

ـ لما كنت اعرف رجالي بأنهم حريصون جدا على منازلة الاعداء فقد اكدت عليهم بأن لا يعتدي احد منهم على رجالك لكي لا يقع الشيء الذي لا تحمد عقباه .. ثم مضى وبدل لهجته الاولى فقال :

ـ واعتقد ان حضرة القائد من صالحه أن يكون اتخذ مع جنوده نفس التدابير التي اتخذتها مع رجالي ..

فقال التركي :

ـ ان جنودي منظمون وليسوا بحاجة الى شيء من ذلك ..

السيف أصدق انباء من الكتب !!

وقبل ان ينتهي القائد التركي من كلمته هذه انطلق فارس من معسكره وراح متجها نحو المعسكر العربي هامزا جواده بعنف ملوحا ببندقيته ، حتى اذا وصل الفرسان العرب اطلق عدة عيارات نارية من بندقيته، دون ان يصيب أحدا منهم ثم عاد مزهوا بما ابداه من شجاعة تحدى بها اربعين الف مقاتل من

كانت هذه العملية بمثابة خرق للهدنة ، وكان الامير قداتخذ اجراءاتمسبقة مؤكدا بها على رجاله بأن يلتزموا الصبر وان لا يقوم احد منهم بأي عمل من شأنه ان يؤدي الى وقوع اصطدام بينه وبين الاتراك ، وكان قد وكل رجـــالا رقباء مهمتهم ان يحرسوا فرسانه من قيامهم باعمال عدوانية ، مؤكدا لرجاله الذين يتولون مهمة الرقابة بأن يقهروا فرسانه عن المقاومة حتى ولو تحرش بهم فرسان العدو باعمال استفزازية فيجب ان يضبطوا اعصابهم ، ومن لم يذعن لذلك فعلى الرقباء ان يتخذوا نحوه اشد العقوبات تأديبا ..

كان هجوم الفارس التركي استفزازا صارخا للفرسان العرب مما اثار ثائرتهم جميعاً فهاجوا وغضبوا وحاولوا ان يخرقوا الهدنة ، ويفتكوا بالفارس التركي الذي تحدى رجولتهم ولكنهم عندما ذكروا تعليمات اميرهم التي تقضي بأن يملكوا السيطرة على اعصابهم في حالة استفزاز يقوم به مغامر مهووس كهـــذا الفارس التركي ، عند ذلك تراجعوا وهدأوا ، كما ان جنود الامير الرقباء كانوا على أهبة الاستعداد ممتطين صهوات خيلهم متوشحين بأسلحتهم الكاملة آخذين جميع الاحتياطات اللازمة واقفين بالمرصاد والحراسة لكف وزجر اي فارس يحاول القيام بأعمال المقاومة حتى ولو كان الامر دفاعا عن النفس ..

وبينما الامير العربي والقائد التركي قد قطعا صلة الحديث الذي كان جـــاريا بينهما ، وفي تلك اللحظة كان العربي ينظر الى التركي بعينين يتطاير منهمـــا الشرر على استهتار جنوده بفرسانه وهو القائل من ثوان قليلة : (ان جنوده منظمون) أي لا يقومون بأي عمل الا بأمر منه .

وبينما القائد التركي يتعمد ان يتجاهل ما قام به جنديه وهو في هذه اللحظة ذاتها يشع من عينيه اكثر من معنى من معانى المكر بصورة يظهر بها دهشته

وأسفه على ما قام به جنوده من اعمال طـــائشة ، بينما ادلة الزهو والاعتزاز بتحدي جنديه لفرسان العرب كانت بادية على محياه وتلوح من طرف خفي على وجهه العبوس الصارم ..

وبينـــما فرسان الامير يشعرون ان كرامتهم أهينت وحرمتهم كفرسان بواسل انتهكت بتحدي ذلك الفارس الجندي الذي افرغ ها في بندقيته من عبارات نارية على رؤوس اربعين الف مقاتل ، بينهم آلف فارس ، ثم قفل راجعا مزهوا بتحديه للأسد في قلب غاباتها دون ان يتجاسر احد على منازلته ..

في خضم هذه الاحداث المتضاربة وفي تلك اللحظة الحاسمة امتطى جواده الفاتك المشهور المغوار راضي بن جدى [1] وانقض على الفارس التركي كالسهم وبسرعة مذهلة لحق به وهو على مقربة من معسكره فضربه بحســـامه ضربة قسمته نصفين من صلبه وما فوق سقط على الارض وما بقي ظـــل على صهوة فرسه .. فدخلت جواده الى معسكر الاتراك حاملة من فارسها رجليه اليمين والشمال المتشبثتين بالركاب ، وما تبقى من جثمانه الذي لصق على سرج جواده وكان منظرا كافيا ان يدخل في معسكر الاتراك وقائدهم الذي شاهد الرواية الرعب والفزع اما الفتى الفارس ابن جدى بعدما قام بعمليته هذه الذي تحدى بها تعاليم أميره كما تحدى بها الفيلق التركي فقد عاد الى معسكره غير مبال بكل ما يتخذ نحوه من عقاب بعد ان انقذ شرف قومه من الاهانة ..

رضوخ واذعان

بعد قيام ابن جدى بهذه الفتكة النادرة عاد محمد العربي الى مواصلة الحديث بنفس قوية وارادة فولاذية متظاهراً بأسفه على ما جرى من فارسه الذي اعتبره

---

(١) . راضي بن جدى من قبيلة شمر نجد ومن عشيرة عبده ومن فخذ يسمى بالمفضـــل واسرته تسمى بالجدي يقطنون شمالي الجزيرة العربية ..

رد فعل معاكس على ما قام بـه الفارس التركي ، بينما هو في الحقيقة يخفي في طيات نفسه سروراً لا يعاد له أي سرور ، كيف لا وهذه علامات الانهيـــار والاستسلام بدأت واضحة المعالم على محيا القائد التركي .. وقد تبدل ذلك الوجه الاشقر الدموي الصارم بلون اصفر باهت ولم يكن بوسعه الآن وبعد مشاهدتـه لمصرع جنديه الفارس الذي ربما كان افرس ضباط فيلقه بعد ذلك لم يسعه الا ان يستسلم للامر الواقع ويقبل بكل ما يمليه عليه سميه ..

وكانت النتيجة هي ان طلب القائد التركي من الامير العربي مدة محدودة لكي تعطيه مجالاً يستر بها هزيمته امام الرأي العام من ناحية ومن ناحية اخرى يتمكن بها من ان يقوم بعملية حرب اعصاب لاهل الجوف الذين طلبوا من السلطان التركي ان يتولى حمايتهم ..

وكانت العملية التي دبرها القائد التركي الداهيـة تجعل اهل الجوف يتنازلون مرغمين عن طلبهم الحماية التركية بطلب منهم وبوثيقة رسمية يقدمونها لكي تكون حجة عليهم وشاهدة له عند الباب العالي .

وملخص هذه الحيلة التي ابرمها الباشا التركي هي ان فرض على كل رجل من أهل الجوف مبالغ باهظة ليدفعوها كضريبة منهم مقابل حمايتهم ، وكان التركي على يقين من العلم بـأن أهل الجوف ليس لديهم من القدرة المادية مـا يمكنهم من دفع هذه الضريبة .. وكانت خطته ترمي بأنه في حالة رفض اهل الجوف لدفع الضريبة عند ذلك يطلب منهم ان يقدموا وثيقة يوقعها جميع اعيانهم معلنين فيها تنازلهم عن طلب حماية الدولة التركية لهم ..

وقد نجح الباشا بخطته هذه وذلك ان أهل الجوف ابدوا سخطاً واستياء من طلب القائد التركي لهم بدفع الضريبة لعدة أمور :

اولا – انهم لم يألفوا قط على دفع الضرائب .

ثانيا – ان وضعهم الاقتصادي اعجز من يخولهم بدفع تلك المبالغ الباهظة التي لا طاقة لهم باحتمالها قطعياً فكانت النهاية ان اصروا بعدم دفعهم للضريبة المطلوبة منهم ..

وعندها طلب منهم القائد التركي ان ينفذوا له الحيلة التي كان يدخرها في حالة رفضهم وهي رغبته بتقديم وثيقة يثبتون فيها تنازلهم عن طلبهم لحماية الدولة ... وهذا يعني رجوعهم مرغمين ومذعنين لزعامة الامير محمد العربي وتخلي القائد محمد التركي نهائياً عنهم .

ولما لم يجد اهل الجوف بدأ من اختيار اهون الشرين فقد اختاروا ان يعودوا مكرهين الى زعامة اميرهم القديم محمد العربي وان يقدموا وثيقة بتوقيعهم جميعاً معلنين بها تنازلهم عن طلبهم السابق الرامي الى رغبتهم بحماية الدولة التركية لهم ، فاستلم الباشا التركي هذه الوثيقة ، وقفل بفيلقه عائداً الى بلاده ..

وهكذا اثمرت مغامرة هذا الفارس العربي ، ونستطيع ان نقول ان الفضل كل الفضل يعود للفارس ابن جدي الذي بشجاعته وغيرته بدل الموقف وأرهب المعسكر التركي وقائده مما جعل أميره يفرض ارادته على الباشا التركي ويضطره الى الجلاء عن الارض العربية .

هذا وقد دخل الامير محمد العربي الجوف بعد ما جلا عنها الباشا محمد التركي واختار الامير محمد نخبة من رجاله ليكونوا سرية بالجوف بقيادة جوهر العنبر وكان سلمان بن رشدان الذي روى لنا هذه القصة كشاهد عيان واحداً من بين تلك السرية .. وكانت القاعدة المألوفة تقضي بأن تبقى السرية عاماً كاملاً ثم بعد ذلك تبدل بمثلها من رجال الامير انفسهم ، ولما كانت المدة التي يقضيها المرء من رجال هذه السرية طويلة ، مما يجعله بشوق وحنين الى أهله فإنه من بدهيات

الامور بأن تجود قريحة صاحبنا راوي الحادثة الشيخ سلمان بن رشدان رحمه الله بقصيدته الشعبية التي يطيب لي ان اورد بعضاً من ابيات الشاعر كقوله :

أخيْل وانا قَاعدٍ بابرْق الجوفْ برق تلالا شاق عيني شعوَقهْ
اخيل برقد من ركان الى نوف عزكْ على مَنزلْ ربوعي حَقوقَهْ
عَساه وسمٍ ويتبع الوسمْ بصيوفْ حتى هَشيمَ القَاعْ تنبِتْ عروقَهْ
ودّى بِشربة مَاطرهْ مَار مكْتوف تكتيف طيرِ خادمين سُبوقَهْ

* * *

الشرح : يقوّل الشاعر في البيت الاول : انني عندمـــا كنت في ارض بلدة الجوف رأيت بَرقا يضيء ويتلألأ فابتهج صدري لوميض هذا البرق .

وفي البيت الثاني يقول : انني اتوقع ان يكون هذا البرق وتلــك السحب الدافقة بين جبلي ركان ونوف وهما اللذان سبق ذكرهمـــا ويقول عزك اي كما ذكرنا تمجيدا لقدرة الله وعزته سائلا الشاعر المولى ان يكون هذا البرق وتلك السحب منهمرة على بلاده .

وفي البيت الثالث يقول ارجو ان يكون هذا المطر مدرارا متصلا في جميع فصول السنة الاربعة ..

---

(١) ابرق الجوف : اي الارض البيضاء التي هي أرض بلدة الجوف ..
(٢) شاق عيني : اي ابتهجت عيني برؤيته ..
(٣) اركان جبل يقع شمالا عن جبلي طي ..
(٤) نوف هو ايضا جبل يقع شرقا عن جبلي طي .
(٥) عزك هذه الكلمة مصطلح عليها يقولها الشعبيون اذا رأوا وميض البرق معناها جلت قدرة الله .

وفي البيت الرابع يوضح لنا الشاعر صورة عن وضعة الراهن فيقول : كم كنت اتمنى بأن اكون في بلادي يقصد (حائل) وانما اجدني مقيداعاجزا عن الذهاب حتى يتم العام الكامل ، ثم يصف المدة التي ارغم ببقائه حتي تنتهي كما يصف ما يعانيه من قلق نفسي فيقول اني اشبه ما اكون بالصقر الحر عندما يصيده الصياد بشبكته ، ومن ثم يضع فيه قيدا يجعله عاجزا عن الطيران .

الحياء عنوان الرجولة

- ١٤ -

هذه القصة وقعت في عام١٣٣٢ هـ ، ومن معاني قصتنا هذه يستطيع القارئ بأن يعرف بأن مصدر الاخلاق المثلى هو الحياء ومن لم يكن فيه حياء فلا يرجى منه أي خير . وفي الحديث الشريف قوله : (ص) الحياء شعبة من الايمان .

ومن يكن في خلقه الحياء فانه وان بدر منه شيء يتنافى والاخلاق المثلى عن سهو أو عن عمد فانه سوف يندم حتما على ما وقع منه ويعود الى خلقه الاصيل الذي هو الحياء ولكن اذا كان المرء معدوما من الحياء فانه لا يرجى منه ان يكون فيه خير حتى ولو بدى منه علامات تدل وهما على طيبته ..

وقد ادرك هذه الظاهرة فارس من اشهر فرسان قبيلة الظفير يدعى « علي بن ضويحي بن صويط » وذلك في عملية الامتحان التي امتحن فيها فتيين من فتيان قبيلته ..

* * *

وقعت معركة عنيفة بين قبيلة الظفير التي يرأسها علي ابن ضوحي وبين احدى القبائل التي لم يردني اسمها وطالت المعركة وحمي الوطيس حتى كان القتال بين الجانبين بالسلاح الابيض ويقول الرواة انها كانت معركة من أشد المعارك هولا فلم يثبت بها الا رابط الجأش من قوم علي ، اما ضعفاء العزيمة فقد لاذوا بالفرار ،

وكان من بين الذين جبنوا عن لقاء العـــدو فتيان كانا في شرخ شبابهما وينحدر كلاهما من اسرة عريقة بمجدها وفي شجاعة رجالها الامر الذي جعل عـــلي بن ضوحي يهتم كثيراً في شأن هذين الفتيين فراح يفكر في العمل الذي من شأنه ان يخلق في نفس هذين الشابين الشجاعة وشحذ شعلة الطموح ..

فذهب بادىء ذي بدء يأمر شخصاً ينادي جميع رجال قبيلته رجالا ونساء شيوخاً واطفالا ، كل هؤلاء امر أن يحضروا في مكان اعده لاجتماعهم ، فما كان من المدعوين الا ان لبوا نداء أميرهم وعندما اجتمعوا كلهم قـــام ونادى الفتيين اللذين فرا من المعركة وعندما اقتربا منه صاح بهما قائـــلا : ان حياتكما اصبحت عاراً وخزياً لاعلى اسرتكما فحسب بل على جميع القبيلة التي تنتمـــون اليها وانني احذر فتيات قبيلتنا ان ينكحهن واحد منكما لئلا ينجبن أبناء جبناء من نوعكما ومضى ابن صويط يسترسل في كلامه اللاذع الذي هـــو اشد من وقع السيف الى ان قال :

– وابتداء من الآن فصاعدا سوف نحكم عليكما بأنكما في عالم الاموات ، ثم أردف قائلا : اجل ان المرء اذا ضعفت همته وجبن عن لقاء العدو وهـــو شاب فانه اذا بلغ سن الكهولة سيكون اضعف وانذل . وهو بهذا المعنى يشير الى ماعبر عنه الشاعر العربي بقوله :

اذا المرء اعيته المروءة ناشئـــاً فادراكهـــا كهلا عليه عسير

بعد ان وبخ علي الفتيين نادى نفراً من رجاله وقال :

– أحضروا قبرين متقاربين واعتبروا ان هذين القبرين لهذين الفتيين الجبانين وضعوا حجراً على قبر كل منهما واكتبوا عليه هذا (قبر فلان الجبان لا رحمه الله عليه) ..

حفر الرجال القبرين وفعلوا كل ما اوصاهم به اميرهم وبعــــد ذلك اتجه نحو نساء القبيلة فنادى الفتيات الكواعب الحسان اللائي لهن صلة نسب ورحم بالفتيين كاخواتهما وبنات عمهما وعند ذلك قال :

ـ ان هذين الفتيين يجب ان تسقطانهما من حسابكن وان تعتبرنهما من اموات الاحياء وان تندبن عليهما ، فقامت الفتيات يندبن على الفتيين حسب ما امرهن به رئيس القبيلة وينحن كما لو كانا ميتين ..

وبعد ذلك تفرق الحفل وكل ذهب الى أهله ، اما الفتيان فقــد ذهبا بشعور متباين ومختلف بعضهما عن بعض ، بقدر اختلافهما بنسبة الحياء الذي تزيد كميته باحدهما بقدر ما ينقص او يكاد ان يكون معدوماً نهائياً بواحد منهما ..

وبينما كان احدهما مفقود الاحساس متلبد العاطفــــة ميت الوجدان لا يبالي باحتمال العار ولا يخجل من دنس الخزى يشبه الى حد كبير ذلك الفتى الذي قال لوالده : انني لست مبالياً بمن يمتدحني ولا بمن يذمني) .. فقال والده : لقــد (استرحت يابني مما تعبت منه الكرام) بينما هــذا بهذه الصفة بينما الثاني ذهب الى اهله مهموماً كاسف البال لايطيب له عيش ولا يدخل عينيه النوم ..

وهكذا كان التباين بين الاول الذي ذهب الى اهله ساخراً بعقلية رئيس قبيلته مستهتراً به يتحدى زعيم القبيلة بلسان وقح وجبــــين لا يندى ووجهه كالارض السبخة قائلا لرفاقه :

ـ ثم ماذا يكون اذا اعتبرني رئيس القبيلة او القبيلة بكاملها ميتاً ما دمت على قيد الحياة ، فهذه مسرحية مفتعلة الخ .. بينما الثاني كما اشرت حارب المجتمع وهجر أهله وفراشه لا يحب ان يرى ولا ان يرى ، لا يفكر ولا يختلج في صدره ولا يدور في ذهنه الا امر واحد فقط وهو ان يقيض الله غزاة تهاجم قومه لكي

يغامر بحياته فاما ان يكون بطلا من ابطال الهيجاء وعندها يذهب الى رئيس قبيلته متوشحاً بسلاحه رافعاً رأسه طالباً منه ان يسحب كلامه الاول فيحيا بعدها حياة هنيئة يكون قدغسل عن نفسه جبن العار ومهانة الذلة، اومااان يلقى حتفه فيستريح من حياته التي اصبحت وبالا عليه .. وقد ظل الفتى يتحين هذه الفرصة بفارغ الصبر .

أمنية تتحقق :

ولما كانت الحروب بين القبائل مع الأسف شيئاً طبيعياً خاصة في ذلك العهد الذاهب الى غير رجعة فانه . بطبيعة الحال سوف تتحقق امنية الفتى التي طالما كانت تدغدغ خياله وتؤرقه عن السبات والتي اخذت من حياته وقتاً طويلا وهو يحلم بها ..

يالها من فرحة لا يعاد لها في نفسية الفتى عندما صبت احدى القبائل غارتها على ابل قبيلته وخرج فرسان قومه مدججين بالسلاح وعلى رأسهم زعيم القبيلة علي سالف الذكر .. كانت اول عمليـــة قام بها الفتى هي ان امتطى فرس أبيه بدون اذن منه ولبس (جوخة [1]) حمراء وتوشح بحسامه ووضع الرمح بكفه دون ان يحمل بندقية علامة على انه سوف يواجـه الفرسان وجهاً لوجه بالسلاح الابيض .وقبل كل شيء مر من عند رئيس قبيلته وصاح به قائلا :

- ان كنت رجلا فاتبعني .. ثم همز جواده وراح شاهراً سيفه .. فما كان من امره الا ان توسط فرسان الاعداء وظل يصول ويجول ويكر ويفر مناضلا نضال المستهتر بحياته فما من فارس من فرسان الاعداء ينازله الا وكانت الغلبة له حتى انه ادخل في قلوب اعدائه الرعب فولت فرسان العدو هاربة خوفاً من الفارس الجديد الذي ادهشتهم بطولته ..

(١) أي علامه التشهير بنفسه وهي عادة قديمة يتخذها فرسان العرب في الجاهلية .

بعد ذلك عاد الفتى الى أهله مفتنا عدداً من افراس الغزاة .. كما عاد رفاقه وكل فرد منهم ثابت لديه ان سر انتصارهم على اعدائهم يعود الى ذلك الفتى الذي كان منبوذاً ومحتقراً بالامس ، ولكنه اليوم اصبح بطـــل القبيلة بأسرها ، واحدوثة الأندية وراح ذكره يفوح كالمسك على السنة الفتيات اللواتي كل واحدة منهن تتمنى ان يكون لها بعلا .. وسرعان ما تغير مجرى حياة هذا الفتى ، من زهد فتيات قبيلته به الى تنافسهن عليـــه ، وما من فتاة تثق بجمالها الفاتن الا وتذهب اليه بدافع الشوق والغرام محاولة اغراءه عله يرضى ان تكون له قرينة او لعل القدر يسوقه لها بعلا ..

« ولا غرو فقد ذكرنا في أكـثر من مناسبة ان نساء العرب يعشقن الرجل لشجاعته اكثر من أن يعشقنه لاي معنى من المعاني » .

أما زعيم قبيلته الذي احتقره بالامس اي الذي بالاصح اشعل في كيانه تلك الموهبة الكامنة فقد ذهب اليه زائراً له وساحباً كلامه السابق ومنحنياً لبطولته ..

وهكذا شعر الفتى انه خلق من جديد وعاش حياة طافحة بالعزة والكرامة والاحترام حياة تختلف عن حياة زميله الذي رضي بالهوان وقبل ان يعيش بين قومه ذليلا مهاناً محتقراً كعيشة البهائم ليس الا ..

وفي تجربة كهذه تتباين مفاهـيم بني الانسان وتختلف نظرتهم للحياة ، فمن واحد يرى ان هذه الحياة العابرة التي اشبه ما تكون بوميض البرق الخاطف اذا لم يعش فيها الانسان حراً ابياً جم المروءة منيـــع الجانب شامخ الأنف موفور الكرامة ، فان عدم وجوده فيها كانسان خير الف مرة من ان يحيا وهو مجرد من تلك المعاني ...

وبعض من الناس يكفيه من الحياة اسمها حتى ولو كان يحيا كحياة الكلاب والحمر الاهلية مكتفياً بالعيش والتناسل فقط ..

ورحم الله محمود سامي البارودي القائل :

علام يعيش المرء في الدهر خاملا   أيفرح بالدنيا بيـــوم يعـــده
ومن خاف ذل الموت كانت حياته   اضر عليه من حمـــام يؤده

وبعد فاننا اذ اشئنا ان نفهم السر الذي جعل هذين الفتيين يشتركان في بداية الامر بالجبن والفرار ، ثم يختلفان فيما بعد . فذاك يظل مستمراً بجبنه وهذا تبدل مجرى حياته وسيرته الاولى رأساً على عقب ، اذا شئنا ان نعرف كنه العامــل الاساسي فلا نجد دليلا ملحوظاً مقنعاً اللهم الا دليلا واحداً الا وهو الحياء الذي هو بلا شك نبراس الاخلاق الحية وعنوان الرجولة ، فهو وحده الذي اثبت لنا ان بين جنبي هذا الفتى نصيباً وافراً منه ، بينما كان فؤاد الثاني فارغاً منه ورحم الله الشاعر العربي القائل :

اذا لم تخش عاقبة الليـــالي   ولم تستحِ فافعــل ما تشاء

* * *

فارس ارهب ستين فارساً

١٥

كأنها خيال او اسطورة او تمثيلية ولكنني لا اشك في صحة وقوعها .. خاصة بذلك الزمان الذي يستطيع الفارس الشجاع ان يبرز موهبته كما يريد.. اما الآن فقد فقدت الشجاعة طابعها الواقعي خاصة بعد ان برز الى حيز الوجود السلاح الحديث، بعد ذلك لم يكن للشجاعةالفردية اي مكان في عصر الذرة والصاروخ..

وقد كان العهد المنصرم امتحاناً للشجعان، فكل ند ينازل نده وجهاًلوجه، فاذا تهيأ مثلاً لفارس ما جواد سباق وسلاح ماض ، فانه لا يخاف وقتها من اي مخلوق كان لانه بامكانه ان يكر ويفر بدون ان يتمكن العدو من قتله او طرحه ولا سيما والصراع بين الفرسان كان بالسيف والرمح ..

والقصة رويتها من الاستاذ ادهم الجندي صاحب كتاب الاعلام والفن العربي، وهي تتلخص على الوجه الآتي :

يقول الاستاذ الجندي : كنت ذات يوم في نادي المرحوم مشل[١] باشا الجربا، في دمشق فسئل الشيخ مشل عن اعظم شيء سمعه او رآه من مواقف الشجعان النادرة ، فأجاب بقوله : ان اروع وأهم مشهد رآه بحياته هو شجاعة فارس من فرسان قبيلة عنزة .. ويمضي الشيخ مشل بحديثه حسب رواية الراوي الى ان قال : كنا غزاة من قبيلتنا (اي قبيلة شمر) بقيادة المرحوم عبد الكريم الجربا قاصدين غزو قبيلة عنزة .. فوجدنا ابلا ترعاها فتاة فاغتنمناها اعتقاداً منا انها لقمة سائغة .. وقد لفت انتباهنا نظرة الفتاة المختصة برعاية الابل ، فقد كانت

١ ـ مشل من روساء قبيلة شمر الغزاة توفي رحمه الله في دمشق عام ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤٨

تنظر الينا نظرة الساخر ، او المستهتر ، وما كنا نظن ان وراء نظرتها هـــذه ما وراءها من سردفين ...

وما ان قطعنا مسافة ليست بالبعيدة حتى لحقنا فارس بمفرده ، وعندما دنا منا طلب منا (الحذية) اي الهبة كما هي العادة المتبعة بحالة كهذه ، فالمغتنم حسب العرف المتبـع يتحتم عليه ان يهب من غنيمتة .

فيقول : مشل لم نتردد من هبته ناقتين ظانين ان ذلك كاف له ولكنـه عاد

فطلب الحذية مرة ثانية فوهبناه ناقتين ايضاً ثم عاد ثالثة فطلب فوهبناه عـدداً مماثلاً ثم عاد رابعاً يطلب الحذية ولكن بلهجة توحي انه لم يكن مستجديـاً كما بدا لنا من الوهلة الاولى في طلبه السابق وانما كان هذه المرة متحـديا .. ولذلك برز لمنازلته ستة من فرساننا بينما نحن نسوق الابل التي اغتنمناها .. فظل برهة يتصارع مع الفرسان بين كر وفر .. وبعد ذلك لحقتنـا افراس رفاقنا خاليـة سروجها من فرسانها الذين ابادهم هذا الفارس ..

فلم يسعنا الا ان ابرزنا له فرساناً اكثر عدداً من السابقين بينما ظل البقية منا يسوقون الابل.. وما ان اخذنا فترة حتى لحقتنا افراس قومنا الذين كان مصيرهم كمصير سابقيهم ..

فكانت النتيجة ان ارهبنا هذا الفارس[1] وادخل في قلب كل منـــا الرعب فهربنا تاركين له ابله، مغتنمين السلامة بعدان قتل منا فتياناًمن خيرةفرساننا.. .. وبعد فقد وجدت السيد الجندي راوي القصة مندهشـــاً لا من البطولة التي قام بها الفارس بالرغم من انها بطولة خارقة حقاً ، ولكنه مندهش ومعجب في آن واحد من اعتراف المرحوم مشل الجرباء بشجاعة عدوه وشجاعتـــه

---

[1] يؤسفني ان الاستاذ الجندي لم يحفظ اسم الفارس كما حفظ لنا القصة .

ولكنني شخصياً لم استغرب ذلك بحكم معرفتي الراسخة لاخلاق العرب .. فنجد مثلاً مشل الجرباء يشهد لخصمه اليوم بمثل هذه الشجاعة النادرة .. وفي الغد يجد مشل نفسه من يشهد له او لاحد فرسان قبيلته بعملية شجاعة نادرة من نوع الشجاعة التي قام بها هذا الفارس صاحب الترجمة ..

وهذا الخلق قل ان نجدمن يطبقه بصوره عملية كتطبيقالعرب له.. وخاصة البادية فالبدوي مهما بلغت العداوة بينه وبين خصمه لا يبخس حق خصمه ولا ينكر ما له من فضيلةبل ينصفه بدون ان تؤثر عليهالاحقاد او يستفزه الغضب، وهذا ما اشار اليه الحديث الشريف القائل معناه : (لا تصاحب امرءاً ما حتى تغضبه .. فان انصفك في حالة غضبه فبها ، وان لم ينصفك فابتعد عنه ...

كم من فئة كثيرة غلبتها فئة قليلة

١٦

من بدهيات الامور ان كثرة العدد والعـدة من أهم عوامل النصر والفوز ، ولكننا لا نستطيع ان نحكم الحكم الفاصل بأن النصر والغلبة دائمـاً للكثرة ، فالكثرة عامل من عوامل النصر بلا شك وسبب عظيم من اسباب الغلبة ولكنها ليست هي الكل بالكل ولن تكون والتاريخ العربي بل والبشري بصورة اشمل جديران بأن يكونا حكماً بهذا الشأن ، اذ ان قضية النصر غالباً ما تكون قضية ايمان اكثر من اي شيء آخر .. فالجماعة او الافراد متى كانوا وطيـدي الايمان بأنفسهم بعد الله ومتى ما قرروا مصيرهم النهائي في امر مـا فانه ليس من السهل قهرهم .. ولعل في هذه القصة التي بين يدي القارىء ما يقدم لنا اوضح الادلة على ما نشير اليه بأن القضية قضية ايمـان اولا وآخراً .. ويوشك ان تكون هذه القصة من أشهر القصص ذيوعاً وأكثرها انتشاراً ولا اظن احدا ممن له ادنى المام بتاريخ الاحداث التي مرت بجزيرتنا العربية منذ قرن فما دون الا وقـد سمع عن هذه القصة كما سمع بانشودتها الشعبية التي تناقلها الركبان وحفظ الاحفاد عن الاجداد جيلا بعد جيل .. كما ان احدى صحف المملكة نشرتها على صفحاتها وهي مجلة الجزيرة التي نشرت القصة بقصيدتها في ١٣٨٢ و ١٩٦٢ ، المقصود هو انني عندما اذكر في مؤلفي هذا حادثة ما فانني بطبيعة الحال لم آت بها من نسج الخيال لانني اذا اردت ذلك سوف اجد من سبقني اليه من الكتاب الذين تفننوا بكتاباتهم للقصص الخياليـة باسلوب عصري حديث وبصورة تجذب اعجاب القاريء حتى يخيل اليه ان تلك القصة من صميم الواقع لا من صنع الخيال ..

وهذه القصة مما لا يشك أن فيها البطولة ما هو مدعاة للاعجاب والتقدير للابطال القصة الاشاوس ، وهي كغيرها من قصص البطولة وقد يكون هناك من القصص ما يفوقها .. ولكن الشيء الذي تمتاز به هذة القصة على غيرها هو انتشارها بين الرواة وشيوع ذكرها بين كافة المواطنين من ساكني الجزر العربية الامر الذي يجعلني اكون سلبي الاجابة فيما اذا قال لي أي مواطن عادي : (انك لم تأت الينا بشيء جديد في هذه القصة كبقية القصص المعروفة عند حضر وبدو وجنوب الجزيرة مثلا ، ولكنها مجهولة عند الجانب الآخر من اهالي الشمال باديه وحاضره) ..

طبعاً .. سأكون سلبي الاجابة على ذلك لان هذه القصة قد بلغت القمة من حيث الشهرة واعتقد ان اهم شيء في ذيوع صيتها ليس الا القصيدة الشعبية التي كان وزنها قابلا ان يلحنه الفلاح في حقله والعامل في عمله اني كان والمسافر فوق شداد مطيته ومغني (الربابة) على اوتار ربابته .. هذا هو العامل الرئيسي لشيوع ذكر قصتنا التي جاءت كما يلي :

هب غزاة قلة من قبيلة مطير ومن فخذيسمي بالعوارض ولبعد العهد بالحادثة الذي لا يقل عن ستين سنة لذلك ما استطعت معرفة القبيلة التي ينوي هؤلاء غزوها وانما الادلة كلها تشير الى انهم ينوون غزو قبيلة شمر .. وصدفة اصطدموا بقوة الامير المرحوم عبد العزيز بن متعب الرشيد الذي كان يملك من القوة ما يزيد على عشرين الف مقاتل بين فارس وراجل بينما الغزاة لا يتجاوز عددهم نسبة محدودة ..

وكان الوقت في بداية الضحى وبينهم وبين اقبال الليل المدلهم الذي لا يمكن ان يتواروا في ظلامه مدة طويلة والرواحل التي يمكن ان يفروا عليها هي ولا شك نجيبة وسريعة الجري ويمكن ان يفروا هاربين بدون ان يستطيع العدو اللحاق بهم فيما لو لم يكن لدى هذا العدو مئات الخيول الاصيلات التي يستطيع

فرسانها ادراك الهاربين بسرعة ، فكر الغزاة في امرهم فوجدوا انفسهم بين امرين عقيمين: الامر الاول هو الاستسلام وهذا معناه انهم سوف يسلمون انفسهم لعدو قاس عنيد لا تأخذه بهم رأفـــه ولا رحمة بل سوف يبيدهم عن بكرة أبيهم ..

السبيل الثاني : هو ان يقاتلوا قتال المستميت فان قدر للعدو ان يطوقهم ويقهرهم بخيله وجيشه العرمرم ، فانــه من الافضل لهم ان يموتوا قتلى معركة خير لهم الف مرة من ان يموتوا اسرى مكتوفي الايدي يمثل بهم جلاد الامير بسيفـه كيف يشاء .. لقد رأى الغزاة ان هذا السبيل هـو افضل الف مرة من السبيل الاول لا من حيث ان الاول يموتون به ميتة الجبناء وهذا يموتون به ميتة الشجعان فحسب .. بل من حيث ان الاول فيه فناءهم جميعاً مائة بالمائة .. بينما الثاني فيه احتمال ان ينجو منهم من تكتب له النجاة ولو واحد بالمائة على الطريقة التي اوصى بها غزاته الخليفة الاول ابو بكر الصديق رضي الله عنه حيث قـــال : اطلبوا الموت توهب لكم الحياة .

وهكذا قرر هؤلاء الفتيـان ان يموتوا شجعاناً مقاتلين لا ان يموتوا اسرى مستسلمين ، وكانت النتيجة ان لقن هؤلاء الفتيان الامير وفرسانه درساً لا ينسى وسجلوا بطولة لا تطمس السنون ذكرها وقدموا دليلاً قاطعاً وعبرة تاريخية على ان قوة الايمان اهم من قوة السلاح وكثرة العدد والعدة .. وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لهذه الفئة القليلة التي استطاعت ان تثبت امام ذلك الجيش اللجب وان تقاتل اولئك الفرسان الاشاوس الذين لم يدخروا وسعاً في بذل اقصى ما لديهم من الجهد للسيطرة والغلبة عليهم حتى اعياهم الامر .

وخذ قصيدة شاعرهم التي تعتبر وثيقة تاريخية حيث قال :

يوم نَطْ[1] الرقيبةِ راسْ مشذُوبه[2] قال زلوا وجـْتَك الجيش زرفَالِ

١ ـ نط اي صعد الرقيبة الرجل الذي يسبر غوره

٢ ـ مشذوبه الجبل المرتفع ذو الفرع كأنه منحوت.

قال انا شفت شوفٍ لا بتلِتُو به شوف رِيبة ومنه القَلبْ يجْتَالِ
طبقوا الا بتي بـــكل مسلُوبه واحتمو جيشهم ماضين الافعالِ
يوم لحق الامير ولحقت الشّوبه لا قرايا ولا مزبن ولا جمالِ
لحقت الخيل بالغلمانـ مركونه واقفت الخيل فيها الدّم شَلالِ
كل ما قلت راحو عودوا نوبه ارسلوا سرية تسعين خيّـــالِ
من صلاةَ الضحى ياغافِر التوبه لينْ غابت وحنا هَوش وقَتَالِ
ياعمـالِيسوق الموت مجلُوبـــه ما هَقينَا على الدنيا لنـاَ تـالِ
هجننا مَاركبهِن كلِ زاروبه كود قرم عريب الجدِ والخيالِ
كم جواد بحد الكوع مضروبه صَار منها عَوضها بِس الحبالِ
يحسّن بعــود عند مَندُوبَه قال يِرسِلَ عَلَيناَ خيله ارسالِ
الضفر ساعة لحل ما جوبه كل ساعة لها حزات وارجالِ
انا لغـــالي الروح جَالوُبه في نهار رخص مكان به غَالِ

وخذ شرح البيت الاول والثاني :

يقول الشاعر عندما صعد رفيقنا المختص بسبره لارض العدو رأس جبـــل رفيـع ذي رأس منحوت عند ذلك عاد الينا راجعاً قائلاً ابتعدوا عن وجه العدو فجئنا برواحلنا نهرول فأردنا إن نستفسر من هذا السابر عما وراءه فقال : انه رأى رؤية فاجعة عسى ان لا يبتليهم الله بما وراءها من شر ومحنــة . وفي عجز

البيت الثاني يقول : ان الرؤية التي رآها تدعو الى الريبة واضطراب الفؤاد .

وفي البيت الثالث يقول الشاعر عندما علم قومي بهذا النبأ لم يترددوا فترجلوا واستدنوا بندقياتهم واحتموا من طمع العدو . وفي آخر عجز البيت يقول : ان قومه لهم في البطولة ماض مجيد . وفي البيت الرابع يقول : عندما لحق بهم الامير يقصد عبد العزيز بن متعب الرشيد ولحقت صفوة فرسانه هناك ضاقت بهم الارض بما رحبت فلا من قرى يمكنهم ان يدخلوها ويلوذوابأسوارها ويقاتلوا من وراء جدرانها ولا من مجير يستطيعون ان يستجيروا به او يستطيع ان يجيرهم ولا من جبال منيعة محصنة يمكن ان يلوذوا بها ..

وفي البيت الخامس يقول : هجم عليهم فرسان العدو بخيولهم وكل فارس مردف وراءه فارس آخر منهؤلاء الفتيان البواسل ولكن هؤلاء الفرسانادبروا والدم ينزف منهم ..

وفي البيت السادس والسابع يقول : كلما هجم علينا العدو بخيوله رددنا فرسانه على اعقابهم واعتقدنا بعد ذلك ان هؤلاء الفرسان انتهت مقاومتهم وتلاشت قواهم كلما اعتقدنا ذلك عادوا الكرة مرة اخرى ثم هجموا علينا بمئتي فارسمن جديد وهكذا استمرت المعركة الطاحنةوظل القتال مستمراً متواصلا منالضحى الى ان غربت الشمس وهموالعدو بين كروفر يقاتلونقتال المستميت..

وفي البيت الثامن يقول : لقد عرضنا حياتنا لمشتريها في أسواق الموت وما كنا نظن ان يحيا منا احد أو يبقى على الارض منا بقية .

وفي البيت التاسع يقول : انه لم يكن بيننا اي جبان انهزامي بل كل منا فتيان بواسل وما من احد منا الا وهو عريق النسب من جد اصيل وخال عريق ..

ويقول في البيت العاشر : فكم من جواد من خيل فرسان العدو عندما هجم علينا فارسها اصبناها في عضدها اصابة اقعدتها عن الجري فكان عوض فارسها منها عنانها فقط وفي البيت الحادي عشر يقول : ان الامير ابن متعب ابن رشيد عندما نظر الى شجاعتنا وثباتنا راح يبعث الينا رسلا من فرسانه واحداً يتلو الآخر ظاناً اننا سوف نستسلم ونستكين وفي البيت الثاني عشر يقول : ان الشجاعة هي ساعة يجب على المرء ان يثبت ويصبر خلالها وهي اشبه ما تكون بامتحان للرجال .

وفي البيت الثالث عشر والاخير يقول : اللهم اشهد اننا في يوم كهذا اليوم قد استهترنا بحياتنا في سبيل كرامتنا التي هي اغلى ثمناً من كل شيء ثمين ..

وبعد : فان القصيدة اكثر بكثير مما اوردت ولا بد لي هنا من الاشارة الى ما يزعمه كثير من الرواة من قوم الامير ابن متعب ابن الرشيد الذين تكاد تكون روايتهم متفقة بصورة اجماعية ..

ويؤكد اكثر من واحد من الرواة بأن هؤلاء القوم وان كانوا شجعاناً بلا شك ولكنهم لم يصطدموا بجيش الامير ابن الرشيد وفرسانه وعلى رأسهم الفارس عبد العزيز ابن متعب المشهور بشجاعته وانما الذين اصطدموا بهم فليسو الا الفرسان الذين يقال لهم (عيون) وهؤلاء مهمتهم ان يسيروا مسافة بعيدة عن جيش الامير ليكتشفوا ارض العدو ..

هكذا يقول الرواة الذين هم من قوم ابن الرشيد .. وقد تكون هذه الرواية هي الحقيقة اي ان ابن متعب بذاته وبجيشه العرمرم لم يقابل هؤلاء وانما الذي قابلوهم هم (العيون) فقط ولكن اذا سلمنا جدلا ان قوة ابن رشيد بكاملها لم تقاوم هؤلاء الفتيان وان الذين قاوموهم العيون فقط .

فاذا آمنا بهذه الحجة التي قد يكون فيها رد اعتبار لحاكم كابن متعب ، اقول

اذا آمنا بذلك فهل يمكن ان نؤمن بأن هؤلاء العيون عندما رأوا هؤلاء القـوم لم يبعثوا فارساً يخبر ابن متعب بما شاهدوه طبعاً سيبعثون من يخبر اميرهم بذلك لان مهمتهم هي اخبار الامير بشيء من هذا النوع .. اما رأيي بهذا الشأن فهو ان كلا الجانبين صادق بما يدعيه فكون ان قوة الامير بكاملها لم تهاجم الفرسان فهذا شيء قريب جداً من الواقع اذ ان لدى الامير ما يقارب عشرين الفاً بـين فارس وصاحب ذلول فهذه القوة لو انصبت على هؤلاء الفرسان القلة لابادتهم عن بكرة ابيهم وكون ان العيون وحدهم هم الذين قاتلوا هؤلاء الفرسان ايضاً ليس من السهل ان نسلم بهذا المنطق ولكن الذي هو اقرب الى الحقيقة هو ان العيون اخبروا الامير ابن الرشيد بالقوم وان ابن رشيدلم يهتم له كثيراً فبعث فرساناً نجدة للعيون دفعة اولى وقد يكون ايضاً بعث دفعـة ثانية وثالثة وهو في معسكره دون ان يحشد جميع جيشة ، معتقداً ان الامر لايحتاج الى ذلـك حتى اخلف ظنه الابطال بثباتهم وجلدهم وحتى جنهم الليـل الذي احاطهم بستره وعندئذ لايستطيع الامير ان يظفر بهم حتى ولو جاء بكل ما يملك من القـوة وعلى أي شكل فلا يسعنا الا ان نحترم شجاعـة وبطولة هؤلاء الفتيان وننظر اليهم بعين ملوءها التقدير والاعجاب كشجعان بواسل .

* * *

لا قيمة للاقوال اذا لم تؤيدها الافعال

- ١٧ -

هناك ما يدعو الانسان الى العجب عندما ننظر الى احتفاظ العرب ببعض الحوادث بالرغم من بعد العهد بها ، وبالرغم ايضاً من عدم وجود سجل لمثل هذه الحوادث وكل ما في الامر انها تظل في صدور الرواة ويتناقلها الاجيال بصورة مستمرة يرويها الخلف عن السلف وهكذا دواليك .. وعلى هذا الاساس تظل حادثة كهذه التي وقعت في عام ١١٤٠ هـ وعلى الرغم من طول هذه المدة تظل محفوظة من الضياع وذلك بفضل الاسباب الآتية :

اولاً ـ وجود القصيدة في الحادثة

ثانياً ـ وجود الانديه المتوفرة بكثرة سواء عند البادية او عند اهل المدن والقرى في صميم الجزيرة العربية ، فكل من هؤلاء غالباً ما تكون انديتهم عامرة وحاشدة خاصة بعد الظهيرة وبعد المساء حيث يجتمع الشيوخ والفتيان في اندية كبار القوم ويكون هناك رواة مهمتهم سرد الحوادث ذات الطابع المثالي لا من اجل التسلية وتضييع الوقت بل كدروس يلقنها الرواة الذين هم بمثابة المعلمين والاساتذة ..

وهذان العاملان سالفي الذكر من أهم العوامل الرئيسية التي حفظت لنا كثيراً من شيم العرب كهذه القصة وأمثالها بالرغم من طول عهدها ، وبطل القصة

وشاعرها فتى يدعى نومان [1] الحسيني ..

خلق هذا الفتى ليكون شهما شجاعاً ، وشاعراً مطبوعاً وكان الى جانب ذلك وسيما فارع الطول يمتاز على اقرانه بخلقه واخلاقه. كما يمتاز البدر على سائر النجوم وكان ذا صفات مزدوجة ، أبي النفس ، قوي الشكيمة لاتلين له قناة معتزاً بنفسه امام العظماء والكبار الى حد الغرور : وفي الوقت ذاته تجده امام المواطنين الضعفاء ليّن العريكة دمث الاخلاق دافق المروءة جم العاطفة ، فمن نظر اليه من الجانب الاول اعتبره فتى متغطرساً مختالا ، ممعناً بالكبرياء والغرور ، ومن نظر اليه من الجانب الاخير قال عنه انه وديع مسالم عاطفي ، تقربه الكلمة وتبعده الكلمة .. وازدواج شخصيته هذا جعل رأى مجتمعه ينقسم الى قسمين : قسم يحكم عليه بالغطرسة والكبرياء ، وقسم يحكم عليه بسلامة الطوية وسماحة النفس وعطفه الزائد نحو الضعيف والمستنجد به ، وكانت ظروفه القاسية التي نشأ وترعرع فيها من شأنها ان تجعل لمن يحكم عليه الاول مجالاً اوسع بكثير من المجال الذي يحكم عليه الرجال الآخرون .

لقد نشأ في طفولته يتيما وبلغ سن الفتوة فقيراً ، ومن اين للفقير القدرة على ابراز مواهبه النبيلة مهما كان شهما محسناً كريماً ؟.. اللهم الا ان هناك موهبة واحدة يستطيع ابرازها وهي موهبة الشجاعة التي تعتبر في مقدمة المواهب قداسة خاصة عند عرب البادية ، ولكن حتى هذه الموهبة لايستطيع الفقير ابرازها ما لم يكن لديه بالدرجة الاولى القدرة على ملك الفرس الأصيل السريعة الجري ، وامتلاك الفرس لشاب كنومان أمر ليس بالسهل ، لانها غالية جداً ، والذي يستطيع ان يملكها في ذلك الوقت كالذي يستطيع ان يملك سيارة من أفخم السيارات في عصرنا الحديث ، اللهم الا ان هناك وسيلة لامتلاكه الفرس ، او على الاصح لحصوله على الفرس وهذه الوسيلة هي ان يذهب الى اكبر امير من

---

(١) نومان من قبيلة الظفير ، اما كلمة الحسيني فهي نسبة الى الحسين بن علي بن ابي طالب .

امراء القبائل ، ويطلب منه ان يكون عنده (فداويا [1]) وكان وقتذاك اكبر امير معروف بين رؤساء قبائل الجزيرة وهو (منيع بن عريعر) وهـذا الامير لايمنحه فرسا الا بعدما يعرف عنة الفروسية اي بعد تجربة سابقة ، او في حالة استثنائية ، وذلك عندما يتوسم الامير فيه الشجاعة فعندئذ ربما يهبه فرساً ، على سبيل التجربة ولكن اذا لم يثبت هـذا شجاعة فان الامير سوف لا يتأخر عن استرداد الفرس منه .

ذهب نومان وطلب من الامير منيع بن عريعر قبوله ضمن رجاله الفداوية ، فلم يتردد ابن عريعر عن قبوله مبدئياً بدون ان يقدم له فرسا، وفي احدى الافراح الشعبية التي قام بها الفرسان بمهرجان بين بيوت الحيّ استحصل نومان على فرس وركبها مشاركاً فرسان القبيلة افراحهم ، وفي هذا الاستعراض طغت شخصيـة الفتى على جميع الفرسان لا لكونه اوسم الفرسان منظراً وأجملهم خلقة بل لكونه اثبت انه يجيد ركوب الفرس بصورة لا يشاركه بها احد ، مما جعل رجال القبيلة ونساءها لا ينظرون لاي فارس من فرسانهم بعين الاعجاب والزهو ، كما ينظرون لنومان الذي اثار اعجاب الامير والمتفرجين من جهة كما اثار اعجاب الحاسدين من اقرانه الفداوية من جهة اخرى ولم يتردد الامير عن منحه فرساً بصورة استثنائية قبل التجربة المعتادة ، ومن مستلزمـات الفرس الرمح والسيف ، لانهما في ذلك العهد هما سلاح الفارس ، وبعد ما توفر للفتى الفرس والسيف والرمح لم يبق لديه الا بعض الكماليات ، ومنها وضع ريش النعام على رأس رمحه وهذه العملية تسمى (زرجة) فذهب وجمع ريش النعام وراح يسأل فرسان القبيلة عمن يقوم بحبكها.

---

١ ـ الفداوى ـ مشتق من اسم فدائي وجمعه فداوية ، وهو كما يعبر عنه في جزيرتنا العربيـة بكلمة (الخويا) ومفردها (خوى) ويقول ابو دباس بقصيدته الشعبية :

ترى الفداوى داوى وانشد الناس

عليش ما يذكر بخير وخيره

فأشاروا اليه الى بيت شعر منفرد عن بيوت القبيلة مؤكدين ان صاحبة ذلك البيت عجوز مهمتها حبك ريش النعام على رأس الرمح مقابل اجرة بسيطة ، فذهب الفتى واثقاً بكلام هؤلاء الفرسان واستصحب معه رمحه وريش النعام قاصـــداً صاحبة البيت العجوز على النعت الذي نعتها له فرسان القبيلة ، ولكن حينما دنا من الخدر ونادي صاحبته ، عند ذلك خرجت اليه فتاة هيفاء دعجـــاء العينين ممشوقة القوام ، فنظرت اليه بعينيها الساحرتين فوجدته غريباً لم يسبق ان رأته قبل هذه النظرة الا تلك الرؤية العابرة عندما كان الاستعراض سالف الذكر فوقفت بقامتها المديدة الريانة مبهوتة من مجيء هذا الفتى اليها في خدرهـا الذي اعتادت ان لا يأتيها فيه احد ، اللهم الا جواريها وخادماتها من النســاء ، وبعلها الامير الذي لم يمض على قرانه بها اكثر من ايام تعد على راحة الكف ، وبعد لحظـــة استعادت بها شجاعتها ونزحت الى الخلف قليلا ثم قالت :

– ماذا تريد من مجيئك هنا ؟

وكان الذهــول الذي اصيب به نومان لرؤية تلك الفتــاة لا يقل عن ذهول الفتاة نفسها وعندما وجهت اليه الفتاة حرف الاستفهام ارتبك في بداية الامر ، ولكنه تشجع فيما بعد وقال :

– أين أمك التي تجيد حبك ريش النعام .. فحددت الفتاة النظر فيه فوجدته يتحدث عن بساطة وارتباك فجاوبته قائلة :

– من الذي أخبرك بأن والدتي تقوم بهذا العمل .. فرد عليها فوراً :

– هؤلاء الشبـــاب .. مشيراً بيده الى فتيان القبيلة الذين غرروا به .. ثم استطرد وقال :

– أنا رجل غريب ولا اعرف احداً يتقن حبك ريش النعام فذهبت اسأل هؤلاء الفتية بصفتهم من القبيلة نفسها فهدوني الى هذا البيت مؤكدين ان فيه امرأة مسنة تجيد حبك (الزرجة) بثمن ضئيل ..

كانت الفتاة تصغي لحديثه بوعي ولم يفتها منه كلمة واحدة.. ولذلك اسرعت بالاجابة قائلة :

– ان الذين هدوك الى هذا المكان صادقون فانا التي احسن حبك ريش النعام واضعه جيداً على رأس الرمح ولكن ذلك بثمن لم يخبرك به الشباب الذين هدوك الى هنا ..

– اذا كان الثمن يزيد عن مقدرتي فلا داعي لذلك لانني كما اشرت رجل غريب وفارغ اليد ..

– الثمن ليس مادياً وانما هو معنوي ..

– اشرحي لي ما تعنين بوضوح..

– يجب ان تعلم اولا انني حرم الامير منيع .. ولكن هذا لا يمنعني من ان احبك زرجة الرمح عندما يقبل صاحب الرمح الشرط الذي امليه عليه ومضمون هذا الشرط هو ان يتعهد لي الفارس بأنه سوف يكسو ريش النعام من دماء اعدائنا عند اول معركة تقع بين فرسان قبيلتنا وفرسان العدو فان لم يفعل فان الامير سوف يقطع يمينه من حد الكف . ثم ختمت كلامها قائلة فاذا كنت تقبل هذا الشرط فهات سنان الرمح وريش النعام وانتظرني مدة حتى اعمل لك رمحك

– ما دمت زوجة الامير عليك اولا ان تخبريه بالذي حدث مني بمجيئي الى

هذا المكان الناتج عن خطأ اوقعني به الفتيان الذين لم يخبروني بصاحبة البيت ولا بشرطها ، ثم بعد ذلك تخبرينه بأنني على اتمّ الاستعداد لقبول هذا الشرط ،فاذا لم اف بعهدي الذي تطلبين ان اتعهد به فما على الامير الا ان يأمر جلاده بقطع يميني فيما اذا وقعت معركة ولم انفذ الشرط المطلوب ..

– حسناً سوف اذهب للامير الآن وأخبره بقبولك الشرط فاذهب الان وعد بعد لحظة تجد الرمح قد انتهى ..

ذهب نومان ليعود بعد فترة حسب الوعد .. كما ان الفتاة ذهبت الى بعلها واخبرته بالامر الواقع فايد الامير الفكرة ، وامرها بتنفيذ طلب الفتي فراحت واستدعت عجوزاً من اللوتي يجدن حبك ريش النعام فسلمتها الريش وسنان الرمح وقامت العجوز بالعملية واتقنتها خير اتقان .. وما ان عاد الفتى حتى وجد رمحه منتهياً من الغرض الذي جاء به من اجله ، فخرج نومان من خدر حرم الامير يهز رمحه فخوراً مختالا ، مما جعل فرسان القبيلة و(فداوية) الامير يزداد حقدهم وحسدهم اضعافاً مضاعفة ، على هذا الفتى الذي جاءهم من بعيد ..

ولم يكن العهد الذي قطعه الفتى على نفسه امام حرم الامير سراً . وذلك ان الشائعات عمت رجال القبيلة بأسرها ، فكلهم بلغهم الخبر بان امرأة الأمير الشابة اشترطت عليه ان يقطع الامير يده اليمني عندما تقع معركة ، ولم يكس ريش النعام المتوج به سنان الرمح دماً، وكان رجال الامير يتمنون وقوع المعركة، بفارغ الصبر ، او بعبارة أوضح يتمنون ان تقع المعركة الطاحنة التي لا يستطيع الفتى ان يصمد بها فعندئذ يتحقق له ما يريدونه وهو شماتتهم بالفتى سواء قطع الامير يده ، او طرده من عنده ..

وفي تلك اللحظة التي كان اعداء نومان يتمنون وقوع معركة حاسمة غزا الامير قبيلة شمر ويقال ان هذه الغزوة كانت على موعد سابق بين الامير ابن عريعر وبين الجرباء رئيس قبيلة شمر وقتذاك والقصيدة التي انشدها نومان الآتية تفيد بمفهومها

أن هناك علماً مسبقاً بوقوع الحادثـــة .. وكانت المعركة المتحتم وقوعها في مكان يقع شمالا عن جبلي طيء يسمى (لينة)[1].

كان نومان في حالة لا يحسد عليها ، لا يعلم ماذا يكون مصيره ... هل ينجو من هذه المعركة او يلاقي حتفه فيها...ولكنه على أية حال قد قرر الرجل مصيره في هذه الوقعة ، ولم يكن هناك حل وسط ، فاما ان يحيـا مرفوع الرأس وامـا ان يموت ويريح نفسه من حياته التعيسة .

وعندما قربت الليلة التي سوف تكون في صبيحتها المعركة عند ذلك اصابه قلق وارق ، وكان بوده ان يجد احداً يشكو أمره اليه ... ولكنـــه غريب وبين قوم كلهم يتمنون ان يشمتوا به ... ولم يكن هناك من يشكو اليه امره ولو على سبيل المجاز. اللهم الا فرسه التي يعلم ان المغامرة التي سيلقى نفسه في معمعتها سوف تشاركه جواده اياها ، وسوف يكون مصيرها مربوطاً بمصيره لا محـالة، ولذلك ذهب الفتى ينشد قصيدته التي يخاطب بها فرسه والتى عبر بها عن واقع أمره ابلغ التعبير حيث قال :

يا سابقي لَيلةَ قَرَبنا للينةْ عن واهجٍ بالصدر لو عنه تَدْرِين
لو جِيب لك صافيالعسل ما تَبينَه لجلك على حوض المنايا تُساقينْ
يَسْهَج قَطاتك كُلْ زَرَقا سَنينهْ عَساك مِنهْن يا جوادي تَعَتْقين

---

١ ـ لينة كانت موقع بئر اكثر ما يقطنها قبيلة شمر اما الان فقد اصبحت مركزاً للحكومة وتقع في الحدود المتاخمة للحدود العراقية .

الشرح : يخاطب الشاعر فرسه قائلا : لو كنت ايتها الفرس تعلمين ما عانيته ليلة البارحة من القلق والسهر وذلــك منذ قربنا من (لينة) التي ستقع فيها المعركة ، فلو علمت ما سوف تلاقينه غداً من سهام الاعداء التي سوف تنهمر على صهوتك ما بين أسنة الرماح وأنصلة السيوف ، لما قبلت اي طعام يقدم اليك ، بحكم انك سوف تساقين غداً مرغمة الى ابواب المنية .. ثم يمضي ويقـول : ولن يسعني الا ان اسأل الله تعالى وابتهل اليه ان ينجيك من شر هذه الرماح وتلك السيوف التي لا سلامة لك من خطرهن الا بعنايته الالهية ..

وما ان جاء صباح الغد حتى التقى الفريقان وحمي الوطيس بينهما ودارت الدائرة في بداية الامر على جنود ابن عريعر .. ولاذت فرسانه بالفرار ، لا يلوي احدهم على الآخر ولكنه ربح المعركة العريعر في آخر الجولة وذلك بفضل شجاعة الفتى نومان الذي كرّ على العدو بهجوم معاكس ، وبكرته هـــذه كان النصر حليفاً له .. وقد وفق ان يطرح اكثر من فارس وكان اذا طرح فارساً من اعدائه يأخذ عنان فرسه فيحتفظ به ويترك جواده يمرح ، فيأتي احــد فرسان قومه ويأخذ الفرس المطروح فارسها او المقتول صاحبها ، وبعدما تحققت هزيمة العدو على يد نومان ، عند ذلك عاد الى اميره معتقداً انه ليس بحاجة الى ان يقـــدم دليلا على شجاعته ، ففعله هو الدليل الكافي وحده ، ولكن رجال الامـــير « الشجعان » سعوا بكل ما لديهم من مكر بأن ينكروا شجاعته ويجحدوها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، حيث ذهبوا الى اميرهم وكل فرد منهم يفخر ويعتز بما ابداه من شجاعة وما قام به من بطولة وما من فارس يدعي هذه الدعوى الا ويستشهد على ما يدعي به بشاهد قوي ودليل واضح وهو وجود فرس من افراس العدو بيمينه .. وهذا دليل على انه هو الذي قتل صاحبها في ميدان القتال .

كثرت الافراس بأيدي المدعين ، كما كثر المدعون ايضاً ، ولا سيما من النفر

الذين يعلم الامير انهم ليسوا اهلا لما يدعون به ، اما الفتى نومان فانه لم يأت الى نادي الامير وانما ذهب الى زوجته التي تعهد لها ان يفي بوعـده مقابل حبكها ريش النعام لرمحه ، وعندما وصل اليها لم يخاطبها بأدنى كلمة ، وكل مافي الامر انه القى بين يديها أعنة الخيل ، كما قدم لها زرجة رمحـــه تقطر دما كدليل على وفائه بما تعهد به لها ، ثم ادبر من عندها فذهبت زوجة الامير وحملت الاعنة وقدمتها للامير ، وعندئذ انتبه الامير الى ذلك والقى نظرة الى الافراس التي جاء بها الفرسان اصحاب الدعاوي الملفقة ، فوجدها عارية من الاعنة ، فأدرك ما وراء ذلك فسأل الابطـــال عن موقف الفتى نومان في المعركة ، وهل كان شجاعاً ام جباناً فترددوا عن الاجابة الحقيقية ، وكل ما في الامر انهم اجمعوا على انهم رأوه في بداية المعركة قد (عزمت) [1] به فرسه ، نحـــو العدو ، وانهم لا يعلمون بعد ذلك هل ان فرسه طرحته ام لا ؟. «ومعنى عزمت به الفرس اي ذهبت به جواده تجري بدون ارادة منه ..»

وفي الوقت نفسه بعث الامير رسولا من عنده ليستحضر نومـان ، وعندما جاء الفتى أخبره الامير بما يقوله الفرسان عنه فاجاب نومان قائلا :

– أود ان يسأل حضرة الامير هؤلاء الوشاة الذين كما عرفتهم فرسانا بالاندية أين اعنة الخيل التي يزعمون انهم اغتنموها بعدما قتلوا فرسانها ؟..

فراح الامير يوجه اليهم السؤال نفسه ، فبهتوا جميعاً ، وعندئذ اتيحت الفرصة الذهبية للفتى نومان الذي اثبت انه شجاع في بيانه كشجاعته في سنانه وراح ينشد هذين البيتين في تلك الساعة وبصورة مرتجلة :

قَالوا عَزُومْ او قُلتسوُّا سواتي ارخوا لهن يا كاربين المصَارِيعْ

---

(١) المثل الشعبي عندنا يقول : اذا عزمت بك فرسك انتخي : اي اذا هجمت بك الفرس بدون ارادتك فانتخي واجعل ان القضية بارادتك .. اي كما يقال : مرغم اخوك لا بطلا ..

والى رَضى مَظنون عَيني شفَاتي   ذرنوح للذلان زَبّانة الرِّيع

الشرح : يخاطب الشاعر رجال الامير الوشاة ويفند دعواهم عليه بقولهم ان فرسه عزمت به فيقول : كذبتم ليس الامر كما تدعون بأن فرسي ذهبت تجري نحو العدو وبغير ارادة مني ثم يذهب ويقول (سووا سواتي) اي افعلوا ان كنتم رجالا فرساناً كما فعلت .. وهذا المعنى اشار اليه شاعر الهجاء الحطيئة بقوله :

اقلوا عَليهم لا ابا لابيكم   من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

لقد وبخ الشاعر الفارس خصومه توبيخاً لاذعاً اذ يناديهم بقوله (يا كاربين[1] المصاريع [2])

وفي البيت الثاني يقول : اذا رضي الامير عني واصبح ينظر الي بعين الاعتبار فلا يهمني بعد ذلك ما يقوله الواشون الجبناء ، اما قوله (ذرنوح) فالذرنوح هو السم ، معناه : انني القي في قلوب الوشاة الجبناء السم الذي يقطع افئدتهم لكي يموتوا بغيظهم .

* * *

(١) يا كاربين ـ اي ياقابضين ..
(٢) المصاريع ـ أي الاعنة .

اياك وصولة الكريم اذا اهين

- ١٨ -

هذا المثل سبق ان اطلعت عليه في احد كتب الادب العربي ، وهو كما يحذر من صولة الكريم اذ اهين كذلك يحذر عن تصرفات الاحمق واللئيم اذا بطر ..

ومحور قصتنا هذه يدور حول رجل له شهرة بالشجاعة والفروسية قلّ ان ينافسه عليهما احـد من ساكني شبه الجزيرة بعصره الا وهو « محمـد بن هندي بن حميد[١] » رئيس اكبر عدد من قبيلة عتيبة »[٢] .

واعتقد ان الذي يعرف الرجل او سمع بشهرته يشاركني الرأي فـيما اذا قلت ان الشهرة التي يتمتع ابن هندي بالشجاعة في وسط عـرب شبه الجزيرة بصورة خاصة كالشهرة المعروفة عن عنترة العبسي في عالم التاريخ العربي بشكل اعم واكمل ..

وكما ان عنترة يقول بشعره :

اثن عـليّ بما علمت فانني ... سمح مخالطتي اذا لم اظـلم
واذا ظلمت فان ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقـم

(١) راجع ص... ج... من شيم العرب للمؤلف .
(٢) تنقسم قبيلة عتيبة الى قسمين برقا والروقة. فبرقـة يرأسها بن حميد والروقـة يرأسهم ابن ربيعان .

كذلك محمد بن هندي يقول لسان حاله باللغة التي قالها عنترة ويطبق ذلك بصورة عملية على النهج نفسه الذي يطبق به عنترة طريقته اذا نيل من كرامته ، ومما لا شك فيه ان ابن هندي طبق ذلك قولاً وفعلاً .. وعمـــلا في كثير من الحوادث والمناسبات وفي مقدمتها تلك الحادثة التي وقعت في عام ١٣١٠ هـ وخـــلاصتها كما يـــلي :

لما كان حاكم نجـــد وقتذاك محمد العبد الله الرشيد يحاول ان يكون قاسياً على البدوي بصورة تختلف عن سياسته مع الحضرى ، فقد بلغه ان محمد بن هندي غزا قبيلة مطير واغتنم منها ابلاً كثيرة وافراساً اصيلات. فبعث من عنده رجالاً برئاسة سعد الحازمي من اجل ان يأخذ منه الحازمي جميع مـــا اغتنمه من قبيلة مطير ، وبالأخص الخيل العريقات بالاصالة، وكانت الخيل التي اغتصبها ابن هندي معروفة باصالتها كما يعرف افذاذ الرجال بين مجتمعهم ، وللخيل في ذلك العهـــد مكانة مرموقة ولا سيما الخيل المعروفة بالاصالة ..

وبقدر ما كان مندوبو الحاكم ابن رشيد حريصين على استلام الخيل التي دخلت في حوزة ابن هندي بقدر ما كان ابن هندي اشد منهم حرصاً على ان يلتمس شتى المبررات ومختلف الاعذار لعدم تسليم هذه الخيل لطالبيها ، وكان الحوار بـــين رئيس الوفد سعد الحازمي وبين الشيخ ابن هندي بصدد المطالبة بالخيل يدور بصورة لبقة وودية ولم يتجاوز حدود الآداب المرعية ، وكان ابن هندي ملتزماً حدود الادب امام الحازمي الذي يمثل سلطة حاكم البلاد بقدر مـــا كان الحازمي هو الآخر واقفاً عند حدود الادب ويحاول ان يأخذ ما يريده بطريقة سلمية، ومراعياً لشعور ابن هندي لا كفارس مرهوب الجانب فحسب ، بل وكزعيم اذا غضب يغضب لغضبه عدد لا يقل عن آلاف المقاتلين من قبيلة عتيبة الـــتي تعتبر من اكبر قبائل شبه الجزيرة واشدها بأساً وامنعها جانباً ..

كم من كلمة قتلت صاحبها

كان كل من رئيس الوفد الحازمي وابن هندي على وشك ان يصلا الى حل وسط يرضى عنه الجانبان لولا ان احداعضاء الوفد فرغ صبره ووجه لابن‌هندي العبارات الآتية :

– يبدو انك يا ابن هندي مثل بعض الناس[1] لا يعطي الحق الا بعد دقة الخشم .. ثم مضى عضو الوفد في حديثه اللاذع الى ان قال : واعتقد انك (اي ابن هندي) لن تعطي الافراس حتى نصب عليك غارة عنيفة كغارتنا عليك في(عروي)وكغارتنا عليك بجبل النير[2] عندما انهزمت ولذت بالفرار ودخلت جبل النير ومن ثم لحقناك في وسط الجبل واغرنا عليك وقتلنا رجالك وكغارتنا عليك عندما غزوناك وقتلنا ابن عمك عقاب ابن حميدالخ.. وعندما انتهى عضو الوفد من وعيده وتهديده اتجه ابن هندي الى رئيس الوفد قائلاً بكل هدوء وثبات :

– من هو هذا يا سعد ؟.. فقال رئيس الوفد : – شخص من الرفاق .

– ما اسمه ؟..

– فهد الصطامي .

– من أية بلاد ؟..

– من بلادنا حائل ..

وعندما انتهى ابن هندي من هذه الاسئلة اتجه نحو فهد الصطامي وقال :

---

(١) يقال في المثل الشعبي : فلان كالصلبي لا يعطي الحق الا بعد ان يهشم انفه والصلبي معروف انه وضيع النسب ، ولا يعتبره العرب انه من اصل عربي بل يزعم العرب ان الصلبي من سلالة الغزاة الصليبيين .

(٢) النير جبل كبير من جبال نجد .

ـ كل ما ذكرته من الغارات الي اشرت اليها والتي صبها علينا الحاكم محمد العبد الله كل ذلك حقيقة لا انكرها ولا نعاب بهـا لاننا نحـن الذين نتمرد على الحا كم ونتحدى سلطته عندما يحاول ان يمس كرامتنا . ولكن العيب علينا اذا استسلمنا للهوان والعسف والعار علينا اذا اسمعنا امثالك كلاماً كهذا الكلام الجارح لكرامة الرجل الابي ، ثم بعد ذلك اذعنا خوفاً من تكرار مثل هذه الغارات علينا التي تشير بها ومن ثم سلمنا كم ما تطالبونا به .. والعيب علينا اذا لم اعلن على حا كمك الحرب من هذا المكان ، فاذهب وقل لاميرك ان ابن هندي رفض ان يسلم الخيل بل وقل له انه رفض ان يسلم ناقة واحـدة من الابـل التي اغتنمها من قبيلة مطير وقل له فليأت ويكرر غاراته الـتي هي امتداد لغاراته السابقة ، وعندما وصل ابن هندي هذه الجملة صمت قليلاً ثم قال هـــذه العبارة نصاً حرفياً :

ـ قل آمين يا فهد الصطامي . فقال الصطامى :

ـ ماذا تقصد من ذلك ؟ فردّ عليه ابن هندي بقوله :

ـ سوف اخبرك بالشيء الذي اقصده فيما اذا قلت آمين.. ثم زاد قائـــلا : قلها لا تخف فالرجل الذي يتحدى بوعيده وتهديده رجلا من امثالي يجب عليه ان يكون شجاعاً وان يتحمل على عاتقه مسؤولية تحديه بدون مبالاة بما ينجم عما سوف يلاقيه ..

فقال الصطامي :

ـ اجل اقول آمين آمين آمين ، بأن تعلن علينا الحرب ، ومن ثم نأتيك في عقر منازلك ونصب غارتنا عليك كما كنا نفعل من قبل .

فقال ابن هندي :

ـ وانا اقول آمين انه في اليوم الذي تأتونا به بجيشكم اللجب : (ان تمتليء

عيني من رؤيتك[1]) .

واخيراً انتهى الامر عند هذا الحد ، اي ان ابن هندي تمرد على حاكمه واعلن الحرب عليه غير مبال بما ينجم عن ذلك من نتائج وخيمة العاقبة .

وعند ذلك قفل رئيس الوفد الحازمي راجعاً الى اميره محمد الذي بمجرد ما بلغه تمرد ابن هندي اعد العدة وجهز جيشاً عرمرما يقوده هو بنفسه فراح وصب غارته على ابن هندي ، ونهب ابله بدون ان يبدي ابن هندي في بداية المعركة ادنى مقاومة .

ساقه القدر بين يديه

وعندما اغتنم كل فارس غنيمته وذهب بكسبه ، عند ذلك كرّ الفارس ابن هندي بهجوم معاكس فكان القدر ساق فهد الصطامي بوجه ابن هندي فكانت فرحته وسروره برؤية عدوه الذى اثار حفيظته تعادل حزن وبؤس وشؤم الصطامي عندما رأى ابن هندي الذي قده بحسامه بضربته القاضية . ولم يكن الصطامي ضحية ابن هندي وحده في كرته تلك بل قتل اكثر من فارس في هجومه ذلك العنيف وفي مقدمة الفرسان الذين قتلهم ابن هندي من قبيلة شمر الفارس الشاب نمر ابن برغش بن طواله رئيس عشيرة الاسلم كما انه في الوقت ذاته استعاد ابله كلها في كرته تلك .

وما آفة الاخبار الا رواتها

هذه القصة رويتها من عدة رواة من الشيوخ الذين عاشوا تلك الحوادث وشاهدوها رؤية العين ، والقصة من حيث الاصل مشهورة عند الكثير من

---

(١) هذه العبارة التي بين قوسين نقلت من اكثر من واحد من الرواة شهود العيان وكل منهم يؤكد ان هذه الجملة نطق بها ابن هندي نصاً حرفياً كما اوردتها اعلاه ،

ساكني نجد خاصة ممن لهم ادنى المام في معرفة تاريخ الاحداث ، ولكن الخلاف يأتي من حيث المتن بالرواية التي فيها تباين نسبي ، بين الرواية المشهورة المتبادلة بين عامة الناس ، وبين الرواية التي اوردتها بالسياق . فالرواية المشهورة عند العامة الذين ينقلون الاخبار من غير مصادرها المطلعة ، تفيد بأن مصرع الفارس فهد الصطامي على يد الفارس محمد بن هندي جاء نتيجة لكون الصطامي (شرب فنجال ابن هندي[1]) وهذه الرواية وان كانت من حيث الاصل متواترة ومشهورة ، ولكنها لا صحة لها البتة ، وفي هذه المناسبة لا بد لي ان اشير الى الرواية التي نقلتها عن المرحوم « سرور العبد العزيز[2] » فيقول الراوي : اجتمع ذات يوم في نادي الامير محمد بن رشيد الفارس « قنيفذ بن لبده » فارس قبيلة قحطان واحد رؤسائها الكبار . وفارس قبيلة عتيبة « محمد بن هندي » السالف الذكر ، ولما كانت الحرب بين القبيلتين قائمة على قدم وساق وبصورة مستمرة فقد حصل تفاخر ومناظرة بين الفارسين ، وكل واحد منهما ذهب يعد الانتصارات التي انتصر بها قومه على اعدائهم ، وقد بلغ ابن هندي من الافتخار بشجاعة قبيلته بصورة عامة وبشجاعته وفروسيته بشكل خاص درجة اثارة حفيظة شاب عادي من جماعة ابن لبده الامر الذي جعله يتحدى ابن هندي قائلا له : « اشهدوا علي ايها الحاضرون بانني شارب لفنجال ابن هندي ، وعلي عهد ان رأته عيناي في ميدان القتال فلن اتخلى عنه حتى اقتله او يقتلني » . وبما ان صاحب هذا التحدي رجل كما اسلفت غير معروف . فقد وجه ابن هندي سؤالاً لابن لبده قائلا : « من هو هذا يا قنيفذ ؟ » فتولى الاجابة الشاب نفسه قائلا :

(١) يقال بالعادات المألوفة القديمة ان الفارس فلان شرب فنجال الفارس فلان في حفل ما ومعناه انه بصورة موجزة ان الاول طلب مبارزة الاخيرة .

(٢) سرور من اهالي حائل .

« انا شاب من رعاة قبيلة قحطان لا اهمية لي ولا قيمة . ومن اجل ذلك اجدني زاهداً بحياتي . وهذا مما يجعلني اتحداك واطلب منازلتك ، فان قتلتني فلا اراني نادماً على حياتي التعيسة التي لم انل فيها ذكراً حميداً وان قتلتك ، فسوف اتصدر المجالس ، وسوف يقال لي بين ظهراني قبيلتي « تفضل يا قاتل ابن هندي فارس عتيبة » .

يؤكد لي الراوي ان ابن هنـدي عندما اسمعه الشاب هـذه العبارات بانه تنهد ثم انحرف بوجهه الى الامير ابن رشيد وقال : الحقيقة انني لا اخشى الموت من تهديد او وعيد اي فارس كان كما اخاف الموت واخشاه من مغامر طائش كهذا الشاب[1] ثم اردف قائلا : ولكنني اضرع الى الله وابتهل اليه انه في اليوم الذي التقي به وهذا الشاب اسأله تعالى ان يعينني عليه او يكفيني شره .

وبعد فانني عندما اقارن بين الرواية المشهورة القائلة : « بان فهد الصطامي شرب فنجال ابن هندي وطلب مبارزتـه الخ.. وبـين الرواية التي نقلتها عن سرور كما اوردتها في السياق اقول : عندما اقارن بـين هـذه وتلك ، تتوفر لدى النتيجة الآتية : وهي ان الشاب القحطاني التقى بابن هندى وبارزه في احدى المعارك . وان ابن هندى

---

(١) يذكر تشرشل في مذكراته انـه بلغه ان هناك شاباً يحـاول ان يغتاله لا لهـدف ، وانما هو بدافـع يحدوه في حبه لقتل العظماء ويقول تشرشل : ان مثل هذا الشاب هو الذي يخاف منه الانسان الخ ..

قتله . ومن هنا جاء الاضطراب بالرواية والخلط بين قصة الصطامي التي شرحت تفاصيلها وبين قصة الشاب القحطانى . والذى يجعلني اكون وطيد الاعتقاد بصحة نظريتي هذه هو ان الشاب القحطاني طلب مبارزة ابن هندي في مجلس ابن رشيد . ومن المعروف ان فهد الصطامي من حاشية ابن رشيد ، وهذا مما يجعل الاضطراب بالرواية يزداد التباساً .

الفَصلُ الثَاني

الشَجَاعَة الأدبيَّة

شجاعـــة السنان وشجاعـــة البيان صنـــوان . بعضهما متمم لبعض .

(حكمة عربية)

الجندي المجهول

- ١٩ -

حرصت كثيراً على ان اعرف اسم بطل قصتنا هذه التي سوف اوافي القارىء بتفاصيلها ولكن رغم حرصي الشديد ما استطعت ان اصل الى معرفة اسمه في بداية الامر . ولذلك حرصت على ان اسمي بطل القصة بـ (الجندي المجهول) ، والسبب الذي جعلني اطلق على بطل قصتنا هذا الاسم امران :

اولهما : ان سياق القصة يوحي بان الرجل مجهول في مجتمعه .

ثانيهما : ان اسمه ظل مجهولاً لدي حتى بداية كتابة هذه الاسطر رغم مابذلته من جهد لمعرفة اسمه ، ولما كان شلهوب الذي صاحب المرحوم الملك عبد العزيز طول حياته ، لا زال على قيد الحياة وهو في العقد العاشر من عمره فقد طلبت من الاخ الاستاذ عبد الله بن خميس بأن يسأل شلهوباً عنه وان يتحقق عن صحة الحادثة ، فجاءني الجواب من الخميس يفيد ان الحادثة حقيقية وان اسم الشخص ابراهيم العبيلان الجاسر .

وقصة الجندي المجهول تبتدىء على النهج الآتي :

قبل ان يوحد الجزيرة المغفور له الملك عبد العزيز كانت البلاد وخاصة نجد في حالة من الحروب القبلية والتطاحن الاقليمي وعدم الاستقرار السياسي . وعدم استقرار الامن الشيء الذي لايستطيع ان يتصوره إلا من عاشه وشاهده.. لقد

كانت القيادةموزعة والاتجاهات متباينة ، والمواطن لا يستطيع ان يسير مساحة محدودة من الارض ، الا بواسطة حراس يستأجرهم ليتعهدوا بحمايته من رجال قبيلةهذه الارضالتي يمر بها ، واذا تجاوز حدود هذه القبيلة اضطر ان يستصحب حراساً آخرين .. وهكذا دواليك والا سوف يكون عرضة لنهب مـاله واراقه دمه . .

كان الحضري يلاقي من الصعوبة والعنـاء الشيء الكثير ، ولا سيما الحضري الذي يحترف التجـــارة ، وبالأخص ساكني القصيم . فهؤلاء هم اكثر اهل البلاد اقبالا على الاعمال التجارية كما كان لهم اتصال مستمر بالبلاد العربية الاخرى كمصر والشام والعراق حيث يجلبون الابل والغـــنم من الجزيرة العربية الى تلك البلاد فاذا باعوا هذه الاشياء تبضعوا بثمنها الاشياء التي يستهلكها اهل بلادهم كاللباس والاشياء الاخرى الضرورية وبسبب اعمالهم هذه أصبحوا بحكم الضرورة مرغمين على طلب المسالمة والمهادنة لكل حاكم او زعيم قبيلة يمرون بتجارتهم في ارضه .

وبالرغم من العداء التقليدي بين اهل القصيم وبين حاكم منطقةالشمال وقتذاك ابن رشيد ، فان أهل القصيم أو اهل مدينة بريدة بالأخص وجـــدوا أن من مصلحتهم التجارية أن يعقدوا مع ابن رشيد هدنة لان هذه الهدنة سوف تجعلهم بمأمن من غارة قبيلة شمر التي لابد لقوافل اهلالقصيم من اجتياز ارضها .ولذلك تمت معاهدة السلم بين اهل القصيم وبين ابن رشيد .

وقد تمت هذه المعاهدة بدون عـلم من الامـام عبد العزيز بن سعود الذي يقع القصيم ضمن الحدود التي يحكمها ، وكان على اهل القصيم أن لا يقطعوا شيئــاً من تلك المعاهدات الا بعد أخذ الاذن والموافقة من حاكمهم الشرعي الإمام [١] ابن السعود ، الامر الذي جعلهم يختارون نخبة من اهل الحل والعقد من اعيانهم

(١) كان الملك عبد العزيز يقال له الامام قبل ان يوحد البلاد .

ليذهبوا من بريدة الى الرياض، لا ليخبروا حاكمهم بالمعاهدات التي اصبحت امراً واقعياً ، وانما ليطلبوا رضاه بعد أن يشرحوا له الضرورة التي اضطرتهم الى ان يقدموا على امرهم هذا .

وفعلا اجمع الرأي على انتخاب مجموعة من اعيان البلاد ليذهبوا للرياض من أجل ان يعتذروا من حاكمهم . ويطلبوا رضاه ، ذلك الرضى الذي هو أحب اليهم واعز من مهادنة ابن رشيد عدوهم اللدود .

هذا وقد تألفت جماعة من رجال اهـــل البلاد وتجارهم . وشدوا الرحال متجهين نحو الرياض . وبعد ان نزحوا عن مدينة بريدة مسافة خمسة أميال لحق بهم بطل القصة الجندي المجهول . فتركوه وشأنه اعتقاداً منهم أنه سوف يمضي يومه معهم الى طريقغير طريقهم وهدف غير هدفهم . ثم يفترق عنهم نحو القرية التي ينوي الذهاب اليها . هكذا كان ظنهم في رفيقهم الجديد . ولكن سرعان ما اتضح لهم ان ظنهم هـــذا كان خاطئاً خاصة بعدما تجاوزوا جميع القرى والاماكن التي يتوقعون ان رفيقهم ينوي الذهاب اليها .

عندئذ اضطروا لأن يسألوهعن اقصى بلد يقصد السبيل اليها . وعندما سأله احدهم . أجاب فوراً . اقصد الرياض .

– ما هو قصدك من الرياض ؟..

– نفس القصد الذي تذهبون من اجله ؟

– نحن لسنا ذاهبين للرياض بغية مصلحة خاصة . وانما ذهابنا من اجـــل مصلحة البلاد العامة .

– وما الذي يمنعني من مشاركتكم القيام بهذه المصلحة العامة ؟.. او لست من عامة اهل هذه البلاد ؟؟

– نحن منتخبون من قبل اهل البلاد لتأدية مهمتنا الضرورية .

– لا اعتقد ان جميع اهل البلاد اجمعوا على انتخابكم فانا واحد مثلا من اهل البلاد لم يؤخذ رأيي ، وغيري كثيرون من المواطنين الذين ربما لا يعلم احد منهم عن سفركم هذا شيئاً .

– طبعاً لم يؤخذ رأي الدهماء في مهمة كهذه وانما يؤخذ رأي الاعيان من اهل البلاد وكبار الجماعة .

– اتستطيعون ان توافوني بعلامة فارقة يمتاز بها المواطن الذي يؤخذ رأيه في الاشياء التي لها علاقة ماسة في مصلحة البلاد عن المواطن الذي لا يؤخذ له فيها رأي .؟؟

– الذي يؤخذ رأيه يكون من اهم شخصيات البلاد البارزين .

– معناه ان المواطن الذي لم يكن لديه من وفرة المال وذيوع الصيت لا يصح ان يؤخذ له رأي حتى ولو كان مواطناً مخلصاً ولديه من سداد الرأي ما لا يوجد عند غيره من ذوي الأموال الطائلة والجاه الرفيع .؟

– أنت تتطفل بأحاديث ليس من حقك البحث بها .

– عندما اتدخل في شؤون تجارتكم الخاصة أو اعترض على اعمال أي فرد منكم اكون وقتئذ متطفلا . اما انكم تعترفون على انفسكم بأنكم ذاهبون لحاكمنا في الرياض للبحث في امور لها علاقة في مصلحة أهل البلاد العامة . عندئذ لا أكون متطفلا فيما اذا طلبت مشاركتكم بهذه المهمة لأن الحقوق الوطنية ظاهرة مشاعة لجميع المواطنين ، وليست وقفاً محصوراً للغني دون الفقير ، ولا للمواطنين ذائعي الصيت ، دون المواطن الخامل .

– نحن نعلم ماذا تريد من وراء هـذا الحديث الطويل ؟.. وماذا تقصد من وراء سفرك هذا ؟..

– ماذا تظنون ؟.. وما هو قصدي برأيكم، من وراء سفري هذا ؟..

– نحن لا نكتمك الحقيقة فيما اذا اكدنا لك بأننا واثقون بأن منتهى امنيتك من سفرتك هذه هو ان تنال هبة من الامام تستعين بها على نوائب الدهر .

– هبوا انكم محقون بحديثكم هذا ، ولكن هـل من الشيمة ان تجرحوا شعور مواطن يشارككم آمالكم وامانيكم الوطنية ويغار عـلى بلاده وأهلها كما تغارون على بلادكم .؟؟

– نحن لم نقصد ان نمس شعورك وانما أردنا أن لا تتكلف نفقات الطريق ومشقة السفر ذهاباً واياباً مدة طويلة ، ولذلك قررنا ان نتبرع لك بهبة من عندنا جميعـاً تكون ضعفي ما تتوقع أن يهبك اياه الامام ابن سعود . ومن ثم تذهب عائـداً الى اهلك غانماً الراحة وضامناً للفائدة .

– بقدر ما كان حديثكم الاول جارحاً لشعور المواطن الغيور الحساس بقدر ما اجد حديثكم الاخير قاتلاً لكرامة العربي الابي ، ولئن دل اسلوبكم هـذا على شيء فانما يدل عـلى انكم لا ترون للمواطنين وزناً ولا حرمة الا بقدر مـا يناله من المال الفاني .

– لم يكن حديثك هذا بكراً من نوعه بل سبق ان سمعنا من تجار الكلام ومحترفي الجدل كثيراً من هذا الشكل .

– الجواب الحاسم الذي سيكون فصل الخطاب بيننا هو ان اترككم وشأنكم تسيرون لوحدكم . وانا أسير بمفردي حتى نصل الرياض عنـد ذلك سوف أجدني

ملزماً تجاه واجباتي الوطنية بـأن اشاركم الحديث الذي له علاقة بمصلحـة وطننا المشترك ، ولكم عليّ أن التزم الصمت فيما اذا كانت محادثتكم محصورة على اعمالكم التجارية الخاصة وخارجة عن مصلحة بلادنا العامة ... كما لـكم عليّ ان التزم الصمت ايضاً فيما اذا وجدت بينكم من فيه الكفـاءة والحنكة لمواجهة مـا سيخبئه لنا القدر عند مواجهة الامام عبد العزيز الذي لا اشك بأنـه غير راض عن اقدامكم على عقد الهدنة مع ابن رشيد ، قبل أخـذ رأيه في الموضوع . وفي الختام هذا فراق بيني وبينكم . وسوف لا اجتمع بكم الا في آخر يوم ندخل بـه مدينة الرياض كي نسلم على الامام عبد العزيز سوياً ولأنظر عن كثب الموقف الذي سيقفه منكم الامام ، وأؤكد لكم ثانية بأنني سوف أظل صامتـاً الا اذا دعت الضرورة للجواب ، هذا وقد ذهب الجندي المجهول ممتطياً ذلوله قاطعاً الفيـافي بمفرده – الى ان دنى رفاقه من مدينة الرياض .

هناك التحق بهم وانخرط في صفوفهم .

وما أن أناخوا رواحلهم بقرب باب قصر الامام حتى قدم اليهم (المضايفي) أي رئيس التشريفـات ابراهيم بن جميعه الذي يعرفهم واحداً واحدا ما عـدا الجندي المجهول .

تقدم أمامهم ابن جميعه وسار الوفد خلفه قاصدين السلام على الامام وبعـد السلام وتبادل التحية . اديرت كؤوس القهوة – بعد ذلك انحرف نحوهم الامـام يستفسر منهم عن صحة المعاهدة المبرمة بينهم وبين ابن رشيد وكان في سؤاله هذا ما يوحي بأنه ليس متأكداً من صحة الخبر فأجابه احدهم بما يؤكد صحة الامر الواقع واسترسل المتحدث بكلامه الذي اراد ان يبدي فيـه العذر والظروف الماسة التي الجأتهم الى مهادنـة العدو المشترك ، ولكن الامام قطـع الحديث على المتحدث ووجه اللوم الشديد على الوفد مؤنباً اياهم بالكلام القاسي لا باقدامهم على عقد الهدنة مع عدوه وعدوهم فحسب بل لكونهم لم يستأذنوا منه في بداية

الامر ، وبعد ما أسمع الامام الوفد الكلام الذي وضعهم في مأزق حرج ، حيث جعل كل فرد منهم يتصبب عرقاً .

وبعد ذلك صمت قليلا ينتظر منهم الاجابة ولكن القوم اصيبوا بذهــــول أخرس السنتهم عن الجواب . وعندئذ انحرف نحوهم الامام ثانية فقال :

أما فيكم من يجب ؟ . .

وهنا قفز الجندي المجهول وانتصب كالرمح ثم اتجه نحو الامام بهدوء صارم وقال

(نحن هنا يا طويل العمر نمثل مئات الالوف من رفاقنا وجماعتنا (اولاد علي) كنية لاهل القصيم : ورد الجواب الذي تطالبنا به سوف تراه وتسمعه قريباً من رفاقنا حال ما نصل هناك ...

قال الجندي المجهول ذلك، ثم انصرف بوجهه الى رفاقه وقال هيا بنا فما كان من من رجال الوفد الا ان لبوا نداءه، وراحوا يقتفون اثره بشعور يحدوه الاحترام والتقدير لشخصه .

أما الامام المرحوم عبد العزيز بن سعود . فانه وان لم يعر جواب هــــذا الرجل شيئاً من الاهتمام في ظاهر الامر. ولكنه في طيات نفسه . وبصورة غير محسوسة، أدرك كزعيم ينوي توحيد شبه الجزيرة ، بأنه ليس من الحكمة ان يخسر أهــل القصيم الذين يرجحون كفة الميزان في الصراع القائم بينه وبين عدوه ابن رشيــد لا من اجل كثرة عددهم وقوة بأسهم وبسالتهـم، كأبطــال مدربين على المحن والحروب ، فحسب ، بل من اجل موضع بلادهم الاستراتيجي المتوسط في قلب المعمعة بين القوتين المتحاربتين الامر الذي جعل موحــد الجزيرة يستدعي فوراً الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ الذي يعتبر المستشـــار السياسي الاول للامام عبد العزيز والدماغ المفكر لحل المعضلات . وتذليل العقبات، وما أن علم الشيخ بالامر حتى بعث مندوباً من قبله يؤكد على الوفد رغبة الشيخ بتلبية

دعوته لتناول الغداء عنده في اليوم الثاني ، فما وسع الوفد الذي كان على أهبة لاستعداد للسفر الا أن يلبي الدعوة لا من اجل ما يتمتع به الشيخ من مكانة سامية محترمة عند الحاكم فقط - بل ولما يتمتع به ايضاً من منزلة روحية واجتماعية عند ساكني نجد بصورة عامة بصفته عميد اسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة السلفية التي يؤمن بها ويعتنقها ساكنو نجد من شرقها الى غربها ، على الرغم من تنازعهم واختلافاتهم السياسية يضاف الى ذلك أن الشيخ عبد الله يمثل بدهائه لحل المعضلات عمرو بن العاص وبحنكته لحل البديهيات المغيرة بشعبه. وبوقاره وسماحته الاحنف بن قيس ، وبكرمه المتناهي الذي لا حد له حاتم الطائي. ونهاية القول هو أن المؤرخ الذي درس تاريخ بلادنا العربية بدقة وامعان وترو وعمق فانه سوف يعتبر الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف هو الركيزة الاساسية الذي يعتمد عليها بالذات الملك عبد العزيز حيث كان له بلا شك اسبقية الفضل بمؤازرته بتوحيده لجزيرتنا هذه (وانني اذ انساق بقلمي بتحليلي لشخصية الشيخ عبدالله فانني ارجو أن يسمح لي القارىء فيما اذا اعتبرني خرجت نسبياً عن نطاق الموضوع الذي نحن بصدد ذكره . وذلك لأن دراستي لشخصية هذا الرجل الذي لم يمنحه المؤرخون ادنى شيء مما يستحقه أملت عليّ ذلك ، يضاف الى هذا ان ذكر اسم الشيخ جاء متصلا بالقضية اتصالاً لا ينفصل بل هو الحد الفاصل لنهايتها) ..

وفي صباح الغد ذهب الوفد للشيخ تلبية لدعوته . يتقدم الجندي المجهول الذي اتجهت نحوه الانظار ، وسلطت عليه الاضواء، حتى اصبح صاحب الكلمة الفاصلة بين رفاقه والقائد لهم بعد ان كان منبوذاً عندهم بالامس وحينما انتهوا من الغداء الطيب بعد ذلك استأذنوا الشيخ قاصدين وداعه اشارة الى عودتهم الى اهلهم، فكان جواب الشيخ الموافقة على ذهابهم من عنده على اساس ان يعودوا اليه مساء لتناول العشاء وفقاً للعادات المألوفة في البلاد وقتذاك القاضيه على المضيف الذي يقدم لضيفه وجبة الغداء - بأن يقدم له وجبة العشاء ايضاً - فما وسع

الضيوف الا تلبية دعوة الشيخ التي التقت وتقاليد البلاد الموروثة على صعيد واحد..

وفي المساء جاء المدعوون وفي مقدمتهم الجندي المجهول الذي احتل الصدارة بين رفاقه وفي نظر الشيخ معاً.

ابدى الشيخ عبد الله لضيوفه اهتماماً بالغا وعناية لا مزيد عليها بدون ان يأتي على ذكر الموضوع بادنى اشارة – وانما ظل يبحث معهم في بحوث عامة الى ان أوشكوا ان ينتهوا من طعامهم الذي يحتوي على ما لذ وطاب، عندئذ جاء الشيخ الى ذكر الموضوع باسلوب لبق وبطريقة غير مباشرة، ابتدأ اولا بالابتهال الى الله لجمع كلمة الاسلام. وتوحيد شمل امة محمد ﷺ - على الكتاب والسنة -. ثم انتقل الى ما يتمتع به الامام عبد العزيز من صفات الزعامة من عفة وتواضع وتقوى وكرم الخ من الصفات الحميدة المعروف بها «الملك الرجل».

وبعد ذلك جاء الشيخ الى ذكر شيء عن الصفات التي غالباً ما يعبر عنها بشذوذ العباقرة، ومن هنا بدأ الشيخ يتدرج رويداً رويدا بحديثه حتى وصل الى الجملة التي اشار اليها بقوله: (ان الامام عبد العزيز ينفعل احياناً فيغضب غضباً لا ينجو منه أحب الناس اليه فيما اذا كان موجوداً عنده في حالة ثورة غضبه وهذه الحالة لا تعدو أن تكون كسحابة صيف تنهمر لحظه ثم تنقشع.

أدرك جميع الضيوف ماذا يقصد الشيخ، ولكن ما من احد يستطيع أن يتصدى للحديث من رجال الوفد بوجود الجندي المجهول، ولكن الجندي حاول أن يجعل نفسه انساناً أبله لا يفهم شيئاً عن اي حديث يمت الى مثل هذه الاشارة بادنى صلة، ولم يسع الشيخ الا أن اعاد المعنى نفسه، ولكن باسلوب اكثر وضوحاً من الاول، منتظراً الاجابة، أو أي تعليق من احد الضيوف بصورة عامة، ومن الجندي المجهول بشكل خاص. ولكن الضيوف بقدر ما كانوا يحسنون الاصغاء والاستماع للشيخ كانوا مذعنين لزعيمهم المجهول، تاركين له وحده صدور الجواب، ولكن الجندي المجهول تجاهل كلام الشيخ وابدى لرفاقه اشارة

خفية فهموا أن اشارتـــه هـــذه تعني القيام عن المائدة والاستعداد للخروج ، وعندما ادرك الجندي النكرة ان رفاقه فهموا ما يعني قفز عن المائـدة شاكرا الشيخ على ما ابداه من سخاء وكرم . ومظهراً له تأهبه ورفاقه للسفر الى اهلهم . من مكانهم هذا، فلم يكن للشيخ من بد الا ان يؤجل خروج ضيوفه لبينما يحتسوا اكوابا من القهوة. وتدار عليهم « المدخنة » وهي نوع من الرائحة الطيبة –ومن ثم يواجههم بالحقيقة التي هي اصلاح ذات البين . وسد الرتق قبل ان يتسع ، وبعد ان استجاب الضيوف لطلب مضيفهم بالتأجيل لاكمال الضيافة في تلك اللحظة ، اتجه الشيخ نحوهم او بعبارة اوضح ، نحو الجندي الذي لا يعرفه ، وقال : دائماً يكون سوء التفاهم بين القريب وقريبه وبين الاخ واخيه وبين الاسرة بكاملها . بل وبين الابن وابيه . ولكنه لم يبلغ الذروة بصورة كبيرة ما دام أنه يوجد بين الاخوان او في قلب الاسرة رجال سليمو النية والعقل بعيدو النظر يدركون بعقلهم الثاقب ان اي خلاف يقع بين الاسره فانما هو على حساب تشتيت شملهم جميعاً ، ولن يربحه الا عدوهم المشترك . ثم استطرد الشيخ الحكيم الداهية فقال ما معناه : لقد تأكدت من سوء التفاهم الذي حدث بينكم وبين الامام عبد العزيز وهو شيء وان كان مجازيا لا يستحق الذكر . ولكنني اخشى ان يتخذ منـــه دعاة التفرقة ورجال السوء واعداء الطرفين وسيلة لاتساع هوة الخلاف ، بـــين الاخوان الاشقاء المتحابـين وانني اطلب منكم كوالد وفيّ مخلص للجميع بأن لا تذهبوا من هنا حتى تودعوا الامام وترضوا عنه ويرضى عنكم .

وهنا تصدى الجندي المجهول للحديث فقال : نحن لولا رغبتنا الاكيدة برضاء الامام لما شددنا الرحال من مكان بعيـــد وجئنا الى هنا لنعرب له عن ولاءنا وصدق نوايانا ، ونوضح الاسباب لاضطرارية الماسة التي الجأتنا الى مهادنة عدو لنا وله . ولكن الامام صب علينا جـــام غضبه بدون ان يستمع الى وجهة نظرنا . ولو كانت تلك الاهانة التي صدرت عنه موجهة لفرد منا او لنا جميعاً كافراد لما اشكل علينا الامر ، ولما كنا كوفد يمثل اهالي القصيم الذين يشكلون اكبر عدد

في نجد . فاننا نرى ان الاهانة التي سمعناها كانما هي موجهة لاهـل بلادنا جميعاً ولذلك وجدنا ان الامانة التي انيطت باعناقنا كممثلين لقومناتقضي بأن نرفع الامر الواقع لأهل بلادنا على علاته . ولهم وقتذاك ان يتصرفـوا كما يشاؤون ، » قال الجندي المجهول هذه العبارات ثم قفز ماداً يده للشيخ اشارة للوداع كما مثل رفاقه نفس الدور الذي فعله صاحبهم ولكن الشيخ لم يكن حريصاً على وداعهم بهـذه الصورة . وانما قال : الا ترون انى بمنزلة الوالد الروحي لكم وللطرف الثاني ؟

– قالوا جميعاً : بلى .

– قال اذن من حقي عليكم ان تلبوا رغبتي التي تتلخص بشيء واحدوهو ان تضمنوا لي تناسي الموضوع من جانبكم بالكلية . كما انني سوف ابذل جهدي لأن يتناسى الامام الموضوع الذي اثاره من جانبه ، أجاب الجندي المجهـول بقوله : أنا شخصيا موافق على رأيكم يا والدنا من حيث المبـدأ ولكن بعد الاحتفاظ بشرطين لا ينفصل بعضها عن بعض . احدهما . ان تضمن لنا تناسي الامر من جانب الامام. وعندئذ نتعهد لك نحن بتناسي الامر من جانبنا ـ ثانياً ان يوافق رفاقي على ما وافقت عليه بهذا الصدد ثم انحرف الجندي المغمور نحو رفاقـه ، يستفسر منهم رايهم في الموضوع. فكان الرد منهم جميعاًيشير الىموافقة صاحبهم وتأييد رأيه

وبناء على رغبة الشيخ الذي يعتبر موضع ثقة لدى الجانبين ، تأخر الوافدون عن سفرهم المرتجل . ولم يعودوا الى اهلهـم الا وقلب كل منهم طافح بالسرور والرضاء عن امامهم وزعيمهم عبد العزيز . وذلك بفضل جهود ومساعي وصلاح قصد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الذي كان كما اسلفت من ابرز العوامل وأهم الاسباب التي اعانت الملك عبد العزيز على تأسيس وحدة الجزيرة العربية . تلك الوحدة التي لا يقدر أهميتها الا من يعرف ما كانت عليه البلاد من تفرقـة ونهب وسلب وسفك لدماء الضعفاء على ايدي الاقوياء . الخ . .

وبعد فقد رويت هذه القصة من عدة مصادر والمصدر الثقة الذي اذكره هو المرحوم محمد بن ماضي ، والذي جعلني اثـق بصحة حدوثها ليس الا وفرة القرائن والادلة الآتية :

اولا – نوفر الادلة التاريخية الآتية كما يلي : منها ان اهل القصيم عقدوا هدنة مع ابن رشيد بعد وقعة جراب عام ١٣٣٣ هـ .

ثانياً – مجيء ذكر الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ في القصـــة ، والشيخ عبد الله ثابت لدى كل من يعرف تاريخ نشوء حكومة المغفور له الملك عبد العزيز انه من أقوى الدعائم الجذرية الاصيلة في توطيد اسس تلك الحكومة وامنع الحواجز الدفاعية التي يعتمد عليها مؤسس الدولة في مواجهة الازمات وحل المعضلات المستعصية .

صاحب الحق منصور وان كان ضعيفاً

- ٢٠ -

يعجبني الرجل الذي يؤمن بأن الاجل محدود ، وان الرزق مضمون ، وان ما اصابه لم يكن ليخطئه، وما اخطأه لم يكن ليصيبه ، ومن يؤمن بهذه الحقيقة الواقعة فانه بلا شك سوف يعيش عزيزاً شامخَ الانف مدى الحياة ، فان اهين لم يستسلم للهوان ، وان نال من كرامته ذو سلطان فانه لا يستكين ولا يخنع خوفاً من العقاب ، ايماناً منه بان صاحب هذا السلطان انسان فان مهما طال الزمن به او قصر ، وان الحياة تمر كوميض البرق الخاطف ، فما هي قيمة هذه الحياة الوجيزة اذا لم يحي الحر فيها ابياً ، مرفوع الرأس ، وعلام يذعن للاهانة وينقاد للخنوع ، ويبيت على الضيم وهو يعتقد ان الحياة اعز من ان يقبل الابي فيها بالخسف، واقصر من ان يعيش فيها الحر ذليلا مهاناً، فلا فض فو الشاعر المعاصر احمد الصافي النجفي القائل :

وأعجب من شعب يبيت على الاذى

ومن رجل بالناس يرمى ولا يرمي

اقولها ثانية وثالثة : يعجبني الحر الابي الذي يؤمن بهذه الفلسفة ويطبق هذا المنطق ، ويقف بوجه المتعجرف المأخوذ بزهو جاهه كما وقف ذلك النجار الفقير

القروي المتواضع المدعو فهد الرقابي [١] ـ من يوسف العتيق [٢] وهـذا الاخير من الرجال ذوي المكانة المرموقة بين مجتمعه ، لا لكونه شقيق ناصر الذي هـو اشبه ما يعبر عنه برئيس ديوان الامير وأمين سره الخاص ، لا ليس من اجـل ذلك ، وانما لكون يوسف رجلا وقوراً وذا رأي سديد ، وكثيراً مايولى مهاماً كبيرة فيامارة محمد العبد الله ، كما انه يرجع اليه في معرفة القضايا العربيةالشعبية الخاصة في تقاليد وعادات رجال ذلـك العهد والحكم الذي يحكم به يوسف ، يكون مقبولا عند كلا الجانبين [٣] .

فقد يوسف العتيق بصره في آخر حياته .. وفي ذات يوم سقط ابن اخيـه يحيى عن فرسه فأصيب بجرح في ركبته ، وجاء الوافدون من مختلف سكان البلاد لعيادة ابن اخيه ، وكان فهد الرقابي من جمـلة الوافدين ، ولكنه عندما دخل وجد المجلس حاشداً من اعيان اهل البلاد ولم يجد له مكاناً يجلس فيـه ، لولا ان شخصاً من اسرة آل عتيق تخلى عن مكانه ونادى الرقابي قائلا :

– اقلط يا فهد .. يعني تفضل ..

وبعدها جلس الرقابي بالمكان الذي اخلي له واديرت اقداح القهوة ، بعـد ذلك وجه الشيخ المكفوف يوسف الى من في الحفل سؤاله التالي :

– من هو فهد هذا الذي دخل الآن ؟ ..

---

(١) راجع ص ١٧٤ الى ١٨٢ في هذا الجزء

(٢) يوسف من اهالي حائل وهو الاخ الاكبر لناصر العتيق وزير الرأي للامير محمد بن الرشيد وكاتبه الخاص .

(٣) حصل تفاخر بين عشيرتين من قبيلة شمر كما هي العادة المألوفة عند البادية ، فكل منهما قبل حكم يوسف العتيق في امره وهذا دليل على مكانة الرجل المحترمة وسعة اطلاعـه بالتاريخ القومي لهاتين العشيرتين بشكل خاص وبتاريخ جميع القبائل بصورة عامة ..

فأجابه الكثير من الحاضرين بلسان واحد قائلين :

- هو فهد الرقابي أطال الله عمرك ..

فقال ثانية على سبيل الاستفسار او السخرية ..

- اهو فهد الرقابي النجار ؟..[1]

- فقالوا : نعم هو بذاته ..

فصمت الشيخ قليلا ثم قال بعد ان اخذ راحته اليمنى وصفق بها راحته اليسرى ..

- ان كلمة اقلط في حفل كهذا لا تقال الا للرجل المعروف بسداد رأيه ومروءته وشجاعته اما اذ استعملت لغير اهلها فمعناه انها رخصت واختلط الحابل بالنابل .. ولا يكون ثمة تنافس على الفضيلة ، ولا ميزة بين الشريف الكفؤ نابه الصيت ، وبين الرجل العادي او من هو اقل من العادي ..

القى الشيخ هذه الكلمة فتلقاها الحاضرون كما يتلقى الطلبة الدرس الذي يلقيه اساتذتهم او كما يتلقى الاطفال تعاليم والدهم ، مع انها تحمل استهتاراً جارحاً لكرامة مواطن كالرقابي. ولكن الرقابي بالرغم من انه رجل فقير متواضع ونكرة ، ولكنه اثبت بأنه ليس من النوع الذي تغمز قناته ، ولا من الذين يصمتون على مضض بل سرعان ما نهض الرجل وانتصب كالرمح ثم اشار بيمينه الى الى الرجال الجالسين قائلا ما معناه :

- ايها الاخوان الحاضرون : انني اناشد الله كل فرد منكم يعرف عني عيباً

(٥) صاحب الحرفة كالنجارة والحدادة محتقر عند العرب خاصة في العهد القديم .

او رذيلة ان يعلنها .. فلم يجبه احد فاعادها ثانية وثالثة ثم قال :

ـ لا ستر الله عورة من يعرف عني شيئاً يعيبني ولا يعلن ما يعرفه ..

ولما لم يجبه احد اتجه نحو الشيخ المكفوف وقال :

ـ لماذا ايها الشيخ تحتقرني أمام قومي بعباراتك اللاذعـــة التي جرحت بها كرامتي ثم مضى بعبارته الى ان قال : انني لا اعرف امراً يجعلك تستهتر بي في وسط هذا الحفل اللهم الا امراً واحـــداً وهو انني لا آكل الا من كسب يميني وعرق جبيني، وعيبي الثاني بنظرك هو انني لم اكن من المقربين عند ولاةالامر الذين لا يتورعونعن ان يكسبوا المال بأية وسيلة كانت حتى ولو كانت هـــذه الوسيلة قائمة على ظلم القوي للضعيف ..

كان الشيخ يصغي لكلامـه بكل حواسه ، اما الحاضرون الذين منهم من يكون الشيخ عمه، ومنهم من يكون خاله او ابوه ومنهم من يرى الشيخ بمنزلة الاستاذ ، كل هؤلاء واولئك لم يتحملوا من النجار الخامل ان يتطاول على الشيخ المحترم الوقور ، الذييخطيء من يشاء ولا يحق لاحد ان يقول له انت اخطأت، ولذلكنجدهم قطعوا على النجار حديثهقبل ان ينتهي وصاحوا به جميعاً بصوت واحد قائلين :

ـ اسكت يا كيت .. ولكن الشيخ كان اعقل منهم واهـدأ اعصاباً حيث صاح بهم قائلاً :

ـ دعوه يتم حديثه .. ثم قال للنجار :

ـ أكمل حديثك يا بني ..

فنشط النجار وقال :

ـ أجل لو كنت من هذه الفئة لما استكثرت عليّ كلمة (اقلمط) .. ثم ختم حديثه بقوله :

ولكنني اريد ان اسألك الآن على ان تجيبني ما الذي يجعلك تقبل ان يكون فلان [1] عن يمينك وانت تعرف عنه كذا ... وفي الوقت نفسه تستكثر عليّ كلمة عابرة لا اهمية لها ..

وعندما انتهى النجار من كلامه كان الجالسون كأنهم على احر من الجمر فحالا صاحوا به قائلين جميعهم ما عدا الشيخ :

اخرج من هنا يا وقح ويا قليل الادب الخ ...

الرجوع عن الخطأ فضيلة !!!

اما الشيخ فقد صاح بالحاضرين قائلا :

ـ دعوه والله لم يقل الا الحق ، وانه يستحق مني الاحترام ، ثم قال :اقرب مني يا بني وعندما قرب راح يقبل جبينه ورأسه.. ثم انحرف نحو الشخص الذي كان عن يمينه والذي غمزه النجار بعبارته السالفة الذكر وقال له :

قم من هنا يا فلان ليجلس في مكانك من هو خير منك ومني ..

وجاء بالنجار واجلسه بجانبه وقال :

أشهد على نفسي بانني اخطأت بحقك.. ثم مضى وقال .. وان كنت اخطأت

---

١ يقصد شخصاً لا اريد ان اذكر اسمه لا لانني اكتب الشيم العربية واضرب صفحاً عن العيب والمآخذ .. لا ليس من اجل ذلك فحسب ، بل لاجل ان العيب الذي عاب النجار به الشخص المشار اليه لا اهمية له .. اللهم الا ان رجال ذلك العهد يبرزون ان اقل شيء يعاب به المرء من الامور التي ليس لها اهمية عندنا اليوم ..

في تعبيري فانني لم اندم على ماقلته لانني لولم اقل تلك الكلمة لما استطعت أن اعرف عنك يا بني هذه الجرأة وهذه الموهبة التي كشفت لي عنك سجية الصراحة والشجاعة في اعلان الحق .. ذلك انني يا بني تعودت ان اقول في جميع مراحل حياتي اخطأت .. ولكنه يندر ان اجد من يقول لي اخطأت فيما اذا حدث مني شطط كهذا الشطط ..

وختم الشيخ حديثه بقوله :

– انني يا بني بهذا السن الذي اجتزته لابد ان تخرج مني كلمة لم ازنها بحكم تقدم سني كهذه الكلمة وامثالها .. ولذلك اكون بحاجة ماسة الى رجل مخلص جريء كشخصك ينبهني الى خطيئتي اذا وقع مني زلل ويرشدني الى الصواب اذا اخطأت ، واشكو اليه همومي اذا سئمت ، ولك عليّ يا بني ان اتعهد لك بما يقوم بأودك انت ومن تعول :

فأجابه النجار قائلا :

اما انني اترك قدومي ومنشاري واتخلى عن مهنتي التي هي مصدر فخاري ، واظل عندك بصورة انقطع بها عن عملي .. فهذه الناحية من المستحيل ان اوافق عليها ، ولكن لك علي انني في حالة فراغي سوف آتي اليك وفي الوقت الذي يبدو لك بي حاجة تستدعيني بها، لك علي ايضاً ان اترك عملي والبي طلبك في أي وقت تريدني أحضر به ..

ومن تلك اللحظة ظلت أواصر الصداقة تزداد رسوخاً ، بين الشيخ والنجار وأعجب ما في الامر أن الجالسين الذين كانوا يرون الشيخ بمنزلة استاذهم الاكبر ، اصبح الآن تلميذاً امام النجار يتلقى منه النصائح والارشادات ..

نقلت هذه الحادثة عن بطل القصة فهد الرقابي نفسه رحمه الله كما انني وجدت

ما يؤيدها من عدة مصادر موثوقة ، ومن جملة هذه المصادر المرحوم عبد العزيز العتيق ، ابن الشيخ يوسف صاحب الترجمة ، وقد سألته في حينه عن هذه القصة فلم يعارض صحتها ، بل أكد لي بأن الرقابي ثقة وصريح ، ولا يتحدث الا بما يعتقده ، وزاد في ذلك تأكيداً انه كان يذكر ان بين والده وبين الرقابي صلة روحية وطيدة العرى بالرغم من فارق السن بينهما ، وهناك رواية اخرى نقلتها عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد تؤيد صحة هذه القصة ، يقول ابن زيد :

– ان الشيخ يوسف العتيق في آخر ايامه كان لا يذهب الى مكان ما الا والرقابي بجانبه ، وفي ذات يوم ذهب الاثنان الى منزل احد اقارب يوسف في شرقي البلاد من الناحية الجنوبية .. وظل الرقابي في منزل شخص من ذوي القربى ليوسف مقدار نصف الساعة .. ثم بعد ذلك طلب الاذن من صاحب المكان على ان يعود بعد ساعة لصاحبه ، فخرج وبعد مضي المدة التي حددها عاد الى صاحبه يوسف ليخرجا سويا ولكنه في عودته هذه الاخيرة جاء صاحب المنزل بصحن من التمر الطيب واقداح من اللبن وكوبا مملوء من زبد الضأن وقدمه للضيفين ، فرفض الرقابي ان يتناول شيئاً من الطعام بحجة انه صائم .. وكان صاحبه اي الشيخ يوسف يذكر انه لم يكن صائماً فألح عليه كما الح ايضاً عليه صاحب المنزل ولكن لم يفد الحاحهما بشيء فتناول يوسف حبة من التمر وشرب جرعة من اللبن ثم خرجا سوياً ..

وعندما ابتعدا عن المنزل الذي خرجا منه ، راح الرقابي يقبل رأس الشيخ يوسف قائلا :

– ناشدتك الله ان تخبرني بالحقيقة .

فجاوبه الشيخ :

– اي حقيقة تعني .؟ فقال النجار :

– اليس اقاربك البخلاء قدموا لك الطعام بعدما خرجت من عندهم ، ومن ثم ذهبت انت توبخهم قائلا لهم لماذا لم تقدموه عندما كان فلان رفيقي موجوداً هنا ، ثم انك غضبت من تصرفهم هذا ورفضت ان تتناول حبة منه ، وبعدما عدت اليكم جاء احد اقاربك بطعامه يريد ان يرضيك لا ان يضيفني .. ولذلك اعتذرت بالصيام ، ثم اعاد العبارة عليه ثانية قائلاً : ناشدتك الله اليس الامر كذلك ..؟

فأجابه الشيخ قائلا : وهو يبتسم

– يبدو انك تستخدم الشياطين وتستعمل السحر والا ما الذي يخبرك بما حدث في غيابك بهذه الامور التي تضع فيها النقاط على الحروف ..

فضحك النجار وذهب يقبل رأس الشيخ ثانية وهو يقول :

– لقد تحققت فراستي بك يا ابا فلان ، فلله درك على اعراضك عن طعامهم من اجل صديقك ..

محال ان ينال الأبي ثقة المستبد !!

-٢١-

ضدان لن يجتمعا ، وان اجتمعا فان ذلك نادر ، وهما الحاكم المستبدالمطلق، والرجل الابي ، فالاول لا يريد احـداً يقف منه موقف الرجل المحترم لنفسه، المعتز بكرامته ، المدافع دون عقيدته ورأيه ، ولا يقبل من اعوانه ومواطنيه الا ان يكونوا آلة مسخرة مطيعين لاوامره كيفما كانت مذعنين لارادته مهما انحرفت عن السبيل ، مهللين ومكبرين لسلطانه مهما جار وطغى ، ومن لم يكن كذلك فهو مغرور متكبر يجب اذلاله ، والنيل من كرامته ، بحق او بباطل ، لكي لا يفسد اخلاق المواطنين المخلصين ، ومقياس الاخلاص بنظر الاول هو مـا يبديه له ضعفاء النفوس من انحناء وتذلل وخنوع ..

ومقياس الاخلاص بنظر الثاني هو مصارحة ولاة الامور وجهاً لوجه بكل خفية وبينة ، ومناصرة الضعيف والاخذ بيد المظلوم مهما قل مناصروه، وعدم الاستكانة والخنوع للمخلوق الفاني مهما علا شأنه ، وعظم سلطانه .

وليس الذي وقع بين عناد القاضب[1] وسبهان العلي بن سبهان[2] بدعاً من نوعه، بل وقع ويقع في كل زمان ومكان بين الحاكم الذي يرى ان من يحتفظ بكرامتـه

---

١ عناد من اقطاب بلدة الجوف وهو رئيس فخذ يدعى بالسهيب. وفي يوم ١٨ رمضان ١٣٧٥ التقيت بالامير عبد الرحمن السديري بدمشق الوالي على بلدة الجوف في ذلك الوقت وحتى الآن وقد طلبت منه ان يوافيني بتاريخ وفاة بطل القصة... وبعدما وصل الجوف جاءت منه رسالة يفيدني ان وفاته حدثت في رجب ١٣٤٨هـ .

٢ سبهان ورد اسمـه في هذا السفر اكثر من مرة وهو غير سبهان السلامـة الذي كان وزيراً لمال عند محمد الرشيد ومستشاراً له

ولا يتملق ولا ينافق له عدو مبين ، وبين المواطن المخلص الذي لا يؤمن بهـذا المنطق الواهي .

ويقع تاريخ هذه الحادثة في سنة ١٣٢٩ هـ وذلك عندما كان سبهان العلي والياً على مدينة الجوف من قبل امير حائل وقتذاك سعود العبد العزيز بن متعب الرشيد ، ومن المعروف ان اهل الجوف « خاصة في ذلك العهد » من اكبر رجال الجزيرة العربية نفساً واشمهم انفا واعزهم جانبا لا يبيتون على الضيم ، ولا يرضخون لعسف الحاكم المستبد مهما تكن قوته ومهما بلغ عقابه من الشدة والقسوة ، والذي درس ادبهم الشعبي يتضح له مدى ما يتمتع به افرادهم من اباء وشمم ، وتمرد على الحاكم اذا استبد وجار ..

ولولا انني اخشى ان يبعد بنا السبيل عن صميم البحث الذي نستهدفه ، لولا ذلك لاتيت بشيء من اناشيدهم الشعبية التي تعبر تعبيراً جليا عما تصبو اليـه نفوسهم الجبارة من طموح واعتـداد بالنفس ، وشعور بالكرامة ، وعلى سبيل الاختصار أود ان آتي بنماذج وجيزة من بعض الامثلة الشعبية ، امثال قول بعضهم (يوم ديك خير من الف يوم دجاجة) وهذا المثل أشبه ما يكون بمثل سبق أن قرأته بمجلـة الرسالة المصريه في عددها رقم ٩٣٤ وتاريخ ١٩٥٢ نوفمبر خلاصتـه كما يلي :

(الافضل ان تكون ذيل أسد من ان تكون رأس كلب) .. يقال ان هذا المثل يوناني ، ومن المعلوم ان مثل اهل الجوف ابلغ معنى ..

والمثل الاعظم من ذلك عند اهل الجوف لكونه وقع عمليا هو قول احدهم (ما عقب الجماعة مقعد) ..

والمعنى ان ابن رشيد واظن انه طلال ، عندما نفذ حكم الاعدام في عـدد من اعيان اهل الجوف ، بعد ذلك عفا عن واحد منهم لاجل صداقة قديمـة بين

المعفو عنه وبين الامير ، فرد هذا قائلا : اتقتل رفاقي وتعفو عني .. فهذا العفو منك ليس مقبولاً ، ولا اريد ان احيا يوما واحدا بعد رفاقي ... فارغم الامير وتحداه حتى نفذ فيه الحكم ..

وبطل قصتنا هذه – عناد القاضب–ليس الا واحداً من نمط اولئك الرجال وبقدر مـــا كان عناد ابياً شهماً وفياً وقوراً منيع الجانب متكبرا على الجبابرة المتغطرسين ، بقدر ما كان ليناً متواضعاً رحيماً بالفقراء عاطفياً نحو المساكين، متسامحاً عن عثرة اصدقائه ، وبحسن اختياره لهم ..

وكان بمسلكه وسيرته يعبر عن الصفات التي اوصى بها رب السيف والقلم محمود سامي البارودي بقوله :

وكن وسطاً لا مشرئباً الى السهى ... ولا قانعاً يبغي التزلف بالصغر
واحمد اخلاق الفتى مـــا تكافأت ... بمنزلة بين التواضع والكبر

حقد ليس له مبرر

اعتقد أمير الجوف سبهان ان عناداً يضمر له العداوة والكره ، وانه يتآمر عليه الامر الذي جعله يضمر الحقد لعناد ، ويحاول ان يجد عليه ادنى سبيـــل ليأخذه اخذ عزيز مقتدر .. وفي الحين الذي كان سبهان يضمر السوء لعناد ، ويحاول ان يبطش به عندما يجد اية زلة يدينه بها ، كان عناد لا يحمل في نفسه لسبهان ولا لمن ولاه اي كره ، اللهم الا انه يكره الاساليب التي لا ينال المرء بها ثقة حاكم ما الا بقدر ما يدفعه من تضحية بكرامته وهدر لإبائه وقتـــل لشممه ، فكان معروف الرصافي وعناد القاضب يلتقيان على صعيد واحد عنده قال الرصافي :

وتكره نفسي كل عبد مذلل ... وقد كرهت حتى الطريق المعبدا

والغريب في الامر ان المعروف عن سبهان انه يحمل نفسيه كنفسية عناد من حيث قوة الشكيمة وعزة النفس وثباته في الحصار وموقفه ايضاً القوى من النوري بن شعلان[1] كل ذلك يعطينا دليلاً بأن الرجل يتمتع بقسط كبير من شموخ الانف واباء النفس ، ولكن الذي يبدو ان بعض الناس يريد ان تكون مزايا الرجولة حكراً لنفسه وموقوفة على شخصه ، واذا كان هناك من ينافسه عليها فانه لا يدخر وسعاً من محاربته وقهره ان امكنه ذلك ..

وهذا ما جعل سبهان يقف من عناد موقف الحاقد الذي يريد ان ينتقم منه بأية وسيلة كانت ..

ومن الامور التي جعلت سبهان يتضاعف حقده على عناد ، هي ان عنادا طموح باختياره لاصدقائه فلم يقع اختياره الا على فتي كان من خيرة حاشية سبهان ومن اعزهم نفساً واوفاهم عهداً وارجحهم عقلا واشجعهم قلباً ، الا وهو (سويلم الشعلان)[2]

لم يخامر الوالي سبهان ادنى شك في اخلاص سويلم له ، ولكنه رغم ذلك تضايق من صداقة عناد له فراح يوجه لسويلم السؤال التالي :

– ما معنى هذه الصداقة التي توطدت عراها بينك وبين عناد ؟..

---

١ راجع صفحة ٨٧ ج ٣ من شيم العرب للمؤلف.

٢ توفي سويلم رحمه الله في عام ١٣٨٢ هـ الموافق ١٩٦٢ ولسويلم مواقف في الوفاء والشجاعة تستحق الاعجاب والتقدير وفي اليوم الذي جرى فيه تنفيذ المؤامرة لقتل زامل بن سبهان وسبهان نفسه المذكور اعلاه كان سويلم هو الفارس الوحيد الذي كافح وناضل دون سبهان حتى قتل سبهان .

– ليس لها أي معني اللهم الا ان عناداً بدا بمد يد الصداقة ورأيت انـــه شخص فيه من دلائل الرجولة ومظاهر الفتوة والوقار ما هو جدير بالاحترام ، فأبديت له الصداقة والوداد بمثل ما بدا لي منه ..

– احذر ان يخدعك هذا الماكر المتغطرس الذي يضمر لنا من العـــداوة والبغضاء اكثر مما تتصوره وهو في الوقت ذاته يرى لنفسه من القدر فوق مـــا تستحقه منزلته . ولكنني بعون الله سوف اتخذ نحوه اجراءات تمكنني من تحطيم منزلته بين قومه لكي اقضي على ما في نفسه من غرور وكبرياء ..

– من رأيي ان لا تتحدى الرجل بشيء قد لا تجني من ثمره خـيراً اللهم الا اذا كان لديك من الوثائق ما يجعلك تدينه بالخيانة للامارة ، فعندئذ لك ان تتخذ نحوه ما شئت من عقاب ..

لقد بذلت جلّ جهدي لكي اجد عليه عثرة واحدة لآخذه بها ، فـلم اجد عليه شيئاً ، وليس معنى ذلك انه بريء من عداوته لنا ، ولكن الذي يبدو لي ان الخبيث حازم ومحتاط لنفسه ، ولكن رغم ذلك سوف ادبر له مكيدة تحط من كرامته بين قومه ..

– أنا انصحك ان تترك الرجل وشأنه ، وان لا تحاول اهانته بدون بينة تأخذه بها لانني واثق بأنه شخص غيور على كرامة نفسه ..

– أنت بلا شك مخدوع بهذا المتكبر المغرور ..

– الايام بيننا .. ولكنني اذكرك بحكمة العربي القائل : اياك وصولة الكريم اذا اهين وبطر اللئيم اذا شبع ..

– اتظن ان صاحبك كريم .. بل انه لئيم ولا يصلح له الا الاهانة .. ولذلك

سوف لا ادخر وسعاً لاهانته ولو بطريقة غير مباشرة ..

ـ ما هي الطريقة التي تريد ان تتخذها لاهانته ..؟

ـ سوف ازوره في منزله الآن وسيكون مجيئي له فجـــأة ، وعندما يراني زائراً لهسوف يحاول ان يبذل كل مالديه من الجهد لاكرامي والحفاوةبي كضيف زائر .. وعندئذ سوف ارفض واقسم له بأنني لن اتناول من بيته شيئاً الا اذا نفذت رغبتي ، ثم اجعل طلبي مبهما لا اخبره عنه ،وفي هذه الحالة سوف يسألني عن كنه الطلب وعندها سوف اقول له انني كما تعلم بعيد عن اهـــلي وشعرت هذه الساعة بقلق ممـــا جعلني احاول ان اسلي نفسي وانسيها همومها ، فرحت اسأل افراد رجالي واحداً واحداً عمن يحسن ان يلحن على الربابة فلم اجـد فيهم احداً فسألتهم هل يعرفون احدا من اهل البلاد يحسن التلحين على الربابة فأخبرت بأنك تجيد ذلك ، ولذلك قصدتك راجيـاً ان تلبي طلبي وتساعدني على تبديد همومي ، ثم مضى وقال وهو عندما يلبي طلبي ويغني لي على ربابته اكون وقتها تمكنت من اهانته والحط من كرامته بين مجتمعه بدون ان يشعر بذلك ..

ـ اعتقد ان الرجل فوق ما تتصوره واذكى من ان تفوت عليه هـــذه الخدعة .. ومن رأيي ان تترك سبيله ، ومضى سويلم الى ان قال : انا اؤكد لك بأنه وان كان يحسن التلحين والغناء على الربابة من اجل ان يسلي نفســه او يسلي بعض زائريه من اصدقائــه الذين من منزلته وما دون، ولكنه لا يمكن ان يغني بالربابة لشخص اعلى منه منزلة من امثالك ..

ـ دع القضية سراً وسوف ترى فيما بعد نتائج الامور .. ثم واصل سبهان حديثه وقال : ارى انه من الافضل ان نباغته الآن ونذهب اليه فى هذه الساعة..

ـ اذا كنت عازماً فما عليك الا ان تتوكل على الله ..

أراد ان يهين فاهين .

كانت الساعة التي صمم بها الامير على زيارته الملغومة ساعة قيلولة .. وكان الفصل صيفاً وكانت العادة المألوفة عند أهالي نجد وخاصة اهالي الشمال ان ساعة القيلولة التي تقع قبيل صلاة الظهر بساعة .. هذه الفترة بالذات بالنسبة لاهل البلاد اشبه ماتكون بمنتصف الليل خاصة في ذلك العهد .. فيكون السكون مخيما على البلاد ولن تجد في الاسواق احداً ، فكلهم مخلدون الى الراحة والسبات العميق.

في هذه اللحظة بالذات ذهب سبهان وحاشيته الى منزل عناد وتنفيذاً لخطته الملغومة ، عندما وصل باب الرجل تقدم احد الحاشية وطرق الباب (بركزة) سيفه بشدة حسب القاعدة المألوفة في حالة كهذه كنذير ، يشير الى ان الزائر ليس عادياً ، فأسرع احد الصبيان وفتح الباب ..

و ان رأى الصبي الوالي وحاشيته حتى عاد مذهولاً ليخبر سيد المنزل النائم .. فجاء الرجل يسير بخطى وئيدة وبكل هدوء ورباطة جأش .. فبادر الوالي بالتحية فرد عليها بمثلها ، وهو في موقفه عند مدخل الباب دون ان يأذن للوالي بالدخول .. وكانت هذه المقابلة الجافة اول نذير لسبهان بفشل خطته .. ولكنه تابع تنفيذ مكيدته وقال :

ـ لقد اصابني قلق وصدمة نفسية في هذه اللحظة ولم أجد بدأ من ان اذهب الى أي مكان لأسلي نفسي وازيل ما ألمّ بي من قلق مزعج فرأيت ان خير من اذهب اليه هو جنابك و ..

فرد عليه عناد بقوله وهو يبتسم ابتسامة تعبر عما في نفس صاحبها من وقار واعتزاز بالنفس :

ـ ان هذه الزيارة بأطويل العمر زيارة العدو[1] لعدوه ، ثم أتبع هذه الكلمة بعد صمت قليل وقال : وعلى اية حال فانني اعتبر هذه الزيارة فرصة ميمونة فيما اذا لم يكن لها ما وراءها من بواعث في النفس واسرار خفية مخالفة للحقيقة التي اشرتم اليها في ظاهر الامر ..

ـ لم يكن هناك حافز ورغبة أو رهبة تضطرني لأن احدثك حديثاً يخالف الحقيقة التي صارحتك بها ..

ـ ان قدومك عليّ في هذه الساعة الحرجة وبدون سابق علم يجعلني اشك كثيراً بان هذه الزيارة تم عن باطن خفي .. ثم مضى وقال : اسمح لي ان اقول لك بأنني لا يمكن ان آذن لك بدخول منزلي حتى تثبت لي ان مجيئك له ليس ظاهره يخالف باطنه ..

والدليل الثابت الذي يقنعني بهذا الشأن هو ان تعطيني عهد الشرف بانك سوف تزورني بعد الغد لتناول وجبة العشاء في منزلي هذا حتى يكون لديّ من الوقت الكافي ما يجعلني استطيع القيام بواجبي نحوك بصفتك تمثل حاكم بلادنا هنا .. وواجبك الرسمي يفرض عليّ ان لا تكون زيارتك لمنزلي زيارة ارتجالية كهذه ، بل يتحتم عليّ ان اقدم لك الضيافة التي تليق بمنزلتك كنائب لحاكمنا .. كما ينبغي منك ان تنظر لوضعي الراهن بين قومي الذين سوف يعيبونني وسوف تصاب كرامتي عندهم بشلل عندما يعلمون انك زرتني ولم اقم بواجبك ..

ـ ما دام قبولي دعوتك لتناول وجبة العشاء ، يقنعك بأنه ليس لدي باطن يخالف ظاهري ، فأنني من الآن موافق على قبول دعوتك بعد الغد كما تريد ..

---

(١) هذا مثل شعبي يقال في مناسبة كهذه .. وهو صالح ان يقال في حالة الجد وفي حالة المزح .. ولكنه اكثر ما يستعمل في المزح وربما كان الاصل فيه الجد كما هو الامر الواقع الآن.

ـ انني اعتبر الوعد منك عهداً ؟..

ـ طبعاً ..

ـ اذن تفضل ..

ـ دخل الوالي او الامير -حسب الاصطلاح المعمول به هناك وجلس عناد عن يمينه بعدما امر شخصاًمن اقاربه بتهيئة القهوة ..

وبعدما احتسى الامير وحاشيته اكواباً من القهوة عند ذلك استأذن فأذن له مضيفهالذي راحيقدمه حتى الباب الخارجي، وعندما تبادلا التحية الوداعية، ذكره عناد بالوعد من باب التأكيد ، فأعطاه الامير اشارة تتضمن زيادة تأكيده بما وعده به ، خرجالامير من منزل عناد وهو كاسف البال يسحب خطاه شاعراً بالهزيمة ، ولم يفكر ان يباحث سويلما قطعياً في الموضوع لئلا يشمت به ..وكانت مصيبته الكبرىانه سوف يأتي بعد الغد الى منزل هذا العدو اللدود وهو كاره..

ظل الامير ذلك اليوم عابس الوجه مقطب الحاجبين .. وعندما جاء مساء اليوم الثاني ذهب الى بيت عناد لينفذ وعده المشؤوم .. وما ان وصل هناكحتى وجد بعض اعيان البلاد والبعض الآخر جاء فيما بعد وظل المدعوون يتوافدون حتى انه لم يبق من رجال اهل البلاد الذين يشار اليهم بالبنان احد الا وحضر.. وبعد ما تكامل المدعوون نهض المضيف امام الامير مشيراً بأن يتفضل الى المائدة فقام الامير وحاشيته والمدعوون على شرفه ، حتى اذا وصل المائدة وجد جزوواً وعدداً من كباش الضان فكانت المائدة بمنتهى السخاء .. وبعد ان انتهى من عشائه عاد الى المجلس فتناول فنجاناً من القهوة ثم استأذن من مضيفه،وراح وفي نفسه من الحقد اضعاف ما كان فيها سابقاً ..

ولما كان اهل الجوف من نوع القوم الذين يسأمون حياة الاستقرار والهدوء،

ولا يطيب لهم العيش الا في ظل الثورات والتمرد .. فقد كان الوقت مواتياً لهم آنذاك .. بوجود قوتين متنافستين وهما ابن رشيد من من الجهة الشرقية وابن شعلان من الجهة الغربية وكان النزاع بين الرئيسين قائماً على قدم وساق ، ومن مصلحة اهل الجوف ان يتخذوا من هذا النزاع وسيلة للمساومة بين المتخاصمين ، وعند اية مناسبة يختلقونها ، يجتمع نفر منهم ويتفقون على نقض العهد الذي في ذمتهم للحاكم الحالي .. ومن ثم يبعثون وفداً منهم موكلا من قبلهم يعلن عن لسانهم ولاءه للحاكم المناوىء لحاكمهم الحالي .

وفي تلك الايام بلغ سبهان من مصدر ثقة بأن اهل الجوف اوفدوا رجالاً من اعيانهم برسالة الى النوري بن شعلان تتضمن اجماع الكثير منهم على خلع العهد الذي بذمتهم لابن رشيد ، واخذ عهد لابن شعلان .. ولم يستغرب سبهان هذا النبأ كما لم يستبعده ..

بعد ان خدعه المنافقون عرف المخلصين !

ولم يكن لدى سبهان من الوسائل التي ينتحلها الا انه بعث رجاله ليستدعوا له اعيان اهل البلاد، فحضر جميع الاغيان البارزين الا عنادا، تخلف عن الحضور ، فراح سبهان يصارحهم عن حقيقة النبأ الذي بلغه ، فانكروا جميعهم الخبر وأكدوا بأنهم لا زالوا متمسكين له بالعهد ومعترفين له بالولاء والاخلاص .. فطلب منهم بان يأخذ منهم عهداً جديداً لكي يزداد اطمئنانا .. فلبى جميعهم الطلب بدون ان يبدو من أي واحد منهم تردد ، وعندها اخذ سبهان عهداً من كل فرد منهم ..

وبعد هذا العهد الجديد اطمأن على نفسه ، وشكر المعاهدين بحضورهم وبغيابهم وفي الوقت نفسه ازداد غضبه على عناد ، لانه لم يحضر مع اعيان البلاد الذين عاهدوه واثبتوا ولاءهم واخلاصهم ، فظل يشتمه ، وينال من شرفه ،

ويتهمه بالخيانة، الامر الذي جعله يرى ان حجته قامت عليه وان الفرصة سنحت له لينتقم منه .. فذهب ونادى «سويلما» وعندما حضر قال له:

– ها هو صاحبك الخبيث العدو المبين حضر رفاقه المخلصون وجددوا العهد ونفوا التهمة عن نفوسهم الا هو لم يحضر لانه يعرف نفسه بأنه مجرم خائن .

فقال سويلم :

– لا يحق لنا ان نحكم عليه بالخيانة قبل ان تبعث له الآن رسولا يستدعيه ليحضر عندك .. وفي حالة تلبيته لطلبك ، لك ان تستفسر منه عن اسباب تأخره ، فهو اما ان يحضر وعندئذ يمكنك ان تفهم شيئاً عن وجهة نظره بعدم حضوره ، او انه يمتنع عن المجيء وعند ذلك تقيم عليه الحجة بالادلة القاطعة ...

– اذن سوف نبعث له الان رسولا يستدعيه وننظر ماذا تكون النتيجة ؟ .

ارسل سبهان رسولا يستدعي عنادا، وما ان جاءه الرسول حتى حضر فوراً، وبعد تبادل التحية بينه وبين سبهان وجه اليه الاخير السؤال التالي :

– ما هي الاسباب التي اخرتك عن المجيء مع الجماعة عندما حضروا عندنا..
فاجابه عناد بهذه العبارة نصاً حرفياً :

– من حضر ما غاب[1]..

---

١ هذه العبارة التي جاءت جواباً من عناد لسبهان نقلتها حرفياً من رسالة وردتني بتاريخ ١٣٧٥/٩/٨ هـ من راوي القصة المرحوم سويلم الشعلان وذلك أنني حررت له رسالة بتاريخ ١٣٧٥/٧/٢٤هـ طالباً منه مزيداً من الايضاح عن تفاصيل القصة والتأكد عن اسم الشخص اعني عناداً لانني رويت عنه هذه الحادثة من مدة لا تقل عن خمس سنين من تاريخ رسالتي ..وقدفرقت بيننا الايام ولم أر سويلما بعد تلك المدة الا قبل ان يتوفاه الله بشهر واحد .. واما معنى الجملة الشعبية التي تلفظ بها عناد بقوله: من حضر ما غاب معناها انني حضرت الان بين يديك وكأنني لم اغب فهات ما عندك ..

– لقد طلبت من أهل البلاد ان يعطوني عهداً جديداً لأطمئناليه وذلك انه بلغني خبر يفيد انهم نقضوا المعاهدات السابقة ، ولكني احتطت للامر فاخذت من كل فرد من اعيانهم عهداً .. ثم مضى الامير بحديثه الى ان قال : وبصفتك منافذاذ اهل هذه البلاد البارزين فانني أرغب بأن تعطيني عهداً على الطريقه التي اخذت بها عهداً من رفاقك ..

فقال عناد :

– ما هي صفة العهد الذي عاهدك به الجماعه ؟ ..

– ليس هذا بخاف عليك ..

– أريد ان افهم كنهه لفظاً ومعنى ..

– معناه ولفظه كالعهود المتبعة المألوفه، وهو انك تضعيمينك بيميني وتقول: اعاهدك الله بانني صديق صديقك وعدو عدوك.وتحلف يمينا بالله بأنك لنتنكث هذا العهد وينتهي الامر بعد ذلك ..

– اود ان تعفيني من هذا العهد ولا سيا ما دامان اعيان قوميكلهم عاهدوك فما انا الا واحد منهم ولا سبيل لي الا سبيلهم ..

– لا بل يجب ان تعاهدني كما عاهدني قومك ، والا فسوف تكون موضع ريبة عندنا ..

–سوف اعاهدك على انني واحد من هؤلاء القوم الذين عاهدوك لا اخرج عن رأيهم ، فان وفوا بعهدهم وصدقوا فانني واحد منهم وان نكثوا عهدهم فانني منهم ايضاً ..

– لا لا تلف وتدور اريد منك ان تضـع يمينك بيميني وتعاهـــدني بنفس العبارات التي تلفظ بها رفاقك حرفياً . .

اذا كنت مصراً على ذلك فانني سوف اعاهدك الله بالعبارات التاليه :

– اعاهدك الله على ما انطوت عليه ضمائر جماعتي وما خبأته نفوسهم ،لا على ما نطقت به السنتهم . . ثم مضى وقال : وثق يا سبهان بأنني لو علمت بأنـــه باستطاعتي ان افي لك بالعهد الذي نطقت به السن قومي فلن اتأخر . . ولو اعتقد ان فيهم واحداً يفي بعهده لعاهدتك . ولكنني كشخص من اعيان اهل هذه البلاد لا استطيع ان اشذ عن الرأي العام الذي يجمع عليه خاصة أهل البلاد وعامتهم .

– اذن في نفوس القوم خفية خلاف البينة التي عاهدوني عليها .

– اتمنى ان لا يكون ذلك ولكن هذا هو واقع امرهم . . .

اذهب الى قومك . والحقيقة انني عرفت الآن انك انبلهم خلقاً واصدقهم حديثا واوفاهم عهدا واكرمهم نفسا . .

وما ان ذهب عناد الى قومه حتى بات لدى سبهان من اليقين القاطع بأن لدى أهل الجوف من الباطن خلاف ما عاهدوه عليه وكانت النتيجـــة انهم نقضوا المعاهدات الجديدة التي اخذها عليهم سبهان ، وذهبوا يعاهدون النوري بن شعلان .

اما سبهان فقد ظل محاصرا بقصر امارته ذلك الحصار الذي ذكرته في سفرنا هذا (ص ٧٧ الى ٩٢ ج ٢)

افتدى قومه بنفسه !!

- ٢٢ -

يفاجأ المرء بازمات قاسية ، وامتحانات عنيفة لم يحسب لها حسابا، وهو بحالة كهذه اذا لم يواجه تلك الازمات وهــذه المحن بعزيمة ماضية وارادة فولاذية ، وشجاعة خارقة . فانه سوف يذهب ضحية رخيصة.

وشجعان القلوب كثيرون ، واكثر منهم شجعان المهرجانات والتهريج ، ولكن شجعان العقول وشجعان الازمات ، وأبطال المفاجــآت قليلون ، وأقل منهم شجعان الامتحانات ، وأعني بهذا الاسم اولئك النفر الذين يتحملون على عاتقهم عبء المسؤولية ، وذلك عندما تكون المسؤولية مشتركة ، وموزعة على عدد كثير من الرجال ، فما أكثر الذين يتهربون عن المسؤولية في حالة كهــذه ، مجالاً كل واحد منهم ان يضع المسؤولية على عاتق غيره ، وما اقل بل ما اندر الرجال الذين يتحدون التهديدات ، التي قد تؤدي الى الموت ، آخذين المسؤولية كلها على عاتقهم ، كما فعل بعض رجالات العرب في عهدنا القريب عندمــا وقف يتحدى السلطة الجبارة العنيفة قائلا :

انا وحدي المسؤول ..

معيداً الى اذهاننا موقف بطل قصتنا هذه الواقعة في عام ١٣١٠ هـ والــتي اوافي بها القارىء كما نقلتها من راوي القصة وهو المرحوم سلمان بن[1] رشدان احد

---

١ ورد اسم سلمان بن رشدان اكثر من مرة في هذا الكتاب.

شهود العيان الذي نقلها لنا على الوجه التالي فقال :

عندما كان الامير محمد العبد الله الرشيد مخيماً في جنوب شبه الجزيرةالعربية، بلغهخبر يفيد بوجود شخص مقتول في وسط معسكره، وعندما اجرى التحقيق عن جنسية هذا المقتول تبين انه من قبائل المنتفق ، اي ليس من قبيلته شمر التي هي قبيلة الامير ، اذ لو كان منها لهان الامر عليه ، اما ان يقتل شخص كهذا الذي يعتبر ضيفاً للامير في وسط معسكره فهذا معناه استهجان بحرمة الامير واهانة موجهة له شخصياً .. ولم يكن للامير من بد ان يبعث رجالا يتحرون الحقيقة ويبحثون عن القاتل بطريقة سرية وعلانية ، ولكن بالرغم من جهوده المبذولة ما استطاع الامير ان يصل الى أية نتيجة ، اللهم الا نتيجة واحدة ، ضئيلة لا تفي بالغرض المطلوب ، وهي وجود القتيل في وسط المعسكر الخاص بالجماعة المسمون باهالي لبدة [1] ، وهؤلاء وان كانوا حضراً ولكنهم متعصبون فيما بينهم تعصباً لا يقل عن تعصب رجال القبيلة لقبيلتهم ، كما انهم في الوقت ذاته يشكلون القسمالكبير من جنود الاميرالذين يعتمدعليهمفي الحروب، وفي المهمات التي يسندهاالى الرجال البارزين ذوى الكفاءة من أهالي هذا الحي..

اتخذ الامير من وجود جثمان القتيل في وسط خيام هؤلاء القوم دليلا يحتج به عليهم ، وانما المشكلة انهم رجال كثيرو العدد ، ولا يمكن ان يتآمروا كلهم على قتله ، فرأى الامير ان خير الوسائل التي يلتمسها بهذا الشان هي ان يجمع كافة الشخصيات البارزة من اعيانهم وراح يحقق معهم في موضوع القتيل مهدداً اياهم تارة باشد العقاب ومغرياً تارة اخرى بالمال لمن يخبره محاولا بهذه وتلك ان يجد فيهم من يدله على قاتل ضيفه ، ولما لم يجد فيهم من يفيده ، تركهم وشأنهم ، واذن لهم بالخروج من ناديه، فبدل خطته الاولى بخطة ثانية ، وهيانهراح واجتمع فرادهم واحداً بعد واحد، وراحيحقق هو بنفسه مع كل فرد منهم على طريقته

١ لبدة من اكبر الاحياءفي مدينة حائل.

الاولى أي الاغراء ، فيما اذا كان ذلك يفيد ، والا فالتهديد والوعيد ، وعندما لم يصل الى نتيجة اشتد غضبه فقرر هذه المرة ان يجمعهم ثانية ويتحدث معهم بلغة صارمة تختلف عن ذي قبل ، وعندما اجتمعوا وجه لهم الحديث التالي :

تعلمون ان القتيل لو كان أخي لكان بإمكاني ان اغض طرفي عن متابعة القضية ، ولكنه ضيفي ، فكيف اتهاون بامره ، فقاطعه احد كبارهم وهو حمود الزيد فقال : [1]

– ان ضيفك ضيف لنا ونحن مهتمون بامره كاهتمامك به ..

فرد عليه الامير :

– انتم مسؤولون عنه امامي ، وانا مسؤول عنه امام اهله ...

فأصبح الحوار والجدل بين الامير وبين حمود الذي يتكلم بلسان رفاقه الموجودين والغائبين فقال :

– اذا كان هناك مسؤولية فانها ستكون مشاعة على عشرات الالوف من قومك .. لامختصرة علينا وحدنا ..

كانت هذة الكلمة مفحمة للامير ولذلك قال : بعدما اشتد غضبه :

– بل ان المسؤولية تقع على عاتقكم انتم وحدكم لان الرجل قتل عندكم وفي وسط مخيمكم والادلة كلها تشير الى ان قاتله واحد من رفاقكم ، ثم مضى الامير

---

(١) حمود من اعيان ساكني حائل ، وهو شجاع في الحروب كما كان شجاعاً في رأيه . وقد تولى امارة بريدة نائباً عن محمدالعبدالله الرشيد،ويكون والد المرحوم الشيخ عبدالعزيزبنزيد الذى كان سفيراً لحكومته السعودية فيممثليتها فيسورية ولبنان وتوفيفي دمشق عام١٣٧٩هـ١٩٥٨م كما يكون الجد الثالث لسميه حمود الوزير المفوض في وزارةالخارجيةالسعودية حالياً . وهو ايضا اخو جد سفير المملكة السعودية في ليبيا حالياًعبدالمحسن الزيد .

في حديثه الى ان قال :

- وانني اعطيكم مهلة اقصاها غداً مساء فان اخبرتموني بالقاتل فبها ، والا اعاهدكم الله بأنني سوف اشدخ رؤوسكم جميعاً ..

فقال حمود :.

- ولماذا لا نكون ابعد نظراً من ذلك ونضع نصب اعيننا شتى الاحتمالات ومن هذه الاحتمالات ان القتيل قد يكون مطالباً بالثأر من قبل نفر من نفس قبيلته الذين ضمن غزاتك الان ، فقتله طالب الثأر ، وبعد ذلك حمله القاتل ليلا ووضعه في وسط مخيمنا ، لكي تبتعد الانظار عنه ، ثم استرسل وقال :ومن هذه الاحتمالات واقربها الى الصواب ان يكون القاتل عدواً لك ايها الامير وعدوا لنا في آن واحد ويقصد من عمله هذا ان يوقع بيننا وبينك العداوة والبغضاء ..

لم يصغ الامير الى كلام ابن زيد بل اعاد العبارة الاولى مؤكداً بأنه سوف ينفذ وعيده فيما اذا جاء الوقت المعين ولم يخبره أحد من هؤلاء بالقاتل..

وبعد ذلك خيّم على الحاضرين جو من الصمت ، والذهول .. اما الامير فقد قام من مجلسه وقال بجد وحزم :

- موعدكم غداً مساء .

وعندها لحق به ابن زيد وقال :

- أمصمم الامير على رأيه الاخير ؟ ..

فرد عليه بقسوة وعنف بقوله:

من هنا الى الغد سوف يتضح لك مدى تصميمي .. فيما اذا لم تخبروني بقاتل ضيفي ، فجاوبه ابن زيد بهدوء ورزانة قائلا :

- اعتقد انك اذا وجدت من يخبرك الآن بالقاتل فسوف ينتهي الاشكال ..
فسر الامير لهذه البادرة وظن انه وصل الى ما يريد فقال :

أجل .. أجل ينتهي الاشكال ومن الآن فليذهب الحاضرون الى امكنتهم عندما تخبرني عن القاتل ..

وعندئذ اتجه حمود الزيد الى رفاقه وقال لهم : اذهبوا الى خيامكم ، فقام القوم شاكرين المولى على فرجه السريع ثم اتجه ابن زيد الى الامير وقال :

- لماذا تقتل جميع أعيان بلدي بدون بينة تدينهم بها ، فان كنت فاعلا ولا بد، فانني اقول لك انا القاتل لضيفك.. واعاد هذه العبارة ثلاث مرات ثم قال: تفضل مر جلادك يقتلني .. فتكون انت بررت بوعدك وفي الوقت نفسه يكون المقتول ظلما منا واحداً عوضاً عن ان تحمل نفسك اثم عشرات الانفس من خيرة رجالك المخلصين الابرياء ..

اندهش الامير من هذه العبارات التي فيها تحد لسلطانه ، ولكنه تحد بمنطق وعقل ، ولم يسع الامير الا ان راح يوجه لابن زيد الكلمات اللاذعة التي تخفف عما في نفسه من الغضب وهي في الوقت ذاته لا تمس كرامة ابن زيد بسوء ، وكانت آخر كلمة قالها الامير لابن زيد ما معناها :

- اخرج من هنا يا وقح .. الخ .

وقد انتهت الازمة بفضل الموقف البطولي الذي اتخذه ابن زيد الذي كما اشرت آنفاً بأن شجاعته الادبية والعقلية في الامتحانات والمفاجآت كهذه لا تقل عن شجاعته بقلبه اذا حمي الوطيس ودارت رحى الحرب ..

اما الموقف الذي اتخذه الامير بعد ما تعذر عليه معرفة القاتل فهو انه دفع دية مضاعفة لاهل القتيل وانتهى الامر عند هذا الحد ..

فليكن عقابي القتل

- ٢٣ -

أصعب شيء يمر في حياة الانسان ، عندما يعيش في مجتمع ، بينه وبين أهله من حيث اليقظه والوعي والنمو الفكري ، كما بين الطفل الذي في الخامسة من عمره والكهل الذي تجاوز سن الاربعين ، وكما ان التفاهم بين من يحمل عقلية العصر الحجري وبين من يحمله عقلية القرن العشرين مفقود ، بل معدوم ..

وهذا ما يقع دائماً وأبداً في كل العصور وفي كل المجتمعات . ولا أعتقد ان ثمة امة من الامم الا مرت بهذه التجربة ، في حياتها البدائية .. وما لقيه أي مواطن من الاستهجان وتسفيه الرأي عندما يطالب في تعليم المرأة وتحرير الانسان من استعباد أخيه الانسان في مجتمع لا زال في دوره البدائي ، لقيه صاحب هذه الترجمة ، عندما رفض ان يساير مجتمعه الذي كان يعيش آنذاك على الغزو والنهب والسلب ..

وبينما كان رجال مجتمعه يرون ان معارضته لهم في سلوكهم هذا واعلانه عدم مسايرتهم بكل صراحة وعنف ، ضرباً من الجنون ، بينما يرى الفتى ان رجال مجتمعه يعيشون حياة حريا بها ان يقال انها الى حياة الوحوش التي يفترس قويها ضعيفها اقرب منها الى حياة الانسان ..

وهكذا كان الامر واقعياً بالنسبة لبطل قصتنا هذه المرحوم سعد القنب[1]

(١) سعد من ساكني حائل

وعلينا اولا ان نشير الى ترجمة حياة الفتى ، ونذكر الاسباب والمؤثرات التي ايقظت وعيه وجعلته شاذاً بين مجتمعه .

ولد سعد القنب في مدينة حائل في عام ١٣٠٨ هـ ودرس القرآن ، ثم سافر الى تركيا عام ١٣٢٤ هـ بصحبة أحد اصهار ابن رشيد وهو سبهان العلي الذي تبنى تربية القنب منذ ان كان طفلا يتيما فكأنه ابنه المدلل، وقد ظل في استانبول حتى عام ١٣٢٩ وتعلم اللغة التركية كواحد من ابنائها ، وصادف بقاؤه في استانبول الظرف الذي التهب فيه وعي الشباب التركي ضد حكم السلطان عبد الحميد وشاهد بعيني رأسه ثورة الجماهير عندما طوحوا بعرش السلطان عبد الحميد وامتزج مع كثير من الشباب التركي الناضج الوعي ، حتى تبلورت افكاره ونضج وعيه بصورة لا تختلف عن وعي اي شاب ثائر من الشباب التركي الذين يطالبون بمجلس أمة و والخ ..

وهكذا جاء الفتى من استانبول الى حائل حاملا هذه الافكار ومؤمنا بها ايماناً لايتزحزح ، في الحين الذي لايوجد في بلاده من يعرف معنى تلك الافكار وحتى لو قدر المستحيل ووجد من يحمل او يفهم المبادىء التي يفهمها الفتى ويؤمن بها فانه لم يوجد ولن يوجد ذلك الرجل الذي لديه من الشجاعة بل والتطرف ما لدى صاحب الترجمة ..

من هنا يكون التناقض .

وفي الظرف الذي كان فيه الفتى متحمساً لمبادئه وبالغاً ايمانه بها درجة من التهور والاسراف جعلته لا ان يكون ايمانه محدوداً على نفسه فحسب ، بل يحاول ان ينشر افكاره ومبادئه بين مواطنيه ، حتى ولو أدى الأمر الى ان يدفع حياته ثمناً لما يؤمن به .

في هذا الظرف بالذات جاءه رسول امير البلاد يبلغه امر حاكمه بأن يتأهب

للغزو ليشارك أهل بلاده بالمهمة ، ومن هنا يبدو التناقض سافراً بين فتى يحمل فكرة جيـــل العصر الحديث ويحاول ان تتحد امته العربية ، وتسود الحرية والمساواة كافة امة العرب ويعيش ناطقـــوا الضاد من المحيط الى الخليج في أمن ورضا واخوة ووئام .. وبين تفكير رسول الامير الذي لا يمكن ان يفقه هـذه المعاني ، ولا يؤمن الا بما يؤمن به رجال مجتمعه وهو السمع والطاعة العمياء لتنفيذ ارادة الامير التي ترمي الى استعداد اهل البلاد عن بكرة ابيهم ، ما عدا الشيوخ والاطفال .. واما البقية فكلهم يجب ان يذهبوا ليغزوا احدى القبائل وينهبوا ما امكنهم نهبه من ابل وغنم هذه القبيلة التي لاتذعن لسلطان الامير ، اوليحاربوا ذلك الزعيم او الامير الذي ينافس اميرهم السيادة ، وفي الوقت ذاته تقوم تلك القبائل او ذاك الزعيم بغزوة مماثلة على قبيلة ورجال وبلاد الامير الغازي وهكذا دواليك ..

وكيف يكون التفاهم بين عقلية وتفكير الفتى الثائر وبـــين تفكير عقلية رسول الامير الذي اشبه ما يكون بمرآة لمجتمعه من أهل البلاد واميرهم وقبيلتهم بل ولسان حال رجال ساكني نجد جميعاً آنذاك ..

وها هـــو الرسول يطرق باب منزل سعد القنب الكائن في الحي الغربي من مدينة حائل وعندما خرج الفتى وجد جندي الامارة يحمل ورقـة بيضاء تضم اسماء الطليعة الراقية من الغزاة وكان الفتى في رأس قائمة الطبقة الاولى الممتازة ، وذلك لان الغزاة مرتبون على حسب منازلهم الى درجات .. فالدرجة الاولى الممتازة يسمى صاحبها بالعرف المتبع (ملط) [1] وهذه لاتحصل الا للفارس او للرجل المحترم ، واما الثانية فيدعي المرء صاحب شداد ورديفه ، والثالثة الرديف ، ولابد

---

(١) الملط معناه انه منفرد براحلته لايشاركه بها احد .. وصاحب الشداد الذي له رديف هو الذي له شريك في الراحلة ولكنه مقدم على شريكه . الرديف هو الذي يركب خلف صاحب الشداد وهو شريـــك لصاحب الشداد ولكنه لا يركب المكان الامامي الا بأمر من الاول . والراحلة من الامارة .

والحالة هذه للرسول ان يزف للفتى البشرى والتهنئة على ان المسؤولين اعتبروه من رجال الطبقة الاولى واصبح ملطا ومثل هذه المنزلة لا تحصل بسهولة لفتى في هذا السن ، وهذا مما جعل الجندي حامل القائمة يقول للفتى بذهول انساه التحية :

ـ أهنئك وابشرك ..

ـ بماذا تبشرني ؟..

ـ هاهو اسمك ملط في جانب اسم فلان وفلان .. ثم يربت الرسول على كتفي الفتى مهنئاً على حوزته وسام الشرف والتقدير الذي لا يناله الا الطليعة الممتازة من الغزاة ولكن الفتى الكافر بهذه الشكليات ، اجاب الرسول بهدوء قائلاً :

ـ اذهب الى من ارسلك وقل له ان فلانا ليس لديه استعداد للغزوة ، ولن يكون لديه في المستقبل لا القريب ولا البعيد ..

ـ أأنت مجنون ما هذا الحديث الذي لا يصدر الا عن امريء اصيب عقله ؟

ـ قلت لك ارجع الى من أرسلك وانقل له الحديث الذي ابلغتك اياه ولا تزد الحديث معي ..

ـ انا لا انقل كلاماً كحديثك هذا الذي لا يصدر الا من رجل مسه الجنون في عقله ..

ـ أنت رسول وما عليك الا ان تبلغ من أرسلك حديثي كما بلغتني أوامره

ـ انت بين امرين : اما انك مصاب بشلل بعقلك او انك جلبت معك من الشيء الذي يعمل في بلاد الكفار والذي لا يشربه الا الكفار (يعني الخمرة) الذي يقولون عنه بأنه يجعل الانسان يهذي كهذيانك هذا ..

ـ انالست مجنوناًولاشارب خمرةوانما المجنونوالمتوهانت وامثالك الذين تساقون كالبهائم مسلوبي الحرية ولا تعرفون معنى لقيمتكم الانسانية .

ـ ما هي الحرية يا أهبل ؟ .. وهل هناك حرية اشرف من امتثال والي أمرنا الامير اطال الله عمره ونصره على اعدائه ، الم يقل الله جل شأنه بكتابه العزيز: اطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم ؟..

ـ اعتقد ان الحديث معك ضرب من العبث ، ولن أجيبك بعد الآن على حديثك بكلمة واحدة قطعياً وما عليك الا ان تبلغ سيدك حديثي وانا المسؤول عن كل كلمة تحدثت بها .. وأزيدك تأكيداً وتكراراً بأنني كافر بأوامر سيدك ولن امتثل لها وهب انه سيعاقبني بالموت ثم ماذا فليكن عقابي القتل في سبيل ما اعتقد انه صواب وحق ؟ ..

قال الفتى هذه الكلمات ثم ذهب مدبراً وفي الوقت ذاته ادبر من عنده رسول لامير ذاهباً الى سيده وعندما وصل الى مولاه قال :

ـ انني ذهبت الى فلان لاخبره بأن يستعد ويتهيأ للغزو ، ولكنني وجدته يتكلم بحديث كالهذيان ..

كان الامير وقتها صبياً لم يبلغ سن الرشد بعد ، وكان الوصي زامل بن سالم السبهان[1] وهو من اخوال الامير ، ولم يكن الامير الا رمزاً فقط ، اما الجهاز المحرك فهو زامل .. فهذا هو قطب الحركة المهيمن على مرافق الامارة ، الامر الذي جعل الرسول يذهب الى زامل رأساً ، ويخبره بالخلل الذي اصاب الفتى ، فسأل الوصي رسوله عن معني الحديث الذي سمعه الفتى فقال :

---

١ زامل قتل غدراً بيد عبد الكريم بن خشيان بايعاز من ابن عم زامل سعود بن صالح السبهان وكان مصرعه في عام ١٣٣٣هـ كما ان سعوداً كان مصيره كمصير سلفه على يد مشل بن فروان في عام ١٣٣٧هـ .

ـ ان الادب يمنعني ان انقل لحضرتكم حديثاً كحديث ذلك الارعن المجنون، لانه لم يكن عندي عليه شهود يسمعون كلامه ..

فقال الوصي :

ـ اذهب اليه وأمره بأن يأتي الينا .

فأجابه هذا :

ـ أمرك يا طويل العمر .

ذهب الرسول وأخبر الفتى بطلب الوصي فأجاب قائلاً :

ـ اذهب وسوف آتي الآن ..

وعلى الفور ذهب الفتى الى الوصي وحالما وصل اليه استدعى رسوله وقال :

ـ حدثنا بالكلام الذي قاله لك سعد ، فقال :

ـ اخشى ان ينكره عندما وصل اليك لان الكلام الذي اسمعني اياه لا يستطيع ان يثبته امامك وجهاً لوجه .

ـ وما ان سمع الفتى هذه العبارات حتى قفز واتجه نحو الرسول قائلا :

ـ عليك ان تتحدث بكل ما دار بيني وبينك من حديث ولك علي ان لا انكر كلمة واحدة مما قلته لك ، بل سوف تسمع مني الآن ما هو اكثر مما سمعته مني بمفردك لانني مؤمن بما اقول ..

وعندما سمع الرسول كلام الفتى بدأ ينقل الكلام الذي سمعه من الفتى بحذافيره، وكانت كل كلمة فيها شيء من القسوة والثابية عن الكلام المألوف الذي

لم يسبق للوصي ان سمع شيئاً من نوعها. وكان الوصي يحدق بالفتى بعينيه باشارة يفهم منها الاستفهام عما يتحدث عنه الرسول ، وكان الفتى يومىء برأسه علامة التأكيد لما يتحدث به الرسول .. وبعد ان انتهي هذا من حديثه ســاد النادي جو من الصمت مدة قليلة وبعد ذلك دار الجدال بين الفتى والوصي كما يلي :

من الحماقة والجهل ان اسايركم بجهلكم !!؟

قال الوصي :

ـ هل هذا الكلام الذي لا ينطق به الا المجانين حقيقة صادر عنك ؟ ..

ـ اجل وسوف تسمع مني كلاماً اعظم من الذي اسمعك اياه رسولك ..

ـ ما الذي اصاب عقلك بعد سفرك الى استنبول ؟

ـ ما هو الخلل الذي بدا لك مني ؟

ـ وهل هناك جنون اكبر من حديثك هذا الذي تتحدى به اوامر طويل العمر[1] ، فلو كنت عاقلاً لادركت ما يترتب عليك من العقاب بسبب حديثك هذا ..

ـ ان من العقل أن اتحدث بمثل هذا الحديث ، ومن الحماقة والجهل والجبن ان اسايركم في جهلكم المطبق. اما العقاب الذي ينالني منكم والشيء الذي تهددني به من طرف خفي وأعني به القتل فهذا شيء لم اتخذ قراري هذا الا وانا مقدم عليه، لانني افضل ان اموت حراً محتفظاً بكرامتي كانسان لا يذعن لاستعباد انسان

١ طويل العمر يعني الأمير الصبي ..

من نوعه ، وذلك خير عندي واشرف من ان اعمر بالدنيا قرناً اعيش بـه بين ظهرانيكم وانا مسلوب حرية الرأي وحرية التفكير وحرية التعبير ..

كان الوصي يصغي لكلامه وهو بأقصى ما يمكن ان يكون من التذمر والقلق .. وكان يتصبر ضابطاً اعصابه ينتظر نهـاية كلام الفتى ولكنه بالتالي فرغ صبره وقاطع الفتى قائلاً :

– أكل اهل هذه البلاد والقبائل بأسرها حمقى وجهلة وانت وحدك الفاهم العاقل لانك غبت في تركيا وجئتنا ظاناً انك الوحيد الذي تفهم وان غيرك مجانين لا يفقهون ولا يفهمون ..

– اعتقد ان الخلاف بيننا بدأ من اجل رفضي لمشاركتكم بهذه الغزوة ..

– طبعاً هذا امر طويل العمر الذي لم يتأخر عن تنفيذه من هو اكبر منك قدراً وارفع حسباً ونسباً ..

– يجب اولا وقبل كل شيء ان اعلم الفائدة التي تعود على المواطنين من وراء هذه الغزوة ، كما يجب ان اعلم من هم الاعداء الذين نود ان نصب غارتنا عليهم ونقاتلهم ويقاتلوننا هل هم من الذين بيننا وبينهم خلاف بالعقيدة والوطن والدم واللغة ، ومن ثم جاؤونا معتدين على اموالنا ومحارمنا فان يكن الامر كذلك ، فسوف اقول لك من الان اللهم انني ملب لنداء الجهاد وسوف اكون في طليعة المجاهدين ، بل اعتبرني الفدائي الاول المناضل وسوف اضحي بحياتي في سبيل الدفاع عن شرف الوطن ؟ ..

ثم استطرد قائلا : اما اذا كانت غزوتكم هذه كما اظن واعتقد بأنكم اعددتموها لقتال ونهب اموال قوم نشترك واياهم بالعقيدة الروحية المقـدسة ، وبالشعور القومي النبيل وبالاحاسيس المشتركة .. واهدافنا واهدافهم متناسقة ومنسجمة

ولم يكن بيننا وبينهم كمواطنين أي خـــلاف مذهبي او عقائدي .. اللهم الا الخلاف الذي بينكم وبين الزعماء الذين ينازعونكم السيادة ، فأصبح تنازعكم هذا مدعاة لاستغلال سذاجة مئات الالوف من المواطنين الذين ذهبوا ضحية لصراعكم الذي كان ولم يزل على حساب ابناء الوطن من كلا الجانبين .. اذا كان الامر كذلك كما اعتقد فاللهم انني ارفض اوامركم ..

كان الوصي يحاول ان يضبط اعصابه ولكنه في النهـــاية اعياه الاحتمال وضاق ذرعاً من سماعه حديث الشاب المزعج .. فخشي ان يؤمن المستمعون بمنطقه المعقول ومبادئه الهدامــة لعرش امارته كايمان سخرة فرعون بموسى ، ولذلك صاح بالفتى قائلا :

– اسكت يا قليل الادب ثم اردف هذه العبارة : انك تتكلم كلاماً لست له أهلا .. وعندها صاح بحجابه قائلا : اخرجوا هذا الوقح من هنا ..

فدفع الفتى حجاب الوصي وهو يقول :

– ما اكثر الذين يتحدثون حديثاً ليسوا له بأهل ..

لو عاقبته انتشرت افكاره !!!

بعدمـــا خرج الفتى ، ساد المجلس الصمت ، ثم تفرق من في نادي الوصي واحداً تلو واحد . حتى انه لم يبق الا القليل جداً من النخبة المقربين ، كان الوصي يحاول ما استطاع ان لا يثير موضوع الفتى ، ولكن احد حراسه بادر الوصي بقوله :

– ما كنا نظن ان تترك مثل هذا الشاب الطائش بدون ان ينال منك عقاباً شديداً يكون عبرة لكل من يتجاسر على هيبة الحـكم كتجاسر هذا المغرور ..

وما ان انتهى المتحدث من هذه العبارات حتى رفع الوصي رأسه ومد بصره يميناً وشمالا ثم قال :

ـ اعتقد انه ليس بيننا احد لا نثق به ، فاجابه احد الحاضرين بقوله :

ـ أجل ليس هنا الا الاخوان المخلصون ..

وعندها تنهد الوصي وقال .

ـ لقد فكرت في الامر طويلا وشئت ان اتخذ نحوه عقاباً صارماً ..ولكنني تراجعت عن ذلك لارحمة به ، وانما وجدته يتحدث عن عقيدة وايمان، والايمان بالعقيدة وبالمبادىء لا يقاوم اصحابها بالعقاب..وانما يناظرون بالحجة والبرهان والمنطق المقنع .. ثم مضى الوصي الى ان قال: وأيم الله انني لو عاقبت هذا الفتى لما يأتي من عقابنا له الا ان يزداد تمرداً .. وحتى لو فرضنا اننا قتلناه فان قتلنا له سوف يحدث بين صفوف قومنا قيل وقال واخذاً ورداً ، وسوف تترامى حروف الاستفهام من أفراد قومنا كل يريد ان يعرف كنه السر الذي قتل من اجله الفتى . وسوف تكون النتيجه الحتمية هي ان تنتشر افكار الفتى الخطيرة التي اقسم لكم بالله ان لو ادرك مفهومها العميق الافذاذ البارزون من شخصيات قومنا ، وذووا الحل والعقد لتمردوا علينا جميعهم تمرداً لا يقل عنفاً عن تمرد هذا الفتى ، ولتعذر علينا قيادة جندي واحد من جنودنا .. ثم استطرد وقال:

ـ وانني ازيدكم تأكيداً بأن افكار هذا الفتى ومبادئه التي يشير اليها لو تسربت الى الجم الغفير من ساكني الجزيرة البارزين وآمنوا بها ايماناً راسخاً صادرا عن ترو وفهم ، لحدث انقلاب فكري تسفر نتائجه عن توطيد عرى الصداقة والاخوة بين بعضهم ببعض .. ومن ثم سوف تتحد صفوف قومنا وصفوف قوم خصومنا اتحاداً سيطوح بزعامة جميع المتنازعين على الزعامة ..

وعندئذ سوف يكون الحكم في النهاية للجمهور ، وآخر الامر نذهب نحن ومنافسونا ضحية لمبادىء هذا الفتى ..

وذهب الوصي بحديثه الى ان قال : وخوفاً من وقوعنا بهذا الاحتمال الحتمي فيما لو عاقبته ، من اجل ذلك تركته وشأنه ، وختم الوصي الداهية حديثه لحاشيته الخاصة بقوله :

انني اؤكد لكم بأن هذا الفتى من المستحيل ان يبقى في مجتمعنا هذا لانه لن يستطيع ان يعيش بين ظهرانينا ، بل سوف يغادر بلادنا الى حيث القت .. وفي ذهابه تموت افكاره هذه الخطرة في مهدها ، ونكون نحن ارحنا انفسنا من انتشار فكرته بكل سهولة ..

وبعد فانه مما يدلنا على بعد نظر الوصي هو ان الفتى ما استطاع ان يعيش في بلاده بل رحل عنها واستوطن المدينة المنورة ، حيث ظل يعمل مفتشاً في سكة الخط الحديدي الحجازي ولم يعد الى بلاده حتى وحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وانتهت اسطورة الغزو والسلب والنهب الى غير رجعة ..

الكلمة التي غيرت مجرى حياة الفتى

- ٢٤ -

كانت الكويت في مطلع القرن الحالي الهجري كخلية النحل يعج باللاجئين السياسيين ، وكما ان لبنان اليوم مأوى لكل عربي ساخط على حكام بلاده ، او او مطارد من قبل حكومته ، فكذلك كانت الكويت مأوى للساخطين على حاكم نجد وقتها ومركزاً للطامحين الى سيادة الجزيرة وكان من بين الفئة الاخيرة فتى في شرخ شبابه ، لم يتجاوز العقد الثاني من عمره بعد ، يمتاز عن فتيان مجتمعه بصفات كثيرة منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ..

فاما الصفات المادية التي يمتاز بها هي انه رحب الذراعين قمحي البشرة عاري الاشاجع فارع الطول لا يضارعه اي فتى في قامته المديدة المهيبة ..

واما صفاته المعنوية فانه كان محطا لآمال الفتيان المغامرين ، لا لكونه من سلالة اسرة كانت صاحبة السيادة في شبه الجزيرة حقبة من الزمن ، بحكم ان ذلك العهد يؤمن أهله بالمجد الموروث اكثر من ايمانهم بالمجد الموهوب المكتسب لا ليست الامال معقودة على الفتى من هذه الناحية فحسب ، بل لان صفات الزعامة مطبوعة في شخصيته ومؤهلات القيادة متوفرة بذاته ، واخلاق السيادة بارزة على محياه ..

ويقدر ما كانت الصفات الاولى من شأنها ان تغري الفتيات الحسان وتجعلهن يحاولن ما استطعن فتنته وجلبه اليهن ليصطدنه بسلاحهن الماضي الذي يأسر

القلوب ، ويستهوي الافئدة ، بقدر ما كانت الصفات الثانية حافزات للفتيان المغامرين المتمردين ، عـلى ، ان يستثمروا تلك الصفات لانفسهم ، وان يبذلوا ما استطاعوا من الجهد الذي يمكنهم من حراسة الفتى من غزو الجنس اللطيف لفؤاده .وهيمنتهن على مهجته

الفتى على مفترق الطرق :

كانت ناعسات الطرف يحاولن اغراء الفتى بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، وكان الفتيان واقفين لهن بالمرصاد ، وكانت الفاتنات يعرفن انهن اذا لم يصدن الفتى الآن ، فانه من غير اليسير عليهن ان يظفرن بـه عندما يشغله رفاقه المتمردون بالمغامرات والثورات التي لا يؤمن بها ، ولذلك كن يترقبن غفلة الفتيان بفارغ الصبر ليرمين الفتى بسهامهن التي لا تخطيء الهدف ..

كان الفتيان لهن بالمرصاد ، وعلى جانب كبـير من اليقظة والانتباه لكل ما يبدينه من حركات وسكنات نحو فتاهم معقد الآمال ، وكانوا يعلمون ان اي كسب يناله الفاتنات فانه سيكون على حساب امانيهم التي يحلمـون بتحقيقها ، على يد فتاهم الذي يتوسمون به جميع صفات الزعامة والقيادة ..

وهكذا ظل المتنافسان يصطرعان وظل الفتى على مفترق الطرق وهو الى جانب الفتية أميل منه الى جانب الساحرات ، وان كان مهـدداً من الاسهم المسلطة عليه في كل لحظة وحين ..

وفي غفلة من الفتيان نصبت احدى الفتيات الماهرات بالصيد شبكتها لتصطاد الفتى ، وعندما دنا الفتى من الشبكة واغراه الطعم ، واوشك ان يلقي نفسه في

قلب الفخ المنصوب ، عند ذلك اخـذ حذره وتراجع ، وراح يفكر بالاستعانة بواحد من رفاقه ذوي الخبرة ، بهذا الشأن ، ولكن رفيقه هذا وان يكن لا يتورع عن سلوك ذلك السبيل اذا سنحت له الفرصة ، ولكنه لا يرضى هذا المسلك لذلك الفتى الذي يبني عليه هو ورفاقه آمالاً بعيدة المدى ..

ولذلك نجد ان ذلك الرفيق كان جريئاً ومخلصاً عندما قال للفتى ما معناه :

- لقد كنت عظيم الامل في مستقبلك الزاهر ، فسيح التفاؤل بمـا اتوقعه فيك من مواهب القيادة الكامنة في شخصك ، قوي الاعجاب بنجابتك وفتوتك .. كان ذلك قبل ان يبدو لي منك ما بدا في هذه الليلة السوداء ، وكنت اعتقد ان طموحك الى لذة المجد ، يحول دون هذا المسلك ..

كان الفتى يصغي الى ناصحـه المخلص الوفي بكل حواسه ، وما ان انتهى الناصح حتى تراجع الفتى من ساعتها ولم يفكر ان يسلك سبيلا كهذا حتى توفاه الله بعدما بلغ العقد الثامن من العمر وعـاد يحدث نفسه بالمعنى الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي :

ولا تحسبّن المجـد زقا وقينة

فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتركك في الدنيا دوياً كأنمـا

تداول سمع المرء أنمـله العشر

اعتقد ان القارىء ليس بحاجة لان اذكر له اسم الفتي .. فالادلة والقرائن سالفة الذكر كلها تغني اللبيب عن ذكر اسمه وتجعله يعرفه بالاشارة ، ولا سيما والحادثة معروفـة وتناقلها الرواة عن مصدرها بالذات .. ولكنني لا بد من

الاشارة الى توضيح اسم ذلك الفتى الذي قـدر له ان يلعب أعظم دور بارز في تاريخ جزيرة العرب ، وان يوحد اجزاءهـا المترامية ، واعني به المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود .

اما صاحب الكلمة التي كان لها ولا شك أكبر الاثر على مجرى حياة الفتى ، فان الرواية عندي مختلفة ، فقد رويتها عن أحد انجاله وهو الامير سلطان ، يقول انه سمعها من والده وان صاحب الكلمة هو محمـد بن سبعان من ساكني الرياض ، كما رويتها من الامير محمد بن عبد العزيز الابن الثالث للملك عبد العزيز يقول انه سمعها ايضاً من والده وان صاحب الكلمة عبد العزيز المشوق الملقب بـ (ابو عبيد) ..

والذي اتوقعه ان كلتا الروايتين صحيحتان ، وذلك انه قـد يكون كل من سبعان والمشوق اتفقا بالرأي والمعنى والقول .

* * *

فارس البيان يهزم فارس السنان

- ٢٥ -

من هذه القصة الآتي شرحها يتضح للقارىء ان الشجاعة الادبية لا تقل وزنا عن الشاعة الحربية ، اذ لم نقـــل انها في بعض المناسبات كهذه المناسبة بالذات وأمثالها يكون لها اي الشجاعة الادبية الاثر الفعال الذي لا تقوم مقامه الشجاعة الحربية ..

كان ذلك في عام ١٣١٠ هـ عندما تجادل بندر التمياط وداغر السوادي [١] وقبل الدخول في شرح الجدال الذي دار بين التمياط والسوادي والذي انتصر فيه الثاني على الأول اود ان اذكر طرفاً عن شجاعة التمياط في الحروب ، وعن ما يتمتع به من باع طويل في هذا المضمار ، فاذكر مثلا على سبيل الحصر مايقال ان فارسا من فرسان احدى القبائل طلب مبارزة التمياط وكان وقتهـــا في عنفوان فتوته والمبارزة في حالة كهذه لاتكون الا بالسيف والرمح وعلى انفراد وعندما تنازل الفارسان انقض بندر على قرنه وصفقه على هامته بـ (القرطه) صفقة هشم هامته وتدحرج بها عن ظهر جواده وجيء به الى اهله بحالة [٢] يرثى لها فهناك من اهله من يقول (انه ميئوس منه على اســـاس ان الضربة كسرت عظم الرأس ووصلت إلى المخ .. وهناك من يقول ان مخه سالم لم تصل

---

١ داغر من قبيلة شمر نجد من فخذ آل جعفر من عبده..

٢ القرطة هى عبارة عن عصي كبيرة يكون على رأسها حديدة ثقيلة.

اليه الضربة وكانت العرب في حالة كهذه تقوم بعملية امتحان للجريح وتعريف ذلك انه يؤتي بقبضة من حب القمح ويطلب من الجريح ان يكظم عليها باضراسه فان هو استطاع ان يطحن الحبات فمعناه ان مخه سليم وانلم يستطع فهذا يعني ان مخه مصاب وليس فيه بعد ذلك أمل ، فجاؤوا بالحب فقال واحد من اهله :

– أتريدون ان تمتحنوا سلامة مخه ؟.. قالوا :

– نعم .. فقال :

– انا اؤكد لكم ان مخه مصاب بشلل طبيعي منذ الاساس .. قالوا :

– وما دليلك فقال ؟ ..

– دليلي انه لو كان في راسه مخ لكان بامكانه ان يطلب مبارزة اي فارس من فرسان عشيرة بندر اما انه يذهب بمحض ارادته ويطلب مبارزة بندر بالذات . . فهذا دليل على ان راسه [1] فارغ من المخ ..

هذا واحد من الادلة الواقعية التي تعبر تعبيراً واضح المعالم على فروسيةبندر وشجاعته ، واما الدليل الثاني فهو انه عندما وقعت المعركة الطاحنة بين عبدالعزيز المتعب الرشيد وبين مبارك الصباح في تاريخ ١٣١٨ هـ ١٩٠١ مالمسماة بوقعة الطرفية ، وكان مع ابن متعب جميع فرسان قبيلته ومن ضمنهم بندر التمياط ، وعندما التقى الجمعان وواجه الفرسان الفرسان ، عند ذلك اصيب بندر التمياط بجرح كما قتلت فرسه ، فكر عليه فرسان من عشيرته الاقربينمن أجل أن يحملوهعلىاحدىافراسهملئلا يجهز عليهالعدو ويقضي عليه وعند ذلك صاح بهم قائلا :

---

(١) اصبحت هذه الكلمة مثلا يقال عند كل مناسبة نضارع هذه المناسبة .

- تبا لكم اتقدمون لي فرسا من جيادكم والله لن ابارح مكاني حتى تأتوني بفرس من جياد العدو ، وما كان من ابنا عمه الا ان هجموا جميعا وجاؤا له باكثر من فرس من خيل العدو .

فهذا الرجل الذي بلغت شجاعته بالحروب الى هذه الدرجة ، يأتيه شخص كداغر السوادي فيهزمه هزيمة ادبية شنعاء، مع العلم بأن القضية لو كانت مبارزة بالسيف وعلى صهوات الجياد لما استطاع داغر ولا عشرات امثاله ان يقفوا بوجه التمياط ..

أسباب الجدل وبواعثه !!

عندما كان بندر التمياط هاربا من محمد العبدالله أمير حائل ومستجيرا بجوار جدعان ابن مهيد رئيس قبيلة الفدعان [١] ، في تلك الايام أشيع خبر يفيد ان الامير محمد بن رشيد توفي ، ومما لاشك به ان هذا الخبر من شأنه ان يهلل ويكبر له كل من ابن مهيد العدو التقليدي لمحمد الرشيد كما يسر له ايضاً التمياط الذي هاجر عن اهله وبلاده بسبب غضبه على محمد . .

وبحكم انقطاع المواصلات آنذاك بين ابن مهيد الذي يقطن الاراضي الشمالية الغربية لدمشق ، وبين محمد الذي في نجد ، لم يأت احد من الجانب الثاني يفيد ابن مهيد عن صحة الخبر ، وكانت مناسبة سعيدة عندما وفد الى ابن مهيد شخص قادم من نجد ومن قبيلة شمر بالذات التي يرأسها محمد العبدالله ، ومن المسلم به ، ان يكون لدى هذا القادم الخبر اليقين عن صحة وفاة أميره . .

وهذا القادم هو داغر السوادي سالف الذكر ، جاء ليسأل عن (رجل

---

(١) راجع ص (٨٩) من شيم العرب للمؤلف في هذا الجزء

فرس [1] باعها لشخص من قبيلة ابن مهيد منذ مدة كذا سنة ، وبعدما أحسن ابن مهيد قرى ضيفه كعادته لضيوفه ، عند ذلك راح يسأله قائلا :

ـ ما هي أسباب مرض الامير محمد التي اودت بحياته ؟ ..

ـ فأجابه السو دي على الفور قائلا :

ـ من أين جاء اليكم هذا الخبر الذي لايستند على شيء من الصحة ..

وقبل ان يرد ابن مهيد على حديث ضيفه قال بندر التمياط موجها حديثه الى ابن مهيد :

ـ ان هذا الذي تسأله عن محمد رجل اعرفه كذوب ولا يعول على حديثه ، فانحرف الضيف بوجهه الى ابن مهيد بكل هدوء ورزانةوقال مشيرا بالعصى التي يحملها الى بندر التمياط ومتجاهلا معرفته اياه :

ـ من هو هذا ياجدعان ؟..

فقال جدعان كيف اما تعرفه ؟ .. فقال :

ـ كاني اذكر انني رأيته ولكنني ناس اين كانت رؤيتي له ثم كرر العبارة والاشارة بالعصى كزيادة استفهام بل استهجان فقال ابن مهيد :

ـ هذا ابن عمك بندر التمياط ..

فقال بهدوء وثبات :

---

١ ـ معنى رجل الفرس هو ان العادات المتبعة عند القبائل ان الفرس الاصيل الطيبة اذا باعها صاحبها يستثنى في بيعه هذا فيقول : بعتك اياها الا نصفها او الا رجلها فالنصف تعني ان الفرس بعدما تنجب مهرتها الاولى يكون الخيار للبائع او للمشتري حسب الاتفاق ان يأخذاما المهرة او امها .. اما اذا كان البيع على الرجل فيكون للبائع الحق ان يملك المهرة الثالثة او الرابعة التي تنجبها الفرس

ـ يخسأ ـ ليس ابن عمي لقد برئت منه قبيلته شمر باسرها بعد قيامه بالعملية النكراء .. ثم اردف قائلا : كيف بك يا جدعان تقبل ان يدخل بيتك مثل هذا السافل الدنيء الذي قام بعمل أطهر لساني ، وأكرم مجلسك عن ذكره ..

المعتدي دائماً مغلوب !!!

لم يسع التمياط ان يصبر بعد هذا الكلام ولم يكن بامكانه ان يضبط اعصابه، بل قفز بلا شعور منة وانتضى سيفه قاصداً ان ينتقم من الضيف ، وفي سرعة كوميض البرق قفز ابن مهيد وجميع اقاربه والقوا القبض على التمياط وجردوه من سلاحه ثم قال ابن مهيد له :

ـ على رسلك ان هذا الذي تريد ان تعتدي عليه هو ضيفي ويتمتع عندي بالحصانة والحرمة كضيف بنفس الحصانة التي تتمتع بها كمستجير بحماي ..

ولم يكن لدى التمياط بعـــد ذلك من الحيلة الا ان خرج من نادي ابن مهيد ذليلا يجر اذيال الهزيمة والعار الذي توجه به هذا الرجل العادي ..
اما الضيف فقد كان قبل هذة المعركة بعين ابن مهيد لا يعدو الا ان يكون رجلا عادياً ، ولكنه بعد هذا الموقف البطولي ، لم يسع ابن مهيد الا ان افسح له المجلس ، وادناه بجانبه ، كما انه اصبح محطا لانظار كل من هو في ذلك الناذي وموضعاً لاعجابهم ، بعد ما كان مجهولاً القدر بسبب مظهره الساذج قبل ان يعبر عن لسان حاله بالمعنى الذي اشار الية الشاعر احمد الصافي النجفي :

من كان يجهلني بالزّي منخدعا   فسوف يعرفنى ان ضمنا النادي

وبعد ذلك استدنى ابن مهيد الضيف وأجلسه عن يمينه وهمس بأذنه بصوت منخفض قائلا :

ـ أخبرني عن الآمر الذي ارتكبه التمياط وبرئت فبيلتكم منه بسببه ..
فقال الضيف :

ـ لا يمكن ان اخبرك به سراً لان الحديث الذي قلته في مجلسك بحق التمياط كان على مسمع الجم الغفير من رجال قبيلتك ..

ـ انا لا استحسن منك ان تنال من عرض التمياط في محضر من الناس اكثر مما نلت منه فقد كفاه ما وصمته به .. ولا ارى الا انك قتلت الرجل قتلا ادبياً ومعنوياً اشد عليه من القتل المادي .. ولذلـك اطلب منك ان ترحم الرجل ، لأنني اخشى ان اعدت الكلام في حفل كالسابق ان ينتحر ..

ـ اعاهدك الله ان لا اتكلم بحق التمياط الا بالشيء الذي يشهد بصحتـه جميـع قبيلته كما ان التمياط نفسه لا يستطيـع ان ينكر ما سوف اقوله ، واذا لم يعترف بما أقول ، ويكون هو الشاهد بنفسه على نفسه ، فانني اكون وقتها كذابا كما زعم باتهامه اياي امامك ؟ ..

ـ ياللعجب ما هذا الأمر الذي برئت منه قبيلته وفي الوقت ذاته تزعم انه سوف يعترف به على نفسه ؟.

ـ لا تسألني عن كنه الامر الآن ولكن الذي استطيـع ان اؤكد لك به ان التمياط سوف يشهد على نفسه بكل كلمة اقولها بحقه ..

ـ اذن سوف يكون الحديث غداً ..

وعندما جاء الغد وتوافد رجال القبيلة على نادي ابن مهيد كالمعتاد واحـداً بعد واحد حتى غص النادي ولم يغب احد من وجوه القوم الذين كانوا حاضرين بالأمس ما عدا التمياط الذي لزم الفراش من اثر نوبة المرض التي المت به بعـد

تلك الكلمات التي هي اشد على نفسه من وقع السيف ..

بعد ذلك تصدر السوادي المجلس وافتتح الحديث بقوله :

– اعتقد انكم سمعتم ايها الاخوان ما وصمني به شيخنا وفارسنا ابو فلان «يقصد بندر التمياط» بعار الكذب الذي هو اقبح سجية يوصم بها الرجل الشريف.. ثم استرسل بحديثه الى ان قال :

ولما كان التمياط من كبار زؤوساء قبيلتي ومن الافذاذ المشهورين بالوفاء والصدق والشجاعة ولكنه بالرغم من هذه السجايا الكريمه التي طبعت بها نفسه لم يتورع عندما غضب بأن يفتري علي بخلق يعلم هو علم اليقين بأنني بريء منه كبراءة الذئب من دم يوسف .. فقد وجدت نفسي ملزماً بأن اكافح عن عرضي بأية وسيلة كانت ، وان اهاجمه بالسلاح نفسه الذي هاجمني به ، فصمت فارس البيان بعد هذه العبارة قليلا ثم انحرف بوجهه نحو الشيخ ابن مهيد وقال :

وكأنني بك ايها الشيخ الكريم تنتظر مني ان اشرح لك كنه الاشارة التي اتهمت بها التمياط بالامس ، ومن اجل ذلك سوف اوضح لك الحقيقة في هذه الاشارة فأقول وايم الله انني لااعرف عن التمياط ادنى شيء يمس شرفه او يحط من كرامته ، ولئن كنت اعرف عنه شيئا فانني اعرف انه الشجاع الشهم الابي الذي لايبيت على الضيم ، والذي اشهد له به هو انه بهجرته عنا والتجائه عندكم خسرنا قطبا من ابرز وانبل اقطاب قبيلتنا الذي لايعوض واخيرا ختم الضيف حديثه قائلا : كنت اتمنى ان التمياط وصمني بعار الكذب وانا بين رجال قبيلتي الذين يعرفونني جيدا فلو ، كان الامر كذلك لما اشكل عليّ الامر اعتقاداً مني بأن رجال قبيلتي كما اسلفت يعرفون حقيقة امري ، ولكنه سامحه الله اتهمني بهذا العار الوقح امام اناس لايعرفون عني شيئا ، بينما هو معروف لديهم بالصدق كما هو معروف لدينا بذلك ...

تسامح بعد الانتصار

بعدما انتهى السوادي من حديثه تضاعف اعجاب ابن مهيد به وفي الوقت ذاته راح ابن مهيد بنفسه يتشافى لمستجيره التمياط من اثر سنـــان الرمح الذي طعنه به فارس البيان ويبشره بالكلام الذي سمعه منه ، فكانت هذه البشرى من ابن مهيد بلسما لجروح التمياط الذي راح يقبـــل رأس السوادي ويعترف له بخطيئته . . [1]

---

(١) رويت هذه القصة من سليمان بن رشدان منذ عشرين سنة تقريبا ومن قبيـــل الصدف اطلعت على قضية عربية مشابهة لها وذلك في جمهرة خطب العرب ج ١ص١٠٦ ومضمونها يشير انه وقع بـــين عمرو ابن الاهتم ، والزبرقان بن بدر جدل بمحضر من الرسـول (ص) وذلـك عندما سأل الرسول عمراً عن الزبرقان فقال عمرو : مطاع في ادنيه شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان والله يارسول الله انه يعلم عني أكثر مما قال : ولكنه حسدني شرفي..

فرد عليه عمرو ثانية وقال : اما لئن قال ما قال ، فوالله ماعلمته الا ضيق الصدر احمق الوالد لئيم الخال ،حديث الغني .. فلما رأى انه خالف قول الاول قوله الآخر ورأى الأنكار في عيني النبي قال : يارسول الله رضيت فقلت احسن ما علمت وغضبت فقلت اقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ... ولقد صدقت في الآخرة، .. فقال الرسول: ان من البيان لسحرا ..

وهذه الحادثة فيها تقارب من حيث الشبه وقد يكون هناك بعض الإختلاف غن حادثة عمرو والزبرقان من حيث الشكل .

قوة العقيدة غلبت قوة السلطة

- ٢٦ -

لا شيء في الدنيا أقوى من قوة العقيدة ، وعندما يعتقد المرء انه على حق، فلا شيء في الدنيا يقهره ، فالموت الذي هو اقصى مراحل العقوبة يعتبره المؤمن ذو العقيدة الصادقة أنه شهادة نال بها رضى مولاه ورحلة ينتقل بها من دار الشقاء والفناء الى فردوس النعيم والخلود الابدي ، والسجن يعتبر كفارة او رياضة

وليس من شك في ان المؤمن الشجاع هو اسعد بني الانسان لانه لا يمكن ان يقهر او يغلب مهما كان خصمه قويا ومهما كان ضعيفا لا قوة له ولا ناصر ..

ومن يعتقد ان انتصاره بموته .. فكيف يغلب من يحمل هذه العقيـــدة ويؤمن بها ..

والعلماء الروحانيون المؤمنون المخلصون كانوا هم اصحاب السلطة الحقيقية، ومن خلال قصتنا هذه الواقعة حوالي عام ١٢٩٠ هـ يتضح صحة ما نشير اليه ..

.. كان الامير محمد العبدالله الرشيد واضعا وقتا معينا في ناديه يقرأ فيه فصولا من التاريـخ والاحاديث النبوية وطرفـــا من كتب الحكمة والادب ، وكان الذي يتولى القراءة طالباً من التلاميذ الذين يدرسون العلوم الدينية على يد قاضي البلاد الذي يعتبر بمثابة المفتي الاكبر من حيث القضاء ، كما يشبه ما يعبر عنه برئيس الجامعة الاسلامية بصورة مصغرة وبحجم متواضع عما يسمي بـــه اليوم ، وكان الذي يتولى الاشراف على هـــذين المنصبين الشيـخ

محمد الغنيمي [1] ، وهــو الذي ينتخب الطالب الذي يقوم بمهمة القراءة في نادي الامير .. وقد وقع اختيار الشيخ على فتى من طلابه النابهين يدعى يعقوب[2] وفي احدى الايام كان الطالب يقرأ تاريخ ابن كثير ، ترجمة حياة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) بصوته الجهوري ، وكان المستمعون ينصتون للقاريء بكل حواسهم لما في حياة عمر من عبرة وقدوة صالحة للحكام العادلين في كل زمان ومكان .. وعندما انتهى القاريء وساد الصمت وأديرت كؤوس القهوة كالمعتاد، بعد ذلك تولى الحديث نائب الامير المدعو حمود العبيد ، حيث كان الامير وقتها غائباً عن البلاد ، وراح يشيد باعجابه الشديد بشخصية عمر ، ومضى بحديثه هذا المتضمن ثناءة واطراءه للخليفة الثاني الى ان قال ما معناه :

ان اخلاق والدي [2] وقوة شخصيته الفذة تشبه الى حد كبير شخصية عمر بن الخطاب ..

وما ان انتهى الامير من حديثه عن والده حتى انبري له الفتى يعقوب قائلا ما معناه :

ـ ان البعد بين اخلاق والدك[3] وبين اخلاق عمر بن الخطاب كبعد المشرق عن المغرب ، ثم استرسل قائلا : شتان بين شخصية والدك الذي استعمل شجاعته بدافع من انانيته ولحساب نفسه واسرته ، ومن اجل النعرة القبلية الجاهلية ، وبين شخصية عمر بن الخطاب الذى اوقف حياته ونذر نفسه لرفع شان الامة

---

١ الشيخ الغنيمي اصله من اهالي قرية تسمى نمام وهو من سكان حائل.

٢ يعقوب من بلدة حائل وعبد الله العمر امام الجامع الكبير حالياً في حائل يكون حفيدا ليعقوب المذكور .

٣ حمود ابن عم الامير محمد وهو شاعر شعبي .. وهو الذي يتولى امـارة البلاد في حالة غياب الامير .

٤ والده : هو عبيد العلي الرشيد رجل شاعر وفارس مغوار .. وكثــيراً ما يكون شعره الحماسي مطابقاً لبطولتة .

الاسلامية الشاملة بمفهومها الانســاني لكل من آمن بالله وبرسالته أنبياءه واليوم الاخراني كان جنسه ومهما كان لونه .. دون اية تفرقة ، بالحسب او بالنسب) ..

لم يتحمل الامير طبعاً ان يفند رأيه بأي حديث يقوله فكيف اذا كان هذا الحديث خاصاً بوالده ؟ .. ومن بدهيات الامور ان يصب جام غضبه على هذا الوقح لكي لا يتجاسر المواطنون على تنفيذ رأي الامير سواء كان فيــه شيء من الصواب او كله خطأ بخطأ ..

ولذلك صاح الامير بيعقوب قائلا ما معناه :

ـ أمثلك يزدري والدي هذا الازدراء ..؟

ثم استرسل بحديثه قائلا : ـ اليس لديك من الادب ما يجعلك تتحدث عن شخصية عمر بكل ما هو له أهل .. ونحن نشاركك الاعجاب ، فلك ان تفعل ذلك لو كنت مؤدبا دون ان تسيء الى حرمة والدي وتنال منه، فقال يعقوب :

ـ انت الذي جلبت الاساءةالى والدك عندما قارنت بينه وبين أمير المؤمنين الفاروق ، ولو قارنته بنفسك او بأي من شئت من اسرتك لما اجبتك .. اما وقد قارنته بشخصية افضل العرب والمسلمين بعد محمد ص وأبي بكر (ض) بعد ذلك أصبح الجواب مني فرضاً واجبا كما يكون سكوتي جريمة يحاسبني عنه الله ويؤنبني ضميري عليه ، لان الساكت عن الحق كالناطق بالباطل ..

ومن هنا هاج الامير واشتد غضبه ولم‌يبق لديه من‌الجواب المقنع الذي‌يدحض به حجة الفتى ، الا انه قال بعدما امطر عليه وابلا من الشتائم والقذف:

ـ اخرج من هنا ..

فخرج الفتى مرفوع الرأس بعد ان قال كلمة الوداع للامير :

ـ انه لشرف حباني الله به بأن يكون طردي من ناديك بسبب انتصاري لامير المؤمنين ..

لم يكن الشيخ الغنيمي موجوداً عندما وقع الشقاق بين الامير وتلميذه يعقوب، الا انه حضر بعد ذلك بمدة وجيزة ، وما ان جلس الشيخ واحتسي كوباً من القهوة حتى قام الامير يشرح له القضية كما وقعت باسلوب فيه تلطف وتودد للشيخ من ناحية ، ومن ناحية اخرى فيه شكوى للشيخ على تلميذه الذي لا يحسن الادب ولم يحترم مقام الامارة ..

ـ بعد ما انتهى الامير من حديثه قال الشيخ بهدوء ورزانة :

ـ ماذا كان موقف زملاء يعقوب من القضية ؟ ..

فسرّ الامير لسؤال الشيخ ظاناً انه سوف يضع اللائمة على تلميذه فقال :

ـ ان تلامذتك على جانب كبير من العقل والتروي والادب وذلك بفضل توجيهاتك القيمة وتعاليمك الرشيدة التي كان لها الاثر المحسوس على سلوكهم ، حيث كانوا كلهم مؤدبين ولم يبدر منهم اي شيء من قلة الادب التي بدرت من ذلك الاحمق المعتوه الذي اضطرني ان اطرده من مجلسي بسبب تصرفاته الرعناء.

وما ان انتهى الامير من كلامه حتى قفز الشيخ من المجلس وقال :

ـ ان المكان الذي يبعد عنه يعقوب من اجل انه انتصر للحق يتحتم علي بأن لا ابقى فيه لحظة واحدة ، وان اقاطعه واقاطع التلاميذ الذين لم يغضبوا للحق الذي غضب من اجله يعقوب ..
كانت لهذه الكلمات الختامية التي تحدث بها الشيخ مع الامير صداها الايجابي في البلاد ، وخاصة عند تلاميذ الشيخ الذين ضاقت بهم الارض بما رحبت ، وخير

وسيلة التمسها الطلبة لرضاء شيخهم هي ان ذهبوا الى زميلهم يعقوب ، يرجونه بأن يشفع لهم عند شيخهم ، ولم يبخل يعقوب بجاهه ، بل ذهب الى شيخه وطلب منه ان يعفو عن زملائه ، فسمح الشيخ بعد ان اقسموا على انفسهم ان لا تطأ اقدامهم منزل الامير ما لم يسحب الامير كلامه السابق لزميلهم ويرضيه من جديد ..

بلغ الامير التضامن الذي اتفق عليه الشيخ وتلامذته من الاضراب عن زيارته تضامناً مع الطالب يعقوب ..

ولما كان الشيخ كما اسلفت آنفاً صاحب المنزلة الروحية التي لها اعظم تأثير فعال على المواطنين، فانه من مسلمات الامور ان يشعر الامير بقلق نفسي ووخز في ضميره ، الامر الذي جعله يتنازل عن كبريائه ويذهب وحاشيته الى منزل يعقوب ذلك الشاب الصعلوك الذي لا يملك من حطام الدنيا قطميراً ، ولكنه يملك اثمن الاشياء وأنفسها وأعزها الا وهو الايمان بالله ، والاعتماد عليه والثقة بالنفس ، والاخلاص المحض ..

كانت مفاجأة بالنسبة ليعقوب عندما طُرق بابه وخرج لينظر من هو الطارق واذا هو بالامير يعانقه ويعتذر منه ويطلب منه ان يذهبا سوياً الى الشيخ ، فيوافق يعقوب على ذلك ويذهبان الى منزل العالم الرباني الجدير بالاعجاب والتقدير وخلود الذكر ، الذي لو لم يقف بجانب تلميذه ذلك الموقف الصلب لما اضطر الامير الى تراجعه وتنازله عن عظمته حتى راح بنفسه يزور ذلك الشاب الفقير البائس الذي طرده من مجلسه بالامس ..

وعندما رأى الشيخ يعقوب بجانب الامير ادرك ان الامر بالنسبة ليعقوب انتهى ، وما دام ان تلميذه البار المخلص رضي فان الشيـــخ بطبيعة حاله سوف يرضى[1] ..

---

١ اعود واكرر العبارة الثانية مؤكداً بأنه مع احترامي للطالب الشجاع يعقوب، فان الفضل يعود لشيخه الغنيمي ذلك الرجل الذي لم يكن عالماً فحسب بل كان فارساً مغواراً، وهو احد ابطال المعركة التي وقعت بين بندر بن طلال الرشيد وبين هزاع بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وذلك في تاريخ ١٢٨٦ وتسمى هذه المعركة بذبحة الردفا وقد رويت من سلمان بن رشدان ان الابطال الفرسان الذين حموا مؤخرة جنود بن رشيد هم الشيخ محمد الغنيمي صاحب الترجمة وعبد المحسن الجبر والسندي بن زويمل وعلي بن حجاج .

إن من يفي مع من لا يرجى حري به أن يفي مع من يرجى !!!

- ٢٧ -

أذكر قصة اطلعت عليها في كتب الادب العربي بطلها معن بن زائدة الشيباني وهي من حيث المعنى والمقارنة تشبه الى حد بعيد هذه القصة ..

من المعروف ان معناً من قادة بني امية الاوفياء المخلصين ، وهو من رجال عهدهم الاخير ، حيث ظل وفياً ومحارباً بجانب مروان بن محمد الملقب بمروان الحمار الى آخر لحظة ، ولمعن قصص متعددة بالشجاعة وبالحلم وبالكرم وبالوفاء .. ومن اراد الاطلاع عليها فليراجع كتب الادب كالعقد الفريد وفي كتب التاريخ العربي كتاريخ أبن كثير الخ ..

وربما كان معن هو الرجل الوحيد من رجال بني امية الذي نال منصباً في العهد العباسي ، وخاصة في عهد المنصور .. موطد اركان الدولة العباسية .

كان معن في عنفوان العهد العباسي لا يسمح ان ينال احد من كرامة بني امية في مجلسه ، مما جعل الوشاة يتهمونه عند الخليفة المنصور بأنه لا زال وفياً مخلصاً للاعداء الامويين ، فامر المنصور باحضاره .. وعندما مثل بين يديه قال له المنصور :

ـ أراك لا زلت مسرفاً بوفائك لبني امية .. فلم يتردد معن عن القول :

ـ أجل يا امير المؤمنين ان من يفي مع من لا يرجى حري به ان يفي مع من يرجى . .

فما كان من المنصور الا ان قدره واكرمه واناله ثقته ومنحه منصب وال له على اليمن . .

* * *

وبطل هذه القصة رجل متواضع بسيط من حيث شخصيته ، الا انه عبر لا عن رأي ووفاء فحسب بل وعن جرأة ادبية .

هناك شاعر شعبي يدعى محمد [١] بن هويدي وقد زار هذا الشاعر الامير محمد العبد الله الرشيد في الفترة التي استولى بها على الحكم في نجد بصورة مطلقة . . وفي احد المجالس العامة راح الشاعر يتلو قصيدة كلها هجاء بحق الامام عبد الله الفيصل آل سعود وما ان بدأ الشاعر يتلو اول بيت من قصيدته حتى انطلق عليه أبو سعيد [٢] الفيصل يلعنه ويسبه بملء فيه باقذر الشتائم ، فبلغ الخبر الامير محمد ، وكان البعض يظن ان الامير سوف يعاقبه شر عقاب على نيله من كرامة ضيفه ، ولكن الذي حصل عكس ما يظنه المتخرصون ، بل ان الامير بعث لسعيد الفيصل كسوة [٣] وخرجية تقديراً لوفائه وأمر الشاعر ابن هويدي بأن لا يعود الى مثل ذلك .

---

١ ـ ابن هويدي من ساكني المجمعة واصله من قبيلة عنيزة
٢ ـ من موالي الامام فيصل ابن سعود
٣ ـ الكسوة تقوم مقام الوسام في عصرنا الحديث

رويت القصة من المرحوم عبد الله المتعب الرشيد .

يستطيع ان يسجنني ولكن لا يستطيع ان يرغمني

- ٢٨ -

قوة الارادة مصدرها قوة الايمان . وهذه الاخيرة هبة من الله ، فالشجاع اذا لم يكن مؤمناً لا يمكن ان يكون شجاعاً . وعلى هـذا الاعتبار تكون الجرأة الادبية وشجاعة الحروب كلاهما مصدرهما الايمان بالعقيدة والثقة بالنفس..

ومتى كان المرء مؤمناً بأن ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه ، وان اكبر كبير بهذا الكون هو صغير تافه امام عظمة العقيدة وقدسيتها عندما يدرك المرء هـذه الظاهرة ويؤمن بعدالة قضيته فانـه لا يبالي باية سلطة تهدده ..

وبطل قصتنا هذه هو ما جد كردي ، وقبل ان امضي قدماً في مواصلة البحث ، احب ان اجيب القارىء فيما اذا شاء ان يضع حرف استفهـام بين قوسين مشيراً به على انني اكتب شيم العرب ، فما بالي الان آتي باسم معروف من كنيته بانه من اصل غير عربي كما يعرف الكتاب من عنوانه .

جوابي على ذلك يتلخص كما يلي :

وهو ان صاحب الترجمة مولود في مكة مهبط الوحي وقبلة العالم الاسلامي ولغته عربية ونشأته عربية وثقافته عربية وتقاليده عربية ،ومن المعلوم ان الحكم

في حالة كهذه يكون لهذه العوامل الحيوية اكثر منه لاي عامل آخر ..

وكل يعلم ان الولايات المتحدة الامريكية تضم خليطاً متبايناً من مختلف الاجناس ، ولكن كلهم مؤمنون بقوميتهم الاميركية ..

كل هذه الادلة او بعضها مبرر ولا شك ، لما اشرت اليه ، وصاحب الترجمة هو المرحوم ماجـــد كردي ، كما اسلفت من مواليد مكة تولى مديرية الاوقاف والمعارف ، وكان يملك مطبعة تسمى المطبعة الماجدية ، وقد عمـــد الشريف المرحوم الملك حسين بن علي احـــد رجاله ليشتري اوراقاً للجريدة الحكومية من الاستاذ ماجد كردي باسعار اقـــل من السعر الذي يبيعه للناس فرفض الكردي ، الا ان يشتري منه الملك كما يشتري منه سائر الناس ، فاصر الملك على رأيه وازداد صاحب المطبعة اصراراً على رأيه ، فهدد الملك بأن يستعمل سلطته فيما اذا تمـــادى هذا باصراره ، فلم يكن من امر صاحب المطبعة الا ان ازداد عنفاً وتحدياً لسلطة الملك فامر الملك رجـــال شرطته ان يودعوه غياهب السجن فيما اذا لم يتنازل عن كبريائه ويبيع الورق بالثمن الذي يريده الملك ، لان القضية اصبحت بالنسبة للملك لا اهمية لهـــا من حيث زيادة ثمن الورق أو قلة ثمنه ، وانما من حيث تحدي سلطته ، كما ان الاستاذ ماجد لا يرى هو الاخر اهمية بالنسبة للزيادة او النقص وانمـــا ايمانـــاً منه بأنه على حق وان صاحب الحق يجب ان يكون شجاعاً ، وجاء شرطي الحكومة يأمر بتنفيذ اوامر الملك وان رفض فمصيره السجن ، ففضل السجن وهو مرفوع الراس مؤمن بحقه وقال كلمته التي تعبر عن ايمانه بحقه :

ـ يستطيع الملك ان يسجنني او يقتلني ،ولكنه لا يستطيع ان يرغمني ..

وممـــا يدعو الى اعجابنا بشجاعة الماجد هو انـــه كلمـــا ازدادت ايامه

بالسجن ازداد تمادياً باصراره وعناده واكثر من ذلك راح يرسل من سجنه لجميع اقاربه واصدقائه بانه لا يسمح بأن يتوسط له بالشفاعة عند الملك اي واحد منهم ..

وقد ظل بالسجن حتى ان الملك حسين نفسه ، خجل من نفسه وعاد الى جادة العدل والصواب وافرج عنه .



العاقل من لايتحدي الاسد في عرينه

محدي الهبداني ومحمد بن معبهل

- ٢٩ -

الاول من قبيلة ولد سليمان والثاني من قبيلة الرولة وهو من آ ل شعلان ولكنه ليس من بيت الامارة ويعود نسب كل من ولد سليمان والرولة الى قبيلة عنزة التي كانت ولم تزل اكثر قبائل العرب عدداً وهذه القبيلة عدنانية النسب ..

وولد سليمان ينقسمون الى قسمين : قسم منهم من بادية سورية وقسم ثان من بادية نجد .

وبالرغم من ان كلا من ولد سليمان والرولة كلهم يشملهم اسم (عنزة) رغم ذلك فان العداوة القبلية بين الطرفين كانت على قدم وساق ..

كان محدي الهبداني شاعر حماسة ومهيجاً لابشعره فحسب بل حتى في آرائه واحاديثه كما يروي عنه الثقاة .. ومما يذكر عنه انه انتهج اسلوبا في بث روح الشجاعة والرجولة في نفسية شباب قبيلته لم يسبقه اليها احد من رجال العرب فيقال عنه انه كان يختلي بالشباب من عشيرته وهو في سن العشرين عاما فيهمس باذنيه بعبارات يوهمه بهـا قائلا له اي للشاب ان لديه فراسة بمعرفة الشاب الشجاع الابي وان فراسته هذه دلته على انه يوجد في كيانه موهبة من الشجاعة والنبل

والشهامة وصفات الزعامة والقدرة التي تمكنك ايها الشاب ان تكون في المستقبل سيد القبيلة بلا منازع ثم يزيده ايهاما بقوله : وهذه الموهبة لاتنمو ثمرتها وتينع زهرتها الا اذا حافظت على امرين : الامر الاول ان تتعهد هذه الصفات في كل حركة من حركاتك واعمالك وان تجعل من نفسك قدوة صالحة لشباب قومك لكي يعترفوا لك بالفضل والميزة التي تجعلهم يذعنون لقيـــادتك لهم على طول المدى شريطة ان تجمع بين لين الجانب والتسامح واحتمال أذية رجال قبيلتك الادنين وبين العنف وقوة الشكيمة وابداء الشجاعة اذا اعتـــدى على قبيلتك معتد من الاعداء ..

ثانيا – ان لايعلم اي واحد من شباب قومك انني اكتشفت فيك هـــذه المواهب لئلا يحسدك الحاسدون على ذلك ويكيدوا لك كيدا يجعلهم بدلا من ان يسهلوا لك السبيل الى بروزك يسعون لعرقلة همتك وحبك المكيدة لك بشتى الوسائل ومختلف الاسباب .. وهكذا كان الهبداني ينفخ في كيان كل فتى من فتيان قبيلته عزيمة تناطح السحاب وهمة تفل الحديد وروحانية متسامحة مع الاهل والاقارب وشرسة عنيفة لاتلين ولا تستكين مع الاعداء المعتدين ..

هذه صورة مصغرة عن ترجمة حياة بطل القصة . .

وفي احدى المعارك التي دارت رحاها بين فرسان قبيلة الرولة وبين فرسان قبيلة الهبداني وفي الحالة التي كان الصراع بين الجانبين قد بلغ أوجه والكر والفر بينهما وصل من العنف اقصى مداه بصورة لم ترجح بها كفة جبهة على الاخرى.. ففي تلك اللحظة (تقنطرت) اي وقعت فرس محدي الهبداني في الارض وبطبيعة الحال تجندل فارسها من فوقها وهجم عليه فرسان العدو واسروه حالا ..وكان اسر فرسان الرولة لفارس كالهبداني يعتبر وحده نصرا كبيراً .. وان يكن مثل هذا الاسر حسب العرف والعادات التقليدية لايعتبر نصراً بالمعنى الصحيح اذ ان النصر هو الذي يطرح به الفارس قرنه ارضا ويستولي على فرسه او النوع

الثاني وهو ما يستولي به الفارس على نده عن طريق المعاهدة فالطريقة الاولى تسمى بالاصطلاح المتبع عند فرسان ذلك العهد (شلما) والثانية يقال لها(منعا) والفرق بينهما هو انه في الاولى اذا عف الفارس عن عدوه ولم يعاقبه بقتل ولا بأذية فان عمله هذا يعتبر حسنة وفضلا منه بينما في الاخيرة تجعل الفارس مقيداً امام العهد فلا يستطيع ان يمس أسيره بأدنى اذية وان فعل فمعناه انه نكث العهد وخفر الذمة . .

اما الطريقة الثالثة : التي اسر فيها الهبداني فهي الى الاولى اقرب وان كانت من حيث المعنى لايعاب الفارس المأسور على الطريقة التي اسر فيهاالهبداني كتلك الاولى على اعتبار ان من يؤسر على الشكل الاول ربما وجه المأخذ عليه انه استسلم للعدو بدون ان يقاوم او ان يحدث له حادث يبرر استسلامه كجرح خطير او حادث الم بفرسه وعاقها عن الجري او نفاذ عتاده او عطل سلاحه الخ .. اما الاسر الذي كأسر الهبداني فانه كما اشرنا لايعاب صاحبه قطعياً بحكم انه قضاء وقدر ..

ولما كان الهبداني من نوع الرجال الثقيليالوزن والعظيمي الهيبة علىالاعداء فان الحاقدين من اعدائه يودون ان ينالوا منه ويهمزوا من قناته حتي ولو كان هؤلاء الاعداء يعلمون ان اسره بشكل كالشكل الذي اسر به لايعاب عليه الفارس ولا يشمت به الا ان محمد ابن معبهل اراد ان يشمت بالهبدانيوينال من كرامته في نادي رئيس قبيلة الرولة ابن شعلان ذلك النادي الذي يضم مئات الرجال من فرسان ووجهاء القبيلة ومن ضيوف واجانب جاءوا من كل فج عميق ..

ففي ذلك المساء الذي كان نادي ابن شعلان غاصا بشخصيات العرب على مختلف منازلهم اتجه ابن معبهل نحو محدي الهبداني الذي وان كان اسيرا

ولكن كانت معاملة شيخ القبيلة له معاملة ضيف عزيز لامعاملة اسير مضطهد..

فقال ابن معبهل بيت الشعر الآتي :

صارت علومك يالهبادي بسايس تلوذ باطراف الشجر تقل بوم

وما ان انقطع صوت ابن معبهل حتى اجابه الهبداني فوراً بقصيدة عصماء من وحي البديهة وبدون ادنى تردد وعلى قافية ووزن البيت الذي قـــاله ابن معبهل ، والذي احفظه من القصيدة ليس الا ثلاثة ابيات فقط جاء منها ما يلي:

هذا تقنطر والسبايا مَراويسْ بِمْصَادَم الفرسَان مَـــا فيه لوم
وجهك غدا به كاسين النواميس او بيدكْ من فعل النشامى او سوم
جعِيْف وثرٍ ما تَدرِي البيس عن ملزماتك صابِ وجهك ثلوم

شرح البيت الاول : صارت علومك يالهبادي بسابيس: يقول الشاعر اصبحت أحاديثك المؤثرة وذيوع صيتك السابق بين اندية العرب وما يتناقـــله عنك الركبان من شجاعة وذكر جميل كل ذلك اصبــح في الحقيقة دعاية ملفقة لاتستند على شيء من قواعد المنطق والحقيقة – بسابيس) اي ملفقة متناقضة (تلوذ بالطرف الشجر تقل بوم (ثم يمضي ويقول : والاسباب التي قضت على ما كنت توهم به العرب من شجاعة ورجولة هي عندما كشف البستار عن حقيقة أمرك في هذه المعركة التي لم تواجه بها العدو وجها لوجه وانما ذهبت تختبيء بالاشجار هربا ورعبا من مقار الفرسان كما يهرب البوم خوف افتراس الطيور له فيـــلوذ في المساكن الخربة التي لاتأتيها الطيور ولا يسكنها الا طير البوم الجبان ..

هذا شرح بيت الشاعر ابن معبهل واليك شرح الجواب من الشاعرالهبداني:

هذا تقنطر والسبايا مراويس   بمصادم الفرسان ما فيه لوم

يقول الشاعر : لقد وقعت فرسي وأنا وقعت بطبيعة الحال عن ظهـــرها بسبب مصادمتي للفرسان وبسبب الجهد الذي الم بفرسي واعياها من الكر والطراد المستمر حتى نفد كل ما لديها من قوة نتيجة لمقارعة الفرسان (السبايا) اي الخيل تطلق على الجمع ولا مفرد لها) وكلمة مروس ومراويس الاولى ينعت بها المفرد من الخيل والثانية للجمع . المقصود ان الشاعر يقول في صدر البيت انه لم يستسلم جبنا وانما فرسه انطرحت ارضا بعدما اشبعها جريا بمطاردة العدو حتى نفدت قوتها وارتمت .. وفي عجز البيت يقول الشاعر: ان حالة كهــــذه لايلام عليها الفارس لانها حدثت في حالة الكر والعراك والصدام مع الفرسان. في ميدان الحرب ثم يمضي الشاعر في البيت الثاني فيقول :

وجهك غدو به كاسبين النواميس   وعن ملزماتك صاب وجهك ثلوم

قبل ان اشرح هذا البيت والذي يليه اود ان اشير الى ان الشـــاعر الاول سبق ان خفرت ذمته والذي خفر ذمته لايعدو من ان يكون اما أمير قبيلته ابن شعلان او رجال من نفس اسرة ابن شعلان الذين يكونون اقرب نسبـــاً من الشاعر الذي هو الآخر من الاسرة. والحادثة لطول عهدها لم اجـــد من يحفظ تفاصيلها على الوجه الاكمل وانما يؤخذ من مفهوم معاني البيتين اللذين اوردهما الشاعر كجواب على البيت الاول واللذين سوف نشرحهما فيما بعد يؤخذ من ذلك ان الشاعر الاول لايعدو ان يكون قد خفرت ذمته بصورة توحي الى انـــه

استجار به مستجير عن رئيس القبيلة او احد اقاربه الاقوياء فلم يستطع الشاعر حمايته او أنه مثلا اعتدى على جاره ولم يستطع ان يدافع عنه او يأخذ الثأر ممن اعتدى على جاره او انة اعطى عهدا لفارس ما وانزله بذمته وجاء هذا الفارس من قتله بدون ان يعبأ بعقاب من خفر ذمته الخ ..

المقصود ان الشاعر الاخير وجد على الاول مهمزا يلمزه به ويحط من قدره فكأن الشاعر الاول اعطى خصمة الاخير سلاحا ليجهز به عليه ليقطعه اربا واذا كان القتل الادبي والمعنوي امضى سلاحاً واخلد ذكراً من القتل المادي في عالم التاريخ والادب، فان الاخير وصم الاول بجوابه بمعان من الشعر ربما لولاها لما عرفنا اي شيء عن حادثة الاول وما لحق به من خفر ذمة .. ولكن القصيدة خلدت ذكر الحادثة او بالاحرى فضول الشاعر الاول الذي جنى على صاحبه حتى اوقعه فلقي ما لقيه من الهبداني الذي وصمه بقوله :

وجهك غدا به كاسبين النواميس   وعن ملزماتك صاب وجهك ثلوم
جعيف وثر مارما تدري البيس   وبيدك من فعل النشامى وسوم

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول انك رجل مخفور الذمة ووجهك قد طلاه بالسواد الرجال الشجعان اصحاب الثناء الذين خفروا ذمتك ووضعوا في وجهك نقوشا من العار واضحة المعالم .. ثم ينتقل الى البيت الثاني فيقول بصدده : انت رجل موصوم بالعار ولكنك لاتحس بعارك هذا لانك ميت الاحساس ومقتول الكرامة وهذا البدوي الامي يلتقي

في هذا الصدد هــو وابو الطيب المتنبي على صعيد واحــد عندمــا قـــال :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

وهكذا اراد الهبداني في صدر هذا البيت اما في عجزه فانه يقول على الرغم من انك مخفور الذمة في جارك او مستجيرك بالاضافة الى ذلك فقــد طعنك الصناديد الاشاوس الذين خفروا ذمتك بجروح بيـــدك لتظل شاهدة على عجزك عن اخذ الثــأر لنفسك وتظل ايضا دليلا واضحا على جبنك عن الانتقام لنفسك ..

والشاعر يشير الى اصابة من طعنة سيف وضح اثرها في يدي خصمه ويبدو من معنى البيت ان هذه الاصابة من رؤساء القبيلة الذين لايستطيـع الشاعر الاسبق اخذ الثار منهم وعلى اي شكل فان العجز عن اخذ الثأر او ضعف الجانب لمن تخفر ذمته لايعتبر مبرراً للجبن والاستسلام عند العرب ... وانما العــار هو الاستسلام او نسيان الثار او تناسيه ... والمثل الدارج عند العرب يقول (العيب بالنسيان) ..

كان البيت الذي قاله الشاعر الاول والابيات التي اجابه عليها الشاعر الثاني كل ذلك كان على مسمع من رئيس قبيلة الرولة ابن شعلان الذي لم يردني اسمه وانما الذى وردني هــذا الكلام الذي اورده رئيس القبيلة

موجهاً به الى الشاعر الاول حيث قال :

ان الانسان العاقل مهما كان شجاعا فانه لايغامر بنفسه مغامرة فاشلة ليذهب الى الاسد ويتحداه في عرينه .. يقصد بالاسد الهبداني وبالمتحدي له ابن معبهل .[1]

---

(١) ـ رويت هذه القصة من دهيسان الخمشي

« اذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن ان الليث يبتسم »

«المتنبي»

- ٣٠ -

ليس من السهل معرفة خلق المرء والحكم عليه من حيث منظره فقد يبدو لك انساناً طائشاً ولكنه يتصرف في جميع الاعمال التي توكل اليه تصرف العاقل الرزين. وقد تجد انساناً توحي جميع حركاته وسيرته بأنه مسرف بالجبن ولكن سرعان ما يتبخر ما كنا نتوهمه عندما تأتي الاحداث المفاجأة والملمات المباغتة التي يفاجأ بها المرء بدون ان يعمل لها ادنى حساب. فالمفاجآت وحدها هي اعظم امتحان تبرز فيها اخلاق الرجال الكامنة، وعلى سبيل المثال نقول كل من يرى المرحوم الشيخ عبد العزيز ابن زيد سفير المملكة السعودية في دمشق ولبنان ويجالسه ويمتزج به ويعرفه كمعرفتي اياه لا يتردد قطعياً بالحكم له وعليه. فيحكم له بالكفاءة والهدوء وبعد النظر واصالة الرأي والوفاء والاخلاص لمن يأتمنه على عمله ويحكم عليه ايضاً بالاستكانة وعدم الجرأة .. كان هذا المعروف عنه وكان هـذا هو حكمي عليه خلال المدة التي عرفته بها وهي مـدة لا تقل عن عشر سنوات ولكن جاءت مناسبات جعلتني ادرك ان الرجل خلاف مـا كنت اتوهمه من عدم الجرأة .. وكانت المناسبة التي بدلت رأيي فيه هي يوم الانقلاب السوري الثاني الذي قام به اللواء سامي الحناوي في شوال ١٣٦٩ — آب ١٩٤٩ وبحكم عملي ايامها كمعاون لآمر الفوج السعودي وضابط اتصال بين رئاسة الاركان للجيش السوري وبين المفوضية السعودية بدمشق، ففي صبيحة ذلك اليوم الذي وقع فيه الانقلاب وجدتني ملزماً بأن اذهب لرئاسة الاركان لاعرف ما هي

اهداف الانقلاب الجديد ؟ ومن هو زعيمه ، فذهبت فوراً للقيـــادة يصحبني الملازم علي دياب احد ضباط الفوج السعودي. وعندما صعـــدت السلم ووصلت مكتب القائد العام للجيش والقوى المسلحة هناك وجدت ضابطاً برتبة ملازم متوشحاً بلباس الميدان مما جعلني اعتقـد انه من احد رجال الانقلاب وكان الزميل علي ذياب الذي لا زال حتى الآن يعمل في الجيش السعودي برتبة عقيد يعرف هذا الضابط الذي لم يكن لي به سابق معرفة فسلم بعضنا على بعض فسألت علياً عن هذا الضابط فقال انه الملازم مصطفى الدواليبي؟ وهو شقيق معروف الدواليبي السياسي السوري فقلت للدواليبي :(يبدو انك من سبـاع الليل) اي من رجال الانقلاب.. فأجابني فوراً : اجل. قلت: هل الزعيم حسني على قيد الحياة ام لا؟ قال بل هو في عالم الاموات ..

لقد دار بيني وبين الدواليبي حديث بعد هذا النبأ لا اراني بحاجه الى كتابته الآن ، اللهم الا في مناسبة غير هذه. وبعدما تأكـدت من مصرع الزعيم ذهبت الى المكتب الاول واخذت منه صورة عن البلاغ الذي سيذاع باسم زعيم الانقلاب الثاني وكان رئيس المكتب وقتـذاك المقدم فيصل الاتاسي ويعاونه ضابطان احدهما الملازم الاول [1] رائف المعري والثاني ضابط برتبة ملازم اول ايضـاً يدعى حامد شماط ..

المقصود انني استلمت البلاغ رقم ١ وسلمته لصاحبي الملازم علي ذياب فذهب به الذياب الى المفوضية حالا في الحين الذي بقيت فيه بالاركان لاستوضح الامر .

وبعد فترة عدت الى المفوضية فطلب مني السفير ابن زيد أن اذهب لقائد الانقلاب الجديد لاخذ منه موعداً للاجتماع به . فذهبت للحناوى احمل له طلب السفير السعودي فلم يتردد عن قوله لا مانـع عندي من ان يحضر الآن .. فعدت الى ابن زيد اخبره باستجابة الحناوي لطلبه في الوقت الحاضر فخرج ابن زيد من السفارة قاصداً الاركان وكنت بمعيته فدخلنا سوياً الى مكتب وزير الدفـاع وقتذاك اللواء عبد الله عطفة وكنت اذكر انني مثلت نفس الرواية في الانقلاب الاول لحسني الزعيم .

---

١ رائف المعري هو احد رجال انقلاب ١٨ تموز الفاشل ١٩٦٣

وما ان تبادلنا التحية التقليدية حتى بدأ اللواء عبد الله عطفة حديثه يعرف السفير بقائد الانقلاب الجديد حيث قال : (هذا الزعيم سامي الحناوي هو الذي قام بالانقلاب . ثم استطرد وقال وهو في الوقت ذاته كان قائداً للواء الاول الذي وطد الانقلاب السابق لحسني الزعيم الخ ..) هذا وكان الحناوي جالساً على يمين المنصة الرئيسية التي يجلس عليها اللواء عطفة وعن يمين الحناوي الزعيم انور بنود وكل من بنود وعطفة لم يشتركا في الانقلاب لا الاول ولا الثاني .

كان الحناوي وقتها لابساً بذلة خاكي مشمراً عن ساعديه وعن فخذيه معاً حيث كان بنطلونه قصيراً دون ركبتيه وكان واضعاً فوق عينيه نظارة سوداء ومتوشحاً بمسدسه ويشرب السيجارة تلو السيجارة وكانت بطنه المسترسل وجسمه الكبير المكتنز باللحم المتراخي متبختراً كالطاووس يشعر ناظره لاول وهلة بأنه نشوان من لذة النصر . كان زعيم الانقلاب صامتاً كالتمثال لم يتكلم قطعياً اللهم الا كلمة واحدة فقط حيث تنهد وقال: لقد نصحت الزعيم حسني[1] قبل ان اقدم على ذلك ولكن الزعيم لا يريد ان يقبل النصيحة .. وبعد ما انتهى الحناوي من هذه الكلمة التي كانت هي البداية والنهاية لحديثه عند ذلك جاء

١ـلكي أتثبت من الناحية التاريخية عن صحة ما اشار اليه الحناوي بقوله انه نصح الزعيم قبل ان يقوم بانقلابه. من اجل ذلك ذهبت الى عديل حسني الزعيم وامين سره السيد نذير فنصه وذلك بعدما خرج من سجن المزة من اجل ان اتحقق من صحة ما قاله الحناوي بنصيحته للزعيم فاكد لي فنصه ان الحناوي صادق بقوله كما اكد لي ان الزعيم لم يكن يعبأ بالحناوي ولم ينظر اليه نظرة توحي بالهيبة والاجلال . ومن قرأ كتاب الرائد فضل الله ابو منصور الذي تولى اعتقال حسني الزعيم وقتله يدرك ان حسني الزعيم قتل بدون أن يعلم من هو قائد الانقلاب . والغريب في الامر ان حسني الزعيم هو الذي رفع الحناوي الى رتبة الزعيم والحناوي هو الذي اعاد الشيشكلي الى الجيش بعد ان سرحه حسني الزعيم .. وهكذا كما تدين تدان.

ر الزعيم انور بنود فقال ان الذي أيد حسني الزعيم وآزره ليس الا
نتم .. يشير بتنده الى السفير ابن زيد ..

كان ابن زيد عن يسار اللواء عبدالله عطفة اي مقابلا للحناوي وبنوذ وجهاً لوجه .وكانت جلسته كعادته جلسة هادئة توحي بالسكينة والوقار لمن يعرفه جيداً. وتوحي لمن لا يعرفه بالاستكانة والاستسلام .

ولا شك ان الزعيم بنود نظر اليه من الناحية الاخيرة متوهماً ان انياب الليث الكاشرة انما هي ابتسام ..

ولقد شطح ظن الزعيم . وذلك انه ما ان نبر بتلك الجملة وعرف ابن زيد من الجملة الاولى بقية الحديث الذي يريد ان يقوله بنود حتى انقض عليه مقاطعاً حديثه قائلا بصوت عال يختلف عن عادته . « عندما يقوم الزعيم حسني بانقلابه ويأتي الجيش السوري عن بكرة ابيه مؤازراً ومؤيداً له وفي مقدمة الجيش زعيم الانقلاب الحالي حسب اعترافه وعندما يؤيد الزعيم حسني جميع رجال السياسة في سورية ثم نأتي نحن مقتدين ومتبعين لمن ايده الجيش بكامله وهلل له وكبر الرأي العام السوري قاطبة .. انكون نحن مخطئين بعد هذا ..؟ فاذا كان الامر كذلك فمعناه اننا نكون مخطئين ايضاً فيما اذا ـ اعترفنا بزعيم الانقلاب الجديد) .. قال هذه الكلمة ثم اظهر حركة تشير الى انه يريد ان يخرج ولكن سرعان مــا بادره اللواء عطفه والحناوي وصاحب الكلمة بنود يسترضونه ويعتذرون منه عن تلك الكلمة التي اعتبرت سقطة لسان وحرياً بها ان تذهب بمهب الريح لولا انهاهي وجوابها حدثا بحضور كاتب هذه الاسطر الذي يعتبر أن الشجاعة الادبيه في ظروف حاسمة ودقيقة كهذا الظرف لا تقل اهمية عن الشجاعة الحربية في المعارك الطاحنة ..

وهذا مما جعلني اسجلها في حقل شيم العرب لتظل خالدة ابدية .

واذا لم يكن من الموت بد   فمن العار ان تموت جبانا

- ٣١ -

كنت ولم ازل اسعى أن يكون لي قسط من العلم بمعرفة كل ما يصدر « من الشيم » لا المحصورة على رجال امة العرب فحسب ، بل من الشيم التي تصدر من رجال أية امة كانت ، فان بلغت امنيتي هذه فانني سوف اصدر كتاباً باسم « من شيم البشر » .

وقد كانت قرائتي للكتب المترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية عاملاً رئيسياً ساعدني الى حد ما على معرفة ما يكتب عن تاريخ الامم كما ساعدني على معرفة ما يحدث من النوادر والشيم من الرجال الافذاذ لتلك الامم بصورة محدودة ، ولما كنت معجباً الى حد الاسراف بكل شيء يمت الى الجرأة والشجاعة والاباء بأية صلة كانت ولا سيما الشجاعة التي يجدر بها ان تسمى بشجاعة المبدأ والاختبار ، واعني بها تلك التي تضطر صاحبها تحت ظروف قاسية الى ان يقف في قفص الاتهام موجهاً اليه من التهم التي ما من شأنها ان تؤدي بصاحبها الى حبل المشنقة ، فقد تضاعف اعجابي بما قرأته عن رجل المانيا الثاني هارمان غورنغ ماريشال الريخ، وذلك عندما وقف في محكمة نورمبرغ عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ المكون رجالها من جبابرة الدول الكبرى وهم الروس والامريكان والفرنسيين والانكليز ، لقد وقف ذلك الرجل امام اعدائه موقف

الشجاع الجبار دون ان تلين له قناة او يبدي ادنى كلمة تعبر عن رغبته بطلب الرحمة من خصومه وانما وقف يتحدى محاكميه ويسخر منهم تارة ويمطرهم احياناً بتلك الكلمات النارية المحطمة لكبرياء رجال تلك المحكمة تحطيماً لا يقل مفعوله عن تحطيم قنابل طائراته لحصونهم وجحافلهم عندما كان الآمر الناهي لسلاح طيران الريخ الثالث وحينما كانت اسراب طائراته تتقدم من نصر الى نصر [١] وهكذا وقف غورنغ في قفص الاتهام يرشق قضاة المحكمة الرباعية بتلك العبارات القاسية التي يطيب لي ان اختصر نبذة منها بقدر الامكان .

كقوله « المنتصر هو الحاكم دائماً والمغلوب هو المتهم » وكقوله ـ لأحد مرؤسيه في المحكمة « لا تنزعج لقد كنت تتلقى الاوامر مني فقط وسوف اتحمل مسئولية ذلك وحدي » [٢] وقوله لرجال المحكمة « انكم تقولون لي بأنني كنت اعد للحرب ببناء الاسطول الجوي الالماني فهذه مهمتي فقد كنت مسئولا عن سلاح الجو الالماني ولم اكن مديراً لمدرسة بنات [٣] . » وقوله « انا مسرور لان الاميرال « دونيتز » هو الذي وقع هدنة استسلام المانيا لانني لا احب ان يقترن اسمي باستسلام المانيا في الاجيال المقبلة » واخيراً قوله « أهذه العدالة التي تتشدق بها محكمتكم ؟ لقد اعتقدت في الاول بأن المحكمة ستكون عادلة تستند على الحقائق والقوانين ، ولكن اتضح لي في النهاية العكس ، ولذلك لا اتردد في مجابهتكم بالواقع والحقيقة وجهاً لوجه فنحن مجرمون بقدر ما انتم مجرمون وجميع الافعال التي قمنا بها ، انتم ايضاً قمتم بها واذا اردتم ان تقدمونا للمحكمة على اعتبار

---

(١) استدراك ـ ارجو ان يعذرني القارىء فيما اذا وجدني خرجت عن موضوع الكتابه الخاصة بشيم العرب كما ارجو ان لا يظن احد أنني معجب بالنازيين ونظام حكمهم الاستبدادي التعسفي كلا وانمـــا جئت بهذا البحث كمقدمة للقصة الاتية بحكم تشابه الظروف (٢) محاكمات نورمبرغ تأليف الدكتور ج. م جلبرت تعريب فتح الله المشمشع وجورج شاهين صائغ (ص٦)(٢) ص ٢٣ المصدر نفسه ص(٥٣)المصدر ذاته (٤) ص(٦٣)(٥) المصدر ذاته ص (٤١)

اننا مجرمون فانني استطيع ان اقدم الادلة والبراهين على الف جريمة قمتم بها .
ما رأيك في أعمال الانجليز الاستعمارية ؟ وما رأيك بالفرنسيين ومستعمراتهم ؟».

وبعد فانني اعيد العبارة التي جاءت بالتعليق وهي طلب المعذرة فيما اذا خرجت عن موضوع الكتابة الخاصة بشيم العرب، والسبب هو كما ذكرت التشابه الكامل بين الجرأة والشجاعة التي ابداها المرشال غورنغ عام ١٩٤٦ في محاكمة نورمبرغ وبين الثبات والشمم وشموخ الانف والبطولة التي ابداها سعيد قزاز وزير داخلية العراق السابق وذلك امام محكمة المهداوي عام ١٩٥٩ .

واذا كان المارشال غورنغ قال تلك العبارات السالفة الذكر فان المرحوم سعيد قزاز وقف في قفص اتهام المهداوي يزأر كالأسد الهصور مستهتراً بالمحكمة وبرئيسها وبالمدعي العام الذي قال له « انك يوم ثورة ١٤ تموز جبنت وهربت مرتدياً ملابس نسائية » فاجابه القزاز بقوله :

« على اثر الثورة سلمت نفسي مختاراً الى السلطة العسكرية ، بعد ان خابرت تلفونيا متصرف لواء بغداد الحالي ومدير الاستخبارات العسكرية بانني مستعد للحضور امامهم متى شاؤا » ومضى بحديثه الى ان قال .. وقصدي من هذه المقدمة تكذيب ما ادعاه المدعي العام بأنني ارتديت الملابس النسائية خوفاً من القتل ذلك الادعاء الذي لا نصيب له من الصحة (١) وعندما سمع رئيس المحكمة المهداوي ان القزاز يصم مدعيه العام بالتكذيب عند ذلك قال المهداوي « عوضاً عن عبارة تكذيب قل تصحيح » ولكنه مضى بحديثه دون ان يستجيب لطلب المهداوي الا بقوله « انا اخذت وعداً من سيادتكم بأن لا اقاطع » فرد عليه المهداوي قائلا – اذا طلبت انه لا يقاطعك احد لا يعني ذلك رئيس

---

(١) محكمة الشعب « على حد قول من سماها ».ج١٠ ص ١٩
(٢) المصدر ذاته والصفحه نفسها

المحكمة لا يقاطعك ولكن بتهجمك بكلمة تكذيب لا يمكن السكوت عنه يجب ان يصحح ويكون تصحيح - فاجابه القزاز على الفور بقوله « الدفاع دفاعي وبتوقيعي وانا مسئول عن كل كلمة وردت فيه (١) ومضى الشجاع الباسل القزاز بدفاعه الى ان قال .. انني اقف الان وارى الموت مني قاب قوسين او ادنى ، ولا ترهبني المشنقة وعندما اصعد عليها سأرى الكثيرين ممن لا يستحقون الحياة تحت اقدامي - واقف الان بين يدي الله عز وجل لاقول كلمتي الاخيرة كمسلم لا امل له الا بعدالة خالقه العظيم ،ولا ايمان له الا بدينه الاسلامي الحنيف. اقف كعراقي قدم ثلاثاً وثلاثين سنة في تعزيز الوحدة العراقية المقدسة اعلن على رؤس الاشهاد انني فخور بما قدمت لوطني الحبيب من اعمال وخدمات فخور بانني كافحت الشيوعية « الالحادية » بدافع اسلامي ووطني وتنفيذاً لقانون لا يزال يعمل به من شريعة البلاد ، فخوراً بانني كنت وزيراً فعالا افعل بوحي من ربي وعقل في رأي وقلب في صدري فحذاراً من شرور الشيوعية الدولية واخطارها على وطني العزيز واذا اصابني شيء بنتيجة هذه المعركة فانني اتقبلها بايمان عظيم ، وسيكون لاهلي واقاربي الفخر بانني اول شهيد في هذا الميدان . لذلك اختم دفاعي بانني لا اطلب الرحمة ولا الغفران من اي بشر كان بل اترك امري الى الله واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (٣)

لم يستطع رئيس المحكمة المهداوي ان يملك اعصابه عند سماع سعيد قزاز يتحداه وهو في قفص الاتهام ، ويرفض بكل اباء وشمم وشموخ انف طلب العفو لا منه ولا من زعيمه الاوحد الزعيم عبد الكريم قاسم .في تلك الساعة التي يقف بها القزاز تحت رحمتها ومصيره متوقف على ايماءة من الزعيم الاوحد او كلمة عابرة من رئيس المحكمة المهداوي ، ورغم ذلك نجد القزاز لم يفكر في ان يطلب الرحمة ولم يحاول ان يلتمس الغفران ، بل ولم يبدر منه اي دليل يشير الى رغبته

---

(١) المصدر ذاته ص ٢٤

بعفو يمن به عليه الزعيم الاوحد ورئيس محكمته المهداوي – وهذا مما جعل المهداوي كما ذكرنا انفاً ينفد صبره ويعجز عن سطرته على اعصابه الامر الذي جعله يعبر من ضعفه وضآلة حجته بالعبارات الحمقى التي جاء منها قوله ...« أسمعتم منطق العهد البائد واصرار المتهم على التمسك به بدليل ذكائه الخارق « يسخر منه » والاكاذيب الفورية علينا او على الادعاء العام ، الى ان قال المهداوي « فلقد آليت على نفسي بعد افتضاح هـذه ألاكاذيب ومن جملتها اكاذيب المتهم سوف لا نرد على نباح الكلاب .

وبعد فاننا انا وجدنا تشابهاً بين موقف المرشال غورنغ في محاكمة الحلفاء له وبين موقف سعيد قزاز في محكمة المهداوي ، اذا رأينا انسجاماً وتشابها في موقفها البطولي ، فاننا سوف لا نجد اي تشابه في الظواهر الاتية .. وهو اننا نرى البون شاسعاً الى ما لا نهاية له بين الموقف الذي وقفه المهداوي هو وزعيمه عبد الكريم قاسم حينما جيء بهما امام عبد السلام عارف في اليوم الثاني من ثورة ١٤ رمضان ١٣٨٢ هـ وبين موقف سعيد قزاز فبينما نجد الزعيم الاوحد عبد الكريم قاسم يطلب الرحمة والعفو من زميله المنتصر عبد السلام عارف نجد القزاز يقول عبارته السالفة الذكر التي تفرض احترامي لصاحبها عندما اتى بها مكرراً « انا لا اطلب الرحمة والغفران من اي بشر كان » وعندما ننتهي من المقارنة بين استجداء عبد الكريم قاسم بطلبه الحياة وبين شموخ انف القزاز ، حينما ننتهي من ذلك يجدر بنا ان نقارن ايضاً بين جبن المهداوي وخور قواه واستكانته ، بل وانهيار اعصابه عندما وقف امام عبد السلام عارف في التاريخ والساعة نفسها اللتين وقف بها زعيمه قاسم ، وقال المهداوي « هذا الكلب »[1] الذي أمرني بكل عمل قمت به – الى ان قال .. اعفوا عني واطلقوا سراحي لكي اشتم والعن لكم في الاذاعة عبد الكريم قاسم والشيوعيين واكرم الحوراني » او مـــا في معنى ذلك من العبارات التي نقلتها عن قاسم والمهداوي الانباء العالمية .

---

(١) يقصد بالكلب زعيمه الاوحد قاسم

حجة بالغة وجواب مقنع

- ٣٢ -

لو وجه الي احد السؤال التالي :

ما هي افضل السجايا المثلى التي يتصف بها المرء؟.. لقلت على الفور الشجاعة، ولست ارى حسب اعتقادي ان هناك سجية تسمو على الشجاعة فضيلة، والادلة على ذلك كثيرة فمنها ما هو خاص ومنها ما هو عام، فأما الدليل الخاص بالنسبة اليّ فهو انه سبق ان مرت علي ظروف اضطرارية جعلتني اتنازل مرغماً وكارهاً عن هذه الصفة الجليلة القدر كما ارغمتني ظروف مماثلة لتلك الظروف بان اتنازل ايضاً عن بعض الصفات المثلى ، وعندئـــذ اشعر ان وخز الضمير الذي يؤلمني بتنازلي عن القيام بواجباتي الاولى يختلف كل الاختلاف عن تنازلي عن اية صفة كانت كما اشعر ايضاً بل احس والمس ان الظروف التي ارغمتني وجعلتني اقدم على ان اتنازل عن تلك الصفة خشية الوقوع بما هو أشر منها ، أشعر فيما بعد ان تقديري هذا خاطىء كل الخطأ ، وأدرك في قراراة نفسي بل حسب خبرتي وتجاربي ان الدرهم الذي يتنازل به المرء عن شجاعته [1] حباً بالسلامة او رغبة بأية مصلحة كانت ، فانه سوف يخسر قنطاراً لا من مصلحته الشخصيـــة فحسب بل من صميم حياتـــه ، هذا اذا قدرنا ان الحياة في عالم الخلود هي تلك الحياة المعنوية ، لا الحياة المادية الفانية التي اشبه ما تكون بحياة الحيوان ، هذا

---

(١) ولئن كنت احترم الشجاعة بمفهومها العـام الشامل فانني اعني ببحثي هذا الشجاعـــة الادبية بل وبصورة اوضح اقصد شجاعة العقل والفكر والتعبير لا شجاعة الساعد .

الدليل ادلى به بصورة خاصة بالنسبة لتجاربي المحدودة ، اما الدليل العام على ما نستشهد به هو اننا لم نجد ولن نجد جبانا برز بعالم التأريخ بقدر ما نجد العدد الذي لا يحصى من الرجال الشجعان الذين طفحت الاسفار بذكرهم ، فالكريم قد يجد من يحبه من اجل كرمه ، ولكنه قل ان يجد من يهابه ويحترمه اذا لم يكن شجاعا وكريما في آن واحد .

والشجاع قد لا يجد عدداً كبيراً من الناس يحبه . ولكنه سيجد حتما من يقدره ويحترمه ويهابه ، وخلاصة القول ، هو ان الشجاعة هي العامل الاول الرئيسي التي تجعل المرء يفرض احترامه ووقاره حتى على اعدائه ، كما انها الدرع القوي الذي يصون الانسان من صولة وبطش اي حاكم صارم لا تأخذه اية رحمة او رأفة بمن تثبت عليه بينة بما يتهم به .

لولا ثبات جنانه لذهب ضحية للوشاة

كما حصل فعلا مع صاحب هذه القصة راشد السبيتي [1] عندما اتهمه الوشاة عند الامير محمد العبد الله الرشيد بأنه يكاتب الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود، وانه يريد ان يفعل ((كيت وكيت)) على رأي واقوال الوشاة المرتزقة الذين لا يخلو اي حاكم من تأثيرهم عليه وافسادهم ودسهم على المواطنين الابرياء في كل زمان ومكان ، فمنهم من تصيب منه اسهم الوشاية مقتلا فيذهب ينزف دمه حتى يلفظ انفاسه الاخير ، ومنهم من ينجو بفضل شجاعته وجرأته بالدرجة الاولى وبفضل براءته مما يتهم به وعدم قيام البينة عليه بالدرجة الثانية ، كراشد السبيتي الذي جيىء به عند محمد العبدالله ووقف امامه كما يقف اي متهم في قفص الاتهام باحدى المحاكم في عصرنا الحديث ، فوجه اليه الامير محمد

---

(١) راشد السبيتي من اهالي الرياض.

الحديث الآتي :

«لقد بلغني عنك خبر ايفيد بأن بينك وبين الامام عبدالرحمن الفيصل آل سعود مكاتبات و.. والى آخره – من الكلمات التي نقلها الوشاة النامون وعظموا شأنها» فأجابه السبيتي بكل جرأة وثبات بل وتحداه قائلا..

– نعم وكل ما نقله لك الواشون حقيقــــة ولا يسعني انكارها ، وسوف اخبرك عما نقل اليك بكل صراحة وصدق .

– ومن اجل ذلك جئت بك الى هنا لاستفسر منك بوضوح عما بلغنا عنك.

– قلت لك سوف اخبرك بكل صراحة وامانة ،ولذلك اريد ان تصارحوني بكل خفية وبينة نقلت لـكم عني .

– نعم لقد بلغنا عنك بانك تكاتب الامام عبدالرحمن الفيصل.

– حقيقة كنت اكاتبه وسوف اكاتبه ايضا .

– ماذا قلت له في مكاتباتك السابقة وماذا تريد ان تقول له فيما بعد . قل لنا الحقيقة لاتخاف .

– قلت له « انت بنحره وانا بظهره »[1]

---

(١) نقلت هذه الكلمة الشعبية من الرواة النقاد كما نطق بها صاحبها ومعناها ان المتهم يهزأ بالامير وينقده نقداً لاذعاً بتصديقه للوشاة قائلا له على سبيل السخرية « انني قلت للامام عليك ان تهجم على جيوش الامير برجالك من الامام وانا سوف اباغته واهجم على جنوده من الخلف » والمعنى بصورة اوضح هو ان السبيتي يقول ان الوشاة اثروا عليك باحضرة الامير وارهقوا اعصابك بتضليلهم واكاذيبهم وتخويفهم لك من اعدائك حتى بلغ بك الامر الى درجة جعلتك تتخيل ان كل صديق عدواً اوتظن وهما ان اي مواطن يصوره لك الوشاة بانه يحاول ان يقلب نظام حكمك فتذهب وتصدق كل ما نقله لـك الواشون بأي مواطن كان ولو كان هذا المواطن رجـلا عادياً لا يملك حولا ولا طولا من اسباب القوة ومسبباتها ، والجدير بالذكر هو ان هده الكلمة اصبحت مثلا شعبياً يحتج بها اي متهم باية مناسبة مماثلة كهذه خاصة عند من سمع بها وفهم معانيها البعيدة المدى.

قال السبيتي هذه الكلمة ثم انحرف وادار ظهره للامـير ومضى ماشيـا الى الامام بدون ان ينتظر القول الفاصل من الامير . اما الامير فقد وجد بجواب المتهم فصل الخطاب ولذلك لم ينبس ببنت شفتيه ، وهذا ما يجعلنـــا نحترم الشجاعة . اذ لو كان السبيتي من نوع بعض الرجال الجبناء الذين تخور قواهم وتخونهم عزائمهم عندما توجه لهم تهمة كهذه وهو منها بريء ، حتما لو كان من هذا النوع لذهب ضحية بريئة لسهام الوشاة . ولكن ثباته ورباطة جأشه وقوة حجته ووضوح بيانه ، هذه المعاني هي التي كانت له درعا حصينا حمـــاه من سلاح الوشاة المرتزقة الذين ليس لهم في عالم الشرف والكرامة والانسـانية اي مكان يهبطون به . سوى هذه الحرفة الحقير صاحبها

الفصل الثالث

الشجاعة الفكرية

والمرء يذكر بالجمائل بعده فارفع لذكرك بالجميل بناء
واعلم بانك سوف تذكر مرة فيقال احسن او يقال اساء
رتب الشجاعة في الرجال جلائل واجلهن شجاعة الآراء

احمد شوقي

بطل الانقلاب الفكري

- ٣٣ -

يقوم بالانقلابات العسكرية الشجعان المغامرون ، سواء كانوا عاقلين او غير عاقلين وسواء كان الباعث لهذا الانقلاب مبادىء يحرص الانقلابيــون على تنفيذها ، او الدافع محبة السلطة والحقد الشخصي فقط .

كل من هذا وذاك يمكن ان يكون .. ولكن الانقلابات الفكرية ، والثورة الاجتماعية لايقوم بها الا الشجعان العاقلون المفكرون ..

والفرق بين قادة الجحافل وبين قادة الفكر هو ان الاولــين اذا لم يكونوا اصحاب فكرة ولا مبدأ ، فان سيطرتهم ستكون سيطرة مجــازية يحكمون بها الرقاب عن طريق الرهبة والرعب ليس الا ، بينما قادة الفكر يسيطرون على القلوب ويهيمنون على العقول ويملكون الافئدة ..

وعلى وجه العموم فان قادة الانقــلابات العسكرية لن يكتب لهم النصر الطويل ما لم يمهد لهم قادة الفكر اولا وقبل كل شيء ، وما من ثورة عسكرية قامت بالتاريـخ وكتب لها البقاء الا ونجد قادة الفكر مهدوا لها قبل قيامهـا واولوها اهتمامهم بعد وقوعها عمليا ، واذا لم يكن ذلك فســوف تكون مجرد طموح شخصي بدافع الانانية المنبعثة من حب السلطان بأية وسيلة كانت ومن

أي سبيل يأتي ، والتاريخ طافح بالادلة والشواهد الكثيرة بهذا الشأن .

حين ينعدم التوافق بين قائد الفكر وبين قائد الجيش

عندما يصطدم قائد الفكر مع قائد الجيش ، عندئذ سوف يبدو لنا للوهلة الاولى ان الاخير سوف يقضي على الاول بحكم انه يملك السلطة الزمنية ، او على الاقل يجعله خاضعا لسلطانه ، وهذا هو الامر المحتمل فيما اذا كان قائد الفكر جبانا او واهي المنطق ، اما اذا اضاف الى نضوجه الفكري شجاعة وقوة منطق ، فان النصر على طول المدى سيكون حليفا له على نده لان هذا كما اشرنا آنفاً لديه الطاقة التي يملك بها القلوب . .

وبين يدينا الان شاهد ملحوظ نستطيع ان نستمد منه الحكم في هذا الصدد ، وهذا الشاهد حدث في مطلع القرن الهجري الحالي سنة ١٣٠٩ وذلك عندما استدعي الامير محمد العبدالله آل رشيد الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ من الرياض واسكنه عنده في بلدته حائل . .

كانت الغاية من هذا الاستدعاء من حيث الظاهر الاكرام والحفاوة ، ولكن الغاية من حيث الحقيقة والواقع ، هي تحديد اقامة الشيخ والحد من نشاطه الذي يعتقد الامير انه مناوىء له ، وعلى هذا الاساس جيء بالشيخ وفرضت عليه الاقامة الجبرية بطريقة غير مباشرة وخلال المدة التي قضاها بحائل عاصمة الامارة استطاع الشيخ ان يلعب دورا هاما باستيلائه على قلوب ساكني البلاد وذلك بفضل ما اوتي الرجل من ميزات قل ان تتوفر الا بالرجال العباقرة الافذاذ ، فقد كان الى جانب علمه الجم بالعلوم الدينية ، فسيح العقل قوي الحجة ، ذا شخصية جذابة وارادة فولاذية ، كما كان سخياً لا يدخر رزق اليوم للغد . .

وكان بعلمه الغزير وبعقله الوافر وببيانه المقنع وحجته الدامغة وشخصيته الفذة. استطاع ان يسيطر على الكثير من أعيان اهالي بلاد الامير نفسه خلال المدة التي قضاها بحائل وهي ثمانية اشهر وسبعة عشر يوماً .. وكان من حسن حظ الشيخ ان الامير اسكنه في قلب حي في حائل يدعى (لبدة) ولما كان رجال هذا الحي هم ابرز رجال البلاد ، فقد كانت النتيجة ان جميع ساكني ذلك الحي ذهبوا يتنافسون على اكرامه وتقديم الضيافة له بذبح الخرفان على اسلوب الكرم العربي المألوف ، كما اصبح منزل الشيخ حاشداً بالرواد وطلاب العلم من أهل البلاد الذين يتلقون دروس التوحيد والفقة عن الشيخ بنهم وحرص شديد، كانت دروس الفقة على مذهب الامام احمد بن حنبل الذي يعتنقه جميع ساكني نجد وهذا العلم لا يؤثر على سياسة وحكم الامير بقدر ما يؤثر درس التوحيد ، الذي فيه من المعاني ما يجعل المريدين من طلاب العلم يحكمون على ابن رشيد حكماً قاسياً من حيث العقيدة ، فابن رشيد مثلا ترك الاحكام في البادية على ما هي عليه منذ العهد الجاهلي ، بدون ان يجعلهم كالحضر يعودون باحكامهم الى ما جاء في القرآن والسنة ..

والآية القرآنية من هذه الناحية صريحة ولا تقبل التأويل وهي قوله تعالى :

(ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) . والآية الثانية : (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون) ..

يضاف الى ذلك ان ابن رشيد موال للسلطان التركي المكروه لدى اهالي نجد منذ تجهيزه لنائبة محمد علي باشا وابنيه طوسون اولا ثم الثاني ابراهيم وما نجم عن ذلك من تقتيل العلماء واعيان اهل نجد البارزين ونهب المحصولات الزراعية على ضآلتها ونشر الفوضى في البلاد .

* * *

المقصود ان درس التوحيد الذي يتلقاه الطلاب والمستمعون من الشيخ اشبه ما يكون بمعول هدم لتقويض صرح عرش الامير بصورة غير مباشرة ،وفي خلال تلك الفترة الوجيزة التي قضاها الشيخ استطاع ان يحدث انقلابا فكريا معاكسا لابن رشيد في وسط بلدته وفي صميم افئدة اقرب المقربين اليه ، فكانت المصيبة كبيرة على ابن رشيد، لقد جيء بالشيخ خوفاً منه عندما كان بعيدا، فاذا به يتحداه من قرب ، وينشر مبادئه في قلب عاصمته ويهيمن على افئدة اقوى قوة من رجاله المحاربين الاشداء. ولما كان الامير محمد ادهى واعقل من تولى الحكم من اسرته ، فقد ادرك ان المبادىء لا تحارب بالقوة ، ولذلك كان خير وسيلة التمسها هي ان أذن للشيخ بان يعود الى بلاده التي جلبه منها ظانا انه بابعاده عنه انتهى من خطر مبادئه في بلاده ، ولكن الواقع اثبت خلاف ما كان يظنه الامير وذلك ان الشيخ لم يذهب الا بعد ما تبنى مبادئه مريدون يؤمنون بها ايماناً لا تغريه الاطماع ولا تزعزعه الاهوال مهما عظمت ، وكان على رأس المريدين شاب يدعى(صالح السالم) الذي تبنى افكار الشيخ ومبادئه وظل ينشرهـا بكل آجرأة واقدام ..

وأعجب ما في الامر أن صالحاً هذا كان موضع الثقة الوحيد الذي يأمنه الامير على تدريس نساء قصره ، ولكنه عندما آمن بالافكار والمبادىء التي تلقاها من بطل الانقلاب الفكري هجر قصر الامارة ، وأصبح رئيساً لحزب قوي يؤمن بمبادىء الشيخ ويأتمر بامره الذي يتلقاه منه ..

وكانت الخاتمة ان ظل ذلك الحزب شوكة في قلب امارة الرشيد ، بل كان من أهم العوامل الهدامة التي دكت عرش تلك الامارة وقوضته على طول المدى ..

الرأي قبل شجاعة الشجعان

- ٣٤ -

في منتصف العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجري وآخر العقد السابع من القرن التاسع عشر ميلادي ، وفي تلك الفترة رزق القروي المدعو عبد العزيز العوني الساكن في قرية من قرى القصيم المسماة بـ (الربيعية) طفلاً سماه محمدا ثم ارتحل القروي بعائلته من الربيعية واستوطن مدينة بريدة عاصمة القصيم وظل يعمل بناءلبيوت الطين التي مهر باجادتها ، وشاء القدر ان يلمع نجم ابن البناء في قلب شبه الجزيرة العربية وان يلعب دوراً خطيراً في تاريخ هذه البلاد وذلك منذ عام ١٣١٨هـ الى عام ١٣٤٠ اي اثنين وعشرين سنة والعوني كجهاز محرك لكثير من تلك الحوادث التي وقعت في الجزيرة ومن لا يعرف نشاط العوني السياسي في تلك الفترة ، فانه لا يعرف شيئاً عن تاريخ الجزيرة ..

وكانت شهرة صاحب الترجمة كشاعر شعبي مهيج لشعور وحماس الجماهير اكثر من شهرته كصاحب رأي سديد يركن اليه بالشدائد والملمات ، الى ان جاءت مناسبة برز بها برأيه الصائب وبعدها احتل الرجل الصداره في أندية حكام ذلك العهد ، حيث اضاف الى شجاعته الأدبية شجاعة الرأي ..

والمناسبة التي برز بها رأيه وبلغ بعدها منزلة لا ينافسه عليها احد من بني طبقته كانت اسبابها ومسبباتها على الوجه الآتي :

كانت مدينة الكويت في مطلع القرن الهجري الحالي بزعامة الشيخ مبارك الصباح اشبه ما تكون ببيروت بعصرنا الراهن مأوى لجميع اللاجئين السياسيين وكان زعماء شبه الجزيرة الناقمون على عبد العزيز المتعب الرشيد كلهم موجودين في الكويت ، وعلى رأسهم الامام عبد الرحمن [1] بن فيصل ال سعود ، وامراء القصيم كابن سليم وابن مهنا .

وكان مبارك الصباح بقدر ما يهمه ان يكرم ضيوفه اللاجئين محوطين بكل معنى من معاني العناية والاكرام ، بقدر ما كان حريصاً كل الحرص على أن لا يصطدم مع ابن متعب ، الامر الذي جعله يرسل مندوباً من عنده يطلب مهادنته ومسالمته ، فلبى ابن متعب طلب الصباح بشرط ان لا يكون للاجئين اي نشاط سياسي ضده ، فتعهد ابن صباح بتنفيذ ذلك ولكن الناقمين كانوا قد اعدوا العدة وغزوا احدى القبائل الموالية لابن متعب ، ولكي يفي ابن صباح بوعده الذي تعهد به لابن متعب ، بعث رسولاً من عنده يؤكد على الامام عبد الرحمن الفيصل بأن لا يمضي بغزوته ، كما اوصى الشيخ مبارك رسوله بأن يؤكد على الامام عبد الرحمن بأنه اذا خالف تعاليمه واصر الا ان يغزو فعليه الا يعود الى الكويت ، على اعتبار انه اخذ على عاتقه عهداً لابن متعب ، ويريد ان يفي به ..

وصل رسول مبارك الامام في الصحراء ، وابلغه رسالة الشيخ مبارك ، ثم قفل الرسول راجعاً ، كان هذا الخبر من مبارك لعبد الرحمن يعتبر تحطيماً لامال الثاني لانه عندما التجأ الى حاكم الكويت لا يريد ان يمثل بيت الشاعر الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

---

(١) اي والد المغفور له الملك عبد العزيز .

لا لا يريد عبد الرحمن ذلك ، كما انـــه لا يريد الغزوة بحد ذاتها من غنيمة الابل ، وانما غايته الاساسية هي مقارعة ابن متعب ، وما دام ان مبارك الصباح اوصد هذا الباب بوجهه ، فمعناه انه يريد ان يقضي على بقية ما تبقى عنده من آمال ..

ولذلك لم ير الامام بداً من ان يجمع قومه ويشرح لهم ما تتضمنه رسالة الشيخ مبارك ويشاورهم جميعاً في الامر ..

يعرف المرء برأيه وبكتابه وبرسوله !!

وحسب طلب الامام تجمع القوم وكل ابدى رأيه ، فكانت الاراء التي سمعها الامام من ذوي الحل والعقد كلها سلبية وبعيدة عن الحل الايجابي ..

وكان بين هؤلاء القوم شاب في مطلع العقد الثالث من العمر لم يعرف عنه الا انه ينظم الشعر الشعبي وحتى الشعر لم يبلغ به بعد الدرجـــة التي تجعله يصف الشعراء المجيدين ، كما تبدو على محياه البساطة ، بل السذاجة والبلاهة معاً ، التي يؤكد لنا انه يصطنعها عامداً متعمداً بدليل قوله :

اتديبج ونا ماني بدبوجه
وأسفه العلم كأني ما تمعنا به
والمسايل بصدري تقل منسوجه
افتح الراي الى منه غلق بابه

يقول : انني اتعمد ان اتجاهل الامر واجعل نفسي ابله كأنني لا اعرف ولا افهم وفي صدر البيت الثاني يستدرك ويقول : ان الامثال الادبية والحكم المفيدة مطبوعة في فؤادي ومنسوجة نسجاً طبيعياً .. وفي شطر البيت الاخير يقول : انه عندما تتأزم الامور وتبلغ الازمة حداً يتعذر حلها فان لديّ من

سعة الادراك وبعد النظر ووفرة الرأي السديد ما يجعلني استطيع ان أحـــل الامور حلا سليماً .. وهذا البسيط هو محمد العوني بن عبد العزيز القروي البناء المتواضع سالف الذكر ، فهـــذا هو الذي فتح الباب على مصراعيه برأيه السديد .

عندما ادركالعوني أن كل فردمن رفاقه ذوي الحل والعقد ابدى رأيه دون جدوى ، بعد ذلك طلب من الامام عبد الرحمن ان يسمح له ان يعبر عن رأيه فاذن له الامام فقال :

– مما لا شك فيه اننا عندما تركنا بلادنا وجئنا الى الكويت ليست الغاية هي ان نظل مستسلمين للقدر وانما غايتنا بالدرجة الاولى وقبل كل شيء هي ان نناصب ابن رشيد العداء حتى نستعيد بلادنا منه مهما كان الثمن في سبيل ذلك غالياً ، وما دام ان ابن صباح وابن الرشيد قد عقدا بينهما هدنة على اساس أن يتعهد الاول للثاني ان لا يكون لنا اي نشاط سياسي يناهض ابن رشيد فهذا معناه القضاء المبرم على طموح وآمال الكبير منا قبل الصغير ..

ثم استطرد الشاب ابن القروي وقال : ونحن في هـــذه الحالة بين امرين لا ثالث لهما وللامام ان يختار أحدهما .

فاما ان نستسلم للهوان والذل والراحة ونذهب ونطلب من ابن رشيد العفو والغفران ونعود لبلادنا ونقعد بين امهاتنا العجائز فكأن احدنا واحد منهن ، واما اننا نسلك الطريق الثاني الذي يستلزم منا ان نموت اشرافـــاً او ان نحيا اعزاء ..

ثم صمت الشاب بعد ذلك فرد عليه الامام قائلا :

– نحن مصممون على اقتحام السبيل الثاني ولكن كيف يكون ذلك ؟ ..

فقال : – اذا كنتم مقدمين على ذلك فما علينا الا ان نضرب بتعـــاليم ابن صباح الحائط وان نستمر في سبيلنا متمردين عليه كما تمردنا على ابن رشيد وان نمضي ونصب غارتنا على أية قبيلة من القبائل الموالية لابن رشيد ونغتنم ما يمكننا اغتنامه من الابل .. ثم نعود الى الكويت بسلاحنا وقوتنا ونبيع الابـــل التي اغتنمناها في اسواق الكويت .. وفي عمليتنا هذه نكون قد اكتسبنا فوائد جمة اهمها اننا نوقع بين ابن صباح وبين ابن رشيد العداوة ، لان الاخير سوف يبلغه خبر غروتنا هذه قبل ان يبعث ابن صباح رسولاً من عنده يعتذر منه ويفهمه في الحقيقة . وابن صباح سوف يغضب من تصرفنا المخالف لاوامره ، ولكن علينا ان نقيم عليه الحجة ونقول له انك لم تبلغنا امرك الا بعدما خرجنا من بلادك ثم نؤكد له بأننا بعدما نقوم بتسديد ما على كل فرد منا من دين بأننـــا سوف نبارح الكويت نهائياً ..

وعلينا ان نثبت قولنا هذا بالفعل فيجب بعد ذلك ان نخرج من الكويت ونغزو مرة ثانية اية قبيلة من القبائل التابعة لابن متعب .. وعندئذ سوف يبلغ ابن متعب الخبر بأننا بعنا غنائمنا الاولى في وسط سوق الكويت ثم خرجنا ثانية من الكويت وغزونا احدى قبائله فعندئذ سوف لا يقبل ابن متعب اي عذر يقدمه له ابن صباح بل سوف يعتقد انه يخادعه ويمكر به .. وانه غير جاد في موضوع المسالمة من اساسه ، ولا بد ان يثور ابن متعب ويغضب ويعلن الحرب على ابن الصباح لا محالة ، وعندما تتحقق هذه الامنية فسوف يبعث ابن صباح لنا رسلا يستنجد بنا ويخطب ودنا لنقف بجانبه صفاً واحداً ضد عدونا المشترك ..

وما ان انتهى الشاب ابن البناء من حديثه حتى اجابه الامـام بتأييد رأيه وتقديره له ، وان كان بعض القوم رأوا ان هذه النظرية مجرد خيال شاعر عارية من الرأي السديد ، ولكن الامام اخذ برأي الفتى ونفذه عملياً ومضى في سبيله غازياً بدون تردد ....

الخيال يصبح حقيقة واقعية

وهذا ابن البناء العوني يصف هذه الغزوة والتي تليها في ملحمته التاريخيـــة التي يصح ان تكون مرجعا تاريخيا ويقول :

وصله على قحطان وخلى دارهم

قوم دعـــا والي السما بذهابهـــا

يشير الشاعر الى هذه الغزوة التي غزا بها الامام عبدالرحمن قبيلة قحطان .. ثم قفل راجعاً الى الكويت حسب رأي العوني الذي استحسنـــه الامام ونفذه حرفياً ..

كانت غزوة الامام وعودته الى الكويت ثم عرضه للابل الـــتي اغتنمها من القبيلة فى ذمة ابن متعب كل هذه الامور كانت مصيبة كبيرة على مبارك الصباح الذي اعطى ابن متعب عهداً بأن لايقوم اللاجئون السياسيون عنده بنشاط معاد له ، فلم يسع مبارك الا ان بعث رسولا من عنده لابن متعب يعتذر منه بماحدث ويؤكد له بأن مثل هذه الغزوة لن تتكرر ، وكان ابن متعب قد جـــاءه من رجـــال قبيلة قحطان المغزوين من يشكو له ما حل بهم من أثر الغارة التي صبت عليهم ..

ولنترك الان رسول مبارك الصباح عند ابن متعب الذي اجل الاجابة على الصباح وترك رسوله دون ان يعبأ به لانه اصبـح غير مطمئن من ان ما ابداه مبارك من اعتذار هو الواقع الصحيـح ، فلنتركه لنرجع اليه بعد ان نعود الى الامام عبدالرحمن الذي نفذ الخطة بحـــذافيرها ثم خرج من الكويت مرة ثانية بعد ان ودع الشيـخ مبارك وداع الرجل الذي ينوي انلايعود اليه ،

ومضى في سبيله غازيا نايف بن بصيص احد رؤساء قبيلة مطير ، وهذا العوني يؤكد هذه الغزوة في احد ابيات ملحمته فيقول :

وصله على نايف بركن مجزل   نوما وامام المسلمين عدا بها
اخذ بريه والعواصم خلطهم   خلى منازلهم يطير ترابهـــا
وانكف على هجر وخيّم جمعه   خيله على هجر تدوس خصابها
وأمر على قومه تقود كسوبها   وادوى كما دلو عدا جذابها

كما ان العوني ذكر الغزوة الاولى التي غزاهـا الامام عبد الرحمن ، كذلـك يذكر أن الامام غزا هذه المرة عشيره (بريه) من قبيلة مطير ، كما يؤكد انه بعد هذه الغزوة ظل في الاحساء مقدار اسبوع ..

***

ولكن بعد هذه الغزوة اين يذهب الامام وغزاته ؟ .. وأي بلد يستقر بـه والى متى وهو يسير في صحراء بلا اهل ولا مأوى ..

ولنترك هؤلاء المغامرين وزعيمهم ينتظرون فرج الله ، ولنعد الى الامير بن متعب الذي بلغه الخبر بأن الامام خرج من الكويت وغزا مرة ثانية قبيلة مطير، وقد فوجيء بهذا النبأ قبل ان يرد جواباً على رسالة ابن صبـــاح الذي لا زال رسوله ينتظر الاجابة منه ، ولذلك لم يتأخر ابن متعب عن الرد الايجابي هـذه المرة بل اعد الرسالة وسلمها الرسول الشيخ مبارك مفتوحة ومضمون الرســـالة اعلان الحرب ..

كان الشيخ مبارك هو الاخر بلغه نبأ غزوة الامام لقبيلة مطير في الحين الدي كان ينتظر الاجابة من ابن متعب على اعتذاره منه بغزوة الامام الاولى ، اما بعد ان خرج الامام من بلاده وغزا مرة ثانية ، فانه اي الشيخ مبارك لم يكن لديه ادنى شك بان ابن متعب سوف ينقض الهدنة ويعلن الحرب من جانبه ولذلك لم يكن الخبر الذي جاء به رسوله مفاجئا له .

وما ان استلم رسالة ابن متعب حتى اعد رسالة بصورة مستعجلة للامام عبدالرحمن يستنجد به بان يحضر الى الكويت ، موضحاً له الغاية التي استنجد به من اجلها بكل صراحة الا وهي الاستعدادوالتأهب لمواجهة العدو المشترك الذي اعلن عليه الحرب . .

* * *

ولنرجع مرة ثانية الى الامام عبدالرحمن زعيم المغامرين الهائمين بصحرائهم الارض فراشهم والسماء غطاؤهم لا رزق لهم الا من كسب سواعدهم ، وها هو زعيمهم يقود الركب في وسط الصحراء الخالية ساعتها حتى من الطيور والوحوش ، وذلك لشدة حرارة الشمس المحرقة ، وقد آن الاوان للمغامرين ان يحطوا عن رحالهم ليرتاحواوقليل حتى تخمد حرارة الشمس وليتناولوا طعام الغداء المكون من حبيبات التمر ، وقليلا من طحين البر . . ولكن المشكلة ان زعيمهم كان شارد الذهن ملتهب الحواس ماضي الارادة ، يهيمن على كيانه شعور بمسؤولية الحاضر والمستقبل جعله لا يحس بلهيب الشمس الكاوية ، ولا يشعر بحرارتها وكان معروفاً الرصافي يشير اليه والى امثاله بقوله :

استبرد النـــار من حرت عزائمه
واستصغر الخطب من في نفسه عظم

وعندما كان الامام يتقدم قومه مسافة ليست بالقريبة سابحا في لجة من بحر افكاره المبعثرة بين عائلته التي تركها في الكويت وبين مصيره هو ورفاقــــه المجهول ..

في تلك اللحظة سمع صوتا من خلفه ينادي :

– يالامام ياطويل العمر ...

فانحرف الى صاحب الصوت واذا به رجل قادم يحث راحلته بسرعة فيناوله رسالة من الشيخ مبارك الصبـــاح ، وبعدما قرأ الرسالة قال له رسول الشيـــخ مبارك :

– ان اخاك مباركا أكد علي بأن ابلغك تحياته وسلامه الجزيل ، وان «انخاك» نيابة عنه بأن تعود برفاقك الى الكويت بقدر ما لديك من السرعـــة لـــكي تقف بجانبه ضد ابن متعب ، الذي اعلن عليه الحرب . .

وقد كان مضمون الرسالة لايختلف عن الكلام الذي سمعه من الرسول : وعلى الفور قال الامام لاحد رفاقه :

– إئتوني بالعوني ، وعندما جاء ابن البناء قال له الامام :

– ترى لو جاءك احد وقال لك ما هو منتهى امنيتك التي تحلم بها وتتمنى

ان تتحقق ماذا تقول ...

فأجاب العوني حالا :

– ليس لدي أمنية بالدنيا أحب من ان اسمع النبأ الاكيد القائل بأن ابن متعب اعلن الحرب على ابن صباح ..

وعندما انتهى العوني من حديثه مد الامام يده مصافحا له كعلامة تتخذ على التأييد في الرأي حسب العادات المأخوذ بها الى الان ، ثم بعد ذلك ناوله رسالة الشيخ مبارك ..

ومن مكانه عاد الامام عبد الرحمن الى الكويت هو ورفاقه ودخلوا مرفوعي الرأس موفوري الكرامة ومن الكويت الى الرياض ، ثم الى توحيد شبه الجزيرة بكاملها على يد المرحوم عبدالعزيز بن عبدالرحمن الذي لم تبرز موهبته كزعيم موفق الا بعد ان احتل الرياض ..

وبعد فان شجاعة الرأي هذه التي ابداها العونى والتي كان لها الاثر الملحوظ في تطور الاحداث ، لم يشر اليها أي واحد من المؤرخين ، والسبب يعود الى ما الحت اليه في اكثر من مناسبة في مؤلفاتي ، وهو ان الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ بلادنا يجهلون ادب ابناء البلاد الشعبي الذي هو اكبر دليل يهتدي به الكاتب على معرفة مجرى تاريخ اية امة كانت .. والذي لاشك فيه هو انه اي مؤرخ يريد ان يتصدى لكتابة تاريخ امة ما وهو لايجيد الادب القومي لتلك الامة التي يتصدى للكتابة عنها فانه سوف يقع بأخطاء لاحصر لها

كما انه سوف يضيع عليه من الحقيقة اكثر بكثير مما يقدمه للقراء كتاريخ ...

ولا تفوتني الاشارة الى ان الاستاذ أمين الريحاني الذي يعتبر كتابه مرجعا كبيراً من مراجع تاريخ الجزيرة قد اشار الى فرع بسيط من فروع هذه القصة بكتابة تاريخ نجد الحديث ص ١١٧ اشارة موجزة جاء نصها كما يلي :

(خرج عبدالرحمن من الكويت واغار على عشائر قحطان في روضة سدير.. اما الشيخ مبارك فكان قد رمى شبكتين في بحر السياسة دفاعاً للحرب واستعدادا لها ... اذ ارسل لابن رشيد يفاوضه بالصلح ... ومضى الريحاني الى ان قال :

ـ وكان الامام عبدالرحمن غزا غزوته وقفل راجعا فارسل اليه يأمره بأن لايرجع الى الكويت الخ . .

هذا منتهى ما اشار اليه الريحاني في هذه الحادثة ، واعتقد ان السر الذي يجعل الريحاني وامثاله لا يعرفون شيئاً عن تفاصيل هذه الحادثة ليس جهلهم بمعرفة ادبنا الشعبي فحسب ، بل ولكونهم حاصرين جهودهم لكتابة ما يحدث عن الافذاذ البارزين من زعماء وامثالهم ..

اما ما يقومه به افراد الشعب من اعمال ايجابية من شيم ومكارم وشجاعة في الحروب او شجاعة في الرأي الخ . . . فهذه الامور

لايعبأ بهـــا الكثير من مؤرخي بلادنا الاجانب ، وانما يكتفون بسرد تاريخ حياة العظماء ، مع العلم انه ما من زعيم يستطيـــع ان يبرز في عالم التاريـخ الا بواسطة رجال آزروه ومهدوا له سواء من رجـال الادب أو من رجـال الحروب او منهم جميعا ..[1]

(١) رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ عبدالعزيز بن زيد سفير السعودية في سوريةولبنان وكان ابن زيد صديقا حميا للمرحوم محمدالعوني..

الداهية الذي صير الاعداء انصارا

- ٣٥ -

قرأت في كتب الادب العربي ان احد المقربين الى اسكندر المقدوني ذي القرنين وجه اليه السؤال التالي :

ـ بماذا استقام لك الملك ؟ ..

فقال ذو القرنين :

ـ باستمالة الاعداء وتعهد الاصدقاء ..

وليس من شك ان الحاكم العاقل هو الذي يبذل جل جهده بأن يستميل اعداءه بكل ما لديه من قدرة وان لايستهين بالعدو مهما كان ضعيفا ..

وكلما استطاع الحاكم ان يهيمن على قلوب مواطنيه بأية وسيلة كانت وان يصير من الاصدقاء اخوانا ومن الاعداء انصارا ، كان ذلك دليلا واضح المعالم على بعد نظر الحاكم ورجاحة عقله وسعة افقه ..

وبطل قصتنا هذه لم يكن حاكما ، كما انه لم يكن نكرة بالنسبة لابن الجزيرة الملم بتاريخ بلاده منذ مطلع القرن الهجري الحالي حتى بداية العقد الرابع منه .. اي منذ اواخر القرن ـ التاسع عشر ميلادي الى الربع الاول من القرن العشرين ، كما انه لم يكن مجهولا بالنسبة لقارىء هذا السفر بحكم ان اسمه ورد بين دفتيه

اكثر من مرة الا وهو محمد العوني الشاعر الشعبي المهيـــج الذي لعب أعظم دور بارز في تاريخ البلاد من الناحية السياسية وخاصة في نجد فقد كان (دينمو) لكثير من الاحداث السياسية سواء حينما كان في الكويت بجانب مبارك الصباح حتى وقعة الطرفية (الصريف) او بجانب الملك عبــد العزيز آل سعود الى ان اختلف ابن سعود مع آل مهنا امراء بلدة العوني او بجانب آل مهنا الى ان انتهى امرهم من امارة القصيم على يد الملك عبد العزيز او بجانب الشيخ عجمي السعدون رئيس قبيلة المنتفق بالعراق الى ان انتهت زعامته من العراق وذهب يناضــــل بجانب مصطفى كمال اتاتورك الخ .. او بجانب ابن رشيد الى ان انتهت هو الآخر امارته في عام ١٣٤٠ هـ ١٩٢١ م ..

وقد سبق ان تحدثت عن شجاعة الرأي التي قام بها العوني عندما كان بجانب الامام عبد الرحمن الفيصل ويلذ لي ان اتحدث الآن عن شجاعة الرأي التي قام بها هذا الرجل حينما كان في حائل عند ابن رشيد وأود بأن اختصر الموضوع مـــا استطعت فأقول :

حينما غدر عبد الله بن طلال بابن عمه امير البلاد سعود بن رشيد وقتله ولقي القاتل جزاءه على يد احد موالي المغدور به في ساعتها عند ذلك هاج رجـــال قصر الامارة محاولين ان يقتلوا محمدا اخا القاتل .. لولا انه نجا في فورة الغضب باعجوبة لا مجال لشرحها الطويل ، الا ان الأمر انتهى باعتقاله وايداعه السجن علي يد رجال القصر انفسهم .. وبناء على رغبة امير البلاد خلف الامير المقتول ابن اخيه عبد الله المتعب الذي لم يتجاوز سنه ثلاثة عشر عاماً ، كان العوني من انصار ومؤيدي القاتل آل طلال ، ولكنه لم يملك اية قوة مادية لمؤازرة السجين الا انه يملك سعة الحيلة وسداد الرأي وقوة الحجـــة وابتكار الفكرة ، وقوة الارادة الفولاذية التي لا تعرف الاستسلام ولا اليأس .. كل هذه العوامل استعملها العوني لانقاذ صديقه السجين ، وراح يبث آراءه بصورة غير مبـــاشرة وعن طريق

الايحاء ، فبدا أولا بالدعاية القائلة من الخطأ ان يقع الشقاق بين اسرة الامـــارة وان يقتل بعضهم بعضا ومن لم يقتل يسجن .. فكيف يفعلون ذلك بانفسهم ما دام ان الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر يحيطون بهم من كل جانب .. ويمضي العوني في دعايته هذه فيقول : ما دام ان القاتل اقترف حماقة دفع ثمنها فما هــو ذنب أخيه البريء السجين ومـــا دام ان الامير الان حديث سن .. اليس من الافضل ان يخرج السجين من سجنه ؟ .. مـــا دام انه بريء ليؤازر ابن عمه على تحمل عبء المسؤولية وليقفا صفاً واحداً تجاه الاعداء الخارجيين ..

ولما كان رجال القصور غالباً ما يكونون (طغاما) مماليك وشبـــه مماليك ، فانه من المسلم به ان يكون مثل هؤلاء محدودى الذكاء وذلك كما ذكرت في مناسبة غير هذه بأن كل من سلبت حريته من الجماعات او الافراد فان عقله يأسن ووعيه ينضب وتفكيره يتقلص وادراكه ينقص بقدر نسبة الحرية التي تسلب منه..

ونفر من هذه الفئة من السهل جداً على داهيـــة ماكر كالعوني ان يخدعهم ويسيرهم من حيث يشعرون او لا يشعرون ، كما سيرت الدعاية الصهيونية بعضاً من مغفلي العرب بمقتهم للفلسطينيين [1] وتشويههم لسمعتهم .

تسربت دعاية العوني بين صفوف رجال القصر وسرت كسريان شعلة اللهيب في وسط الحطب الهشيم .. وفي ليـــلة ليلاء قام هؤلاء واخرجوا السجين بدون علم من أميرهم ..

كان الامير الصبي يغط في سبات عميق ولم يعرف عن الامر الذي أبرمه رجال قصره بالليل حتى جاءه احد المقربين اليه يخبره بالنبأ المفاجيء ، فذعر الصـــبي لسماعه هذه الأخبارية فسأل المخبر مستفسراً عن النفر الذين قاموا بهـــذا العمل الذي فيه تحدي لسلطانه من ناحية ، ومن ناحية اخرى فيــه اخراج منافس له

١ انظر كتاب المؤلف (قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب) ..

على الامارة ، فأجابه المسؤول بأن اخراج السجين كان باجماع تام من رجـــال قصرك وانهم بعثوني اليك الان لـكي تأتي الى معاهدة ابن عمك السجين من اجل ان تقفا صفاً واحداً امام الاعداء [١]

لم يكن امام الامير اليافع الا ان استسلم للامر الواقع ما دام ان رجـــاله الذين يعتمد عليهم ويثق بهم والذين جاؤا بابن عمه واودعوه السجن هم بذاتهم الذين كسروا السجن واخرجوا السجين منه عن سلامة نية أو عن سذاجة ، او على الاصح بايحاء من الداهية المـــاكر (العوني) الذي ظل يرقب الحوادث من بعيد ويدير مؤامرة الانقلاب بدون ان يساهم بهـــا بصورة فعلية .. اما رجال القصر فقد ادركوا فيما بعد ان عملية التوفيق بين الامير وابن عمه بعدما درج الدم بين رجال الاسرة اصبحت مستحيلة .. ولكنهم اصبحوا مجبرين بان يسيروا مع السجين الى ابعد مدى وان يحرسوه من كل اذى لانه بات لديهم من اليقين القاطع ما يجعلهم يعتقدون ان بحراستهم له يكونون حرسوا انفسهم من عقاب سيدهم كما يدركون ان حياتهم اصبحت مرهونه بحياته . .

ظلت الحرب الباردة بين الامير وبين ابن عمه فترة وجيزة واخيراً رجحت كفة ابن العم وطارت كفة الامير الذي ترك البـــلاد ومن عليها وشخص نحو الرياض واصبح السجين بالامس هو الامير اليوم . وعندئذ كشف القناع العوني عن وجهه وجاء الى الامير ظاناً انه سوف يكون هو (الكل في الكل) بالنظر الى ما قام به من حيلة ودهاء ، كان من نتيجتها ان اخرجه من السجن وجاء به الى اريكة الامارة ، ولكن ظن العوني جاء بغير محله ، وقد عرف هـــذه الظاهرة بوضوح ، عندما جاء يشفع بشخص من اهـــل البلاد انحاز الى الجهة المعادية ، وعندما رأى العوني ان الامير لم يعبأ بشفاعته عند ذلك جادت قريحة الشاعر بقصيدة كانت خير وثيقة تاريخية تؤيد وتؤكد صحة ما قـــام به العوني

(١) كانت هذه الحركة أول انقلاب من نوعه في شبه جزيرة العرب .

من مكر ودهاء صيّر به النفر الاعداء انصاراً له واعواناً بل وحراساً لحياته لاعتقادهم ان حياتهم اصبحت مرهونة بحياة الامير .

واليك قصيدة الماكر الداهية .

ادركتَهـــاَ بالحَزمْ والعَزم والبَاسْ

وطفَيتَهـــا يَوم آنهاَ كَالسّعْيره

جعَلت عدوَانكْ يصيْرونْ حرّاسْ

برَايٍ وَتَدْبيرٍ اوفتَـــلْ أو بَصيرْه

يومأنهـا قَامَتْ من السّاسْ للـــراسْ

واصبحْ سنَى نارَكْ بِنَجْدٍ كَبْيره

انْبعدتْ عنَها يَاحمَى دنْ الافراسْ

اناَ البعيـــدْ وَصارْ غيرَي ذخيره

صَـــارَت لنّاسٍ ماهقَينَـــاه بِقْيَاسْ

وانا لي القْشلاتْ صَـــارتْ برْيْره

انَا رَفيقَـكْ يوم يَجفُونَـــك النَّاسْ

وانا وديـــعْ سُدَودكَمَ والسّـــرْيرَه

أحسبْ اذا من نلت عـــزٍ ونومَاسْ

يِصْـــير ليَ جاَهه وفَخرَهْ وخَـــيْره

واحسب لَو ان ذَنـــيْ يُعدّلْ يا الاطعَاسْ

يـكـــونْ عَندكْ خُفْ حبّة شَغْـــيرة

دِ نَياكْ تَمضِي بَينَ غَفْلة وَهـــو جَاسْ

وصيّور مَاهي يَابو بَنْذر قَصْـــيرة

الشرح :

١ – يقول انا الذي استطعت ان استدرك الامور بعد ما وصلت بك الى الحضيض وذلك بفضل ما بذلته من الحزم والعزة وقوة البأس والصبر والمثابرة وانا الذي استطعت ان اخمد النار المتأججة عندما كان لهيبها على وشك ان يحرقك ..

٢ – هـــذا هو بيت القصيد فهو يقول : الست بصاحب الرأي السديد والتدابير المحكمة والبصيرة النافذة الذي استطاع ان يجعل اعداءك الذين اعتقلوك ووضعوا برجليك اصفاد الحديد هم انفسهم الذين يحرسون حياتك ويحافظون على سلامتك من كل اذى كما يحافظون على سلامة أنفسهم ..

٣ . ٤ – وفي البيت الثالث والرابع معناهما مرتبط .. بعضه ببعض ، فيقول بهذين البيتين يا للعجب ايهـا الامير الفارس ابعد ما سعيت لـك السعي الحثيث بكل اخلاص ووفاء ، وبعد ان اصبح لك صوت داو في قلب نجـــد وعند ساكنيها ..

٤ – ابعد ذلك يكون نصيبي منك الفشل وخيبة الامل ؟ .. ومن ثم يأتي

قوم ليس لهم شأن من قبل فيكونون المقربين واكون مبعداً منبوذاً ..

٥ – وهؤلاء الذين اصبح لهم عندك الان شأن ليسوا بالعير ولا بالنفير ولم يخطر لي ببال ان يكون لهم عندك ادنى حظوة او شأن .. اما انا الذي استحق التقدير بفضل ما قمت به من مغامرات ومؤامرات انقلابية محكمة في سبيل رفع شأنك .. فقد اصبح نصيبي منك الفشل والخسران ..

٦ – امثلي يعامل بهذا الجفاء وانا صديقك الوفي في الحين الذي جفاك وتخلى عنك اقرب المقربين من الناس وقد كنت المؤتمن الوحيد على اسراركم يا آل طلال..

٧ – كنت اعتقد يا حضرة الاميرانه حينما وصلت الى هذه المنزلة وتربعت على اريكة الامارة انني سوف انال منزلة تليق بكفاءتي ووفائي ..

٨ – وكنت اعتقد انه لو بدر مني ذنوب ترجح بالرمال انك سوف تتجاوز عن ذنوبي هذه مهما عظمت وثقلت وتنظر اليها كأنها اخف من حبة الشعير .. وان كانت اثقل من الجبال الرملية ..

٩ – في هذا البيت الاخير تشاءم الشاعر من الحياة كلها فيقول الحقيقة ان هذه الدنيا لا تستحق من يركن اليها او يثق بها ولا برجالها لأنها تمر كوميض البرق.. والمرء فيها سادر بين غفلة وبين همومه الجسام ..

والحقيقة ان اهم ما في القصيدة هو البيت الثاني من حيث دلالته على صحة وتأييد القصة ..

الفَصْلُ الرَّابع

شجَاعة السَّاعِد

ان الذي خلق الحديد وبأسه جعل الحديد لساعديك ذليلا
زحزحتــــه فتخاذلت اضلاعه وطرحته ارضاً فصل صليــــلا

أشجع الرجال يصرع أشجع الأسود

- ٣٦ -

هذه القصة رويتها عن شخص يدعى سالم الشلاش من قبيلة شمر الفرات السورية ومن عشيرة الصائح .

والذي يسترعي الانتباه في هذه الحادثة هو ما يثبت لنا ثبوتاً قاطعاً ان الشجاع من بني الانسان لديه طاقة من الشجاعة ما يفوق شجاعة الاسد . .وربما يقال ان هذا ليس بالغريب بحكم ان كثيراً من بني الانسان يقتنص الاسود في غاباتها ويصطادها في عرينها . . وهذا شيء معلوم لدينا ولكن هناك فرقاً كبيراً وبونا شاسعاً بين ما يقتنص الأسد ويصطاده عن طريق المخاتلة بوسيلة فخ ينصبه لها وبعدما يقع الاسد في المصيدة موثوقاً لا حول له ولا طول ومن ثم يأتي بعد ذلك هذا ويقتله وبين من يبارز الأسد وجها لوجه كمبارزة الفارس للفارس ، ثم يصرعه مجندلا لا بفخ ينصبه له فيصطاده حيلة ولا ببندقية يرميه بسهمها فيصرعه عن بعد ولا بمدية يطعنه بها من الخلف ، لا ليس بهذه ولا بتلك وانما بقوة قلبه الحجري وساعديه الحديديين . .

واليك القصة كما رويتها بمعناها كالآتي :

هناك فارس من ابرز فرسان قبيلة شمر الفرات شهرة بعهده يدعى (عضيب ابن موعد[1]) وكان هذا الفارس على جانب فروسيته مضيافاً وشهماً ويميل كثيراً الى سماع الأدب ، ويشاع عنه انه تأخذه نشوة اذا سمع القصص التي تمت الى الشهامة والبطولة بأدنى صلة . . كما انه اذا سمع الاحاديث التي تحمل طابع الجبن المتناهي او شيئاً من الاخلاق الحقيرة التي تتنافى وشيم العرب يبلغ به

---

١ توفي رحمه الله في مدينة حائل في عهد اميرها طلال بن رشيد بين عام ١٢٧٠هـ و١٢٨٢م

الانفعال اقصى مداه .. وكل من لديه اقل المام بمعرفة تاريخ الرجال البارزين من قبيلة صاحب الترجمة يعرف جيداً ما يتمتع به هذا الرجل من هذه السجايا التي فطرت جبلته عليها حتى اصبح عنواناً بارزا يضرب به المثل بين رجال قبيلته الى ان اصبح يقال عن الرجل المسرف بالشهامة كأنه عضيب بن موعد ..

ولما كان هذا الرجل كما ذكرنا سابقاً مضيافاً ويحب القصص ذات الطابع البطولي وينفر من الاحاديث التي عكس ذلك .. فقد ضافه ذات ليلة شيخ من المعمرين وهو من (الشوايا) اي من الفلاحين .. وبعد ان احسن قراه اراد ان يؤنسه فسأله عن سنه فقال الضيف : انه تجاوز مئة سنة .

عضيب – أرى انك قوي البنية فكأنك دون ذلك بكثير .

الضيف – الحقيقة ان ما قلته هو الصحيح وأظن ان السبب الذي جعلني بهذه القوة رغم انني بلغت من العمر عتياً هو انني لم اصب بمرض قط ولم ار بحياتي ما يزعجني قطعياً اللهم الا مرة واحدة منذ مدة طويلة .

عضيب – الا يحدثنا عمنا عن هذا الحادث .

الضيف – لم يكن في ذلك الحادث بالنسبة اليّ ما يشرفني يا بني .

عضيب – ان اعترافك هذا بقصورك مما يجعلني اعتبرك صدوقاً في روايتك وهذا مما يزيدني حرصا ورغبة بأن تشرح لنا هذه الحادثة التي لا بد ان يكون فيها من العبرة ما نحن بحاجة اليه .

الضيف – لقد بلغني عنك بأنك تسر وتطرب لسماعك الحوادث والقصص التي فيها من معاني الشجاعة ما هو جدير بالاعجاب كما انك تنفعل مما هو عكس ذلك ..

عضيب – وهل في الحادثة التي عندك ما يثير الانفعال .

الضيف – ان في اولها ما يجعلك ترقص طربا لسماعها ولكن في آخرها الشيء الذي سوف يزعجك لا محالة..

عضيب – لقد شوقتني ياعمي لهذه القصة فهاتها ما دام ان في اولها ما يسر فلا مانع من سماعنا آخرها املا ان يكون في اولها ما يشفع بآخرها..

الضيف – ان الحادثة تتلخص بما يلي :

« كنت ذات ليلة من ليالي الصيف وفي اول الشهر العربي خارجا من منزلي قاصدا زوجتي الاخرى في مكان ناء عن المنزل الذي فيه زوجتي ام ابنائي وكان بين منزلي وبين منزل زوجتي الجديدة غابة مخيفة يخشى المرء ان يسير فيها منفرداً في رابعة النهار فضلا عن الليل بحكم كثرة السباع المفترسة فيها ولذلك رأيت من الافضل ان أبيت فوق ذروة احدى تلك الاشجار العالية حتى الصباح ومن ثم اواصل رحلتي نهاراً ليكون ذلك آمن لي من مغامرتي ليلا التي اعرض نفسي فيها للخطر.. وقد نفذت فكرتي هذه فاخترت شجرة عالية وصعدت إليها وهناك استويت على فرعها .. وبعد برهة قصيرة سمعت حركة مستنكرة وكان القمر ساطعا فمددت بصري واذا به عجل فهدأ روعي بعدما خشيت انه أسد فجاء العجل وبرك تحت الشجرة التي كنت على رأسها . . وما ان اخذت مدة قصيرة حتى سمعت زئير الاسد فارتعدت فرائصي وقد ازددت هلعا عندما شعرت ان هذا الزئير كل بين فترة واخرى يزداد دنوا مني ، عند ذلك ذكرت في نفسي ما يقال من ان السباع تشم رائحة الفريسة من مكان بعيد ، فقلت لقد جلبت لي رائحة هذا العجل مصيبة عليّ .. وقد تحقق ما كنت اتوقعه وذلك انه سرعان ما خرج علي خمسة اسود يتقدم الجميع واحد بارز في ضخامته ، فاقبل على العجل فقده بنابه وظل يفترس من طيب لحمه حتى انتفخت خاصرتاه .. ثم ابتعد قليلا عن الفريسة وربض .. وبعد ذلك هجمت الاربعة على فضلته

وتناهبت ما تبقى من لحم العجل حتى انه لم يبق الا عظامه ثم ولت هذهالسباع من حيث السبيل الذي جاءت منه بينما سيد الأسود ظل رابضا كما كان من قبل مما زادني رعباً في نفسي معتقداً انه يستطيع ان يثب علي بقفزة منهفيمزقني اربا ... وفي هذه الحالة التي كنت في منتهى الهلع والانهيار العصبي .. رأيت على ضوء القمر شابا قادما نحو الفريسة وعندما دنا منها التفت يمينا وشمالا فاذا به يرى الاسد رابضاعند ذلك ادرك انالذي افترسالعجلهذا الاسد فماشعرتحتى شمر الشاب عن ساعديه وصاح بالاسد قائلا : اتأكل عجلي يا كلب وتنام آمناغير خائف .. قال ذلك الفتى ثم قفز على الاسد هاجماً عليه بينما وثب الاسد نحوه .. ولكن الفتى كان اسرع وثوبا من الاسد فوضع احدى يديه بحلق الاسد واليد الاخرى احتضنه بها لكي لايتمكن من ان يقده باظفاره ..(ومن هنا قاطعه عضيب) قائلا :

ولماذا لم تنزل من شجرتك وتساعد اخاك الانسان على هذا الوحش. .

الضيف : كنت اود ان افعل شيئا من ذلك ولكنني شعرت بشلل اصابني فلم استطع ان احرك لساني فضلا عن جوارحي :

عضيب : ثم ماذا كانتالنتيجة ..؟

الضيف : لقد ظل الاسد يزأر والفتى ينتخي ويصرخ بالاسد .. وكلما طال الوقت زاد صوت الفتى ارتفاعا بقدر ما ينخفض زئير الاسد حتى انقلب الزئير الى شخير وقد ظل الاسد والفتى يتصارعان حتى قرب الفجر عند ذلك تمكن الفتى ان يكتم نفس الاسد بيمينه ولم يتركه حتى وقع ميتا .. ثم جاء بجثته يسحبها الى المكان الذي فيه بقية من عظام العجل فاخذ العظاموضعها فوق رأس الاسد وكأنه يخاطب انسانا عندما قال : لقد اخذت ثارك يا عجلي

وافترست من افترسك ... قال ذلك ثم اسند رأسه على جذع الشجرة الموالية لشجرتي واستسلم بعد هذا الصراع الى نوم عميق ولم يستيقظ من نومتـه هذه الى يومنا هذا ...

عضيب – يعني مات هذا الشاب ..

الضيف – اجل .

عضيب – فهل اصاب الاسد منه مقتلا ؟..

الضيف – كلا لم ينله الاسد بسوء ..

عضيب – اذن من اين جاءه سبب الموت ..

الضيف – دع عنك يابني التفاصيل . .

عضيب ـ بعدما وصلنا الى هذه المرحلة لا بد ان اعرف كيف مات هـــذا الفتى الشجاع . .

الضيف ـ لاتحرجني يابني لانني اذا قلت غير الحقيقة معناه انني كذبت وانا لم اعرف عن نفسي انني كذبت حتى ولو ان قول الصدق يعيبني فـــانني لن اختار عنه بديلا وان قلت الحقيقة فانك سوف تنفعل وتغضب علي ..

عضيب ـ هل قتلت الفتى ..

الضيف ـ معاذ الله انا عاجز من ان اقتل اي انسان فكيف بي ان اقتـل قاتل الاسد ..

عضيب ـ اذن كيف مات الفتى ؟؟

الضيف ـ لا اريد ان اتي لك ببقية القصة لانها مؤلمة ..

عضيب ـ لايسعني الان الا ان اعرف كيف كان مصير هذا الفتى الباسل ..

الضيف ـ عندما اضطجع الفتى بعد ذلك الصراع .. بعد هذا تسلل ثعبان من نفس الشجرة التي كنت جالساً على فرعها ..

عضيب ـ يقاطع الضيف قائلا : ثم ماذا فعل الثعبان ؟

الضيف ـ دنا من الفتى فلدغه في عنقه ..

عضيب ـ ثم مات على اثرها ؟

الضيف ـ نعم مات . .

عضيب ـ ولماذا لم تنذره عن الثعبان يا جبان ؟.

الضيف ـ لقد قلت لك سابقاً بانه اصابني شلل عام لا استطيع النطق ولا الحركة من اول ساعة رأيت فيها الاسد الخمسة حتي جاء النهار ومر من عندي قوم من عشيرتنا ونظروني فأنزلوني من الشجرة ولم أشف الا بعد مدة طويلة ..

عضيب ـ اسمح لي يا عم ان اقول ليت القوم لم ينزلوك من شجرتك وليتك مت ولم تعش فمن يكن جبانا الى هذه الدرجة فموته اولى من حياته .

الضيف ـ لقد قلت لك يابني ان آخر القصة قد يزعجك وقد لا تملك نفسك عن الانفعال . .

عضيب ـ ان ما قلته هو الحقيقة ولكنني لا اعرف ان نهاية قصتك سوف تكون بهذه الصفة وثق ان لو لم تكن ضيفا عندي ولولا ان فيك صفة احببتها وهي صدقك وصراحتك .. لولا هذه وتلك لاسمعتك مايسؤك.

الضيف ـ ولذلك وجدتني اتردد عن سرد ما تبقى من الحادثة بسبب ما يشاع عن انفعالك عند سماعك لقصة تشبه نهاية هذه القصة ..

عضيب ـ عسى ان لايكون لك ذرية من الذكور .

الضيف ـ ماذا تعني من سؤالك هذا ؟ ..

عضيب ـ اعني واتمنى ان تكون عقيما لأنه لن يخرج من صلب الجبان الا جبان مثله . ومعني ذلك زيادة عدد الجبناء في امة العرب وهذا ما لا اريده ...

ليست الوراثة قضية لا تقبل الجدل

الضيف ـ ليست هذه النظرية قاعدة مطردة . . فقد نجد شجاعاً خرج من صلبه ابناء جبناء كما نجد جبانا انجب ابناء شجعانا ...

عضيب ـ انا لا اصدق ذلك فالاسد لايمكن ان ينجب الا اسدا والثعلب من المستحيل ان ينجب الا ثعلبا .

الضيف - يابني انا اوافقك الرأي بأن الجنس من الحيوان او من البشر لايمكن ان ينجب الا جنسا من نوع جنسه ولكن لااوافقك الرأي بأن الاخلاق التي يتمتع بها انسان ما سوف يتمتع بها الابن بصورة حتمية فالابن قد يرث اباه بالخلقة ولكنه لايرثه بالاخلاق وبالعكس ..

عضيب ـ حديثك هذا لايمكن ان اقنع به لأن عاداتنا تخالف ذلك ..

الضيف ـ ولكنني يا بني شيخ عاش قرنا كاملا واصبح لدي من التجارب ما يجعلني اثق بأنني على صواب بنظريتي هذه كما انني بحكم تجاربي ايضا

لا اعارض نظريتك هذه لأن تجاربي هدتني بأنها تكون احيانا على جانب كبير من الصواب .. ولكنها دون المغالاة التي تشير اليها اعني انها لم تكن ولن تكون قضية مسلم بها لايعتريها الشطط والتبديل .

عضيب ـ انا واثق من صحة نظريتي هذه ولن اتزحزح عنها كما انني واثق ايضاً بأن من يبلغ من العمر القدر الذي بلغته فإنه لابد الا ان يكون له من التجارب التي مرت عليه ما هو جدير بأن يكون حجة في الموضوع فإن يكن لك شيء من ذلك فإت به ..

الضيف ـ لا شك ان لي تجربة كبيرة بهذا الشأن وتجربتي هي الحكم الفاصل في خلافنا هذا ، وانما الذي اريده منك ان تدعني وشأني فأنت لك رأيك وانا لي رأيي .

عضيب ـ ولماذا لا توافينا بما لديك من تجربة بهذا الشأن وما هو الداعي عن امتناعك عن ذكر شيء فيه انتصار لرأيك وقد يكون فيه الى جانب ذلك درس وعبرة لنا ؟ ..

الضيف ـ ان في تجربتي عبرة حقا ولكن فيها ما هو مؤلم لعاطفتي ومزعج بالنسبة لشعورك الرقيق واحساسك المرهف ولذلك لاارغب بذكر تلك التجربة المؤلمة فكفاني ما ذكرته آنفاً ولا اراني بحاجة الى كشف النقاب عما اصابني من حزن وخزي في آن واحد ..

عضيب – فهل في تجربتك ما هو اسوأ من العار الذي حدثتنا به عن جبنك عندما رأيت بني الانسان يتصارع هو والاسد فلم تستطع من جبنك ان تؤازره ؟ .. وهل في تجربتك ايضا من الخزي ما هو اقبح من الخزي الذي توشحت به عندما رأيت الثعبان يتسلل من الشجرة التي تجلس

على فرعها فيبلغ بك الجبن الى الحد الذي تعجز به من ان تقفز من هذهالشجرة هاربا وتصرخ بذلك الفتى ليهرب من الثعبان ؟ .. فهل في تجربتك ما هو اقبح واسوأ من ذلك ..

الضيف ـ اجل ولهذا تجدني خجلت من اناذكر لك من هوهذا الفتى؟ ولا اريد ان اذكره لك الآن لولا ان سياق الحديث الذي دار بيني وبينك سوف يضطرني الى توضيح الحقيقة . .

عضيب ـ كأن تجربتك هذه لها صلة في قصتك .

الضيف ـ اجل انها الصلة التي لا تنفصل ..

عضيب ـ لايكون الفتى ابن عمك او اخوك ..

الضيُف ـ ليتـه هذا او ذاك ولكنه : قال الشيخ هذه الكلمة اي حرف الاستدراك ثم راح يجهش بالبكاء .: وساد النادي موجة من الصمت وبعد فترة تنهد الشيخ وقال : كنت حريصا ان لااقول ان ذلك الفتى هو ابني ..أجل كنت شديد الحرص على كتمان هذه الحقيقة ولكن الحديث الذي دائما مايكون ذا شجون هو الذي أضطرني لذلك . . لكي اثبت لك يا بني بالدليل المادي المحسوس وبالتجربة العملية بأن قضية الوراثة ليست قاعدة مطردة لا تقبل الجدل .

عضيب ـ ايكون الفتى صارع الاسد أبنا لك ؟؟

الضيف ـ اجل بل هو ابني البكر وذلك انني كنت وحيد والدي .. وكان في منزلنا فتاة يتيمة تكون ابنة عمي فقام والدي وعقد لي النكاح على ابنة

اخيه وذلك عندما كنت في سن مبكره جداً وعندما بلغت سن الخامسة عشر انجيت ذلك الفتى وحينما وقعت الحادثة كان سنه واحدا وعشرين سنة بينما كان سني ستا وثلاثين سنة .. وكان الذي يراه لا يفرق بيني وبينه من حيث الخلقة فقد كنا متشابهين بكل معنى التشابه الا بالرجولة والشجاعة فإن الفرق بيننا كما سمعته وكما رويته لك لا زيادة فيه ولا نقصان ..

عضيب – لعل اباك شجاع ..

الضيف – لا زلت يا بني متمسكاً بهذه الاسطورة .. لم يكن ابي ولا جدي من الشجعان بل ولا يعرف عن اي واحد من اسرتنا الشجاعة ..

عضيب – ان في قصتك يا شيخ بطولة في اولها وحزنا في آخرها وعبرة في نهايتها .. ولقد سمعت ان الجبان يجبن في اللحظات الحاسمة فيهرب عن صديقه او يتقاعس عن اسعاف اخيه ولكنني لم اسمع قط ان الجبن يبلغ بك درجة تعجز بها عن نجدة ابنك ولو بالكلام .. كما انني ما كنت اتخيل ان من يكون جبانا الى هذه الدرجة يمكنه ان ينجب شجاعاً كابنك .. وخير ما في قصتك هذه التي تحتوي على ثلاث مراحل كما ذكرت هي انها تحمل طابعاً آخر وهو صدق روايتك[1]

* * *

(١) وبعد فلنعد الآن الى تاريخ هذه الحادثة على وجه التقريب فاذا قلنا ان عضيب بن موعد توفي في مدة ادناها عام ١٢٨٢ واقصاها عام ١٢٦٣هـ واذا قدرنا ان راوي الحادثة عندما رواها كان عمره مائة عام واذا قدرنا ايضاً انه رواها في نادي الفارس ابن موعد قبل ان يتوفى بسنتين فقط اي عام ١٢٨٠ فتكون الحادثة وقعت قبل الرواية في مدة قدرها ٦٤ سنة ومعناه ان للحادثة الآن اي منذ عامنا الحالي ١٣٨٤هـ حتى وقوع حدوثها ١٦٨ عاما على وجه التقريب .

كل آفة عليها من الله آفة

- ٣٧ -

هذا المثل من جملة الأمثلة التي يرددهـــا الشعبيون عندنا ، في كل مناسبة من المناسبات الطارئة التي ينطبق عليها هذا المثل قولاً وفعلاً ..

وما اكثر المناسبات التي تذكرنا دائماً وابداً بهذا المثل الذي يتلخص معناه بما يلي :

(ما من ظالم او طاغية الا وسيبتلى على طول الزمان بظالم يذيقه الظلم والطغيان اللذين كان يتسلط بهما على الغير) .

ويوشك ان يكون هذا المثل الشعبي من اقدم الأمثلة الشعبية التي سمعتهـــا وحفظتها منذ عهد الطفولة ..

واعتقد ان السبب الذي جعلني احتفظ به لا من اجل انه مثـــل واقعي فحسب ، ولكن لأنني شخصياً اكره الظلم انى كان نوعه ، وامقت اهله حيثما كانوا ، ولئن كنت اكره ان اشمت بأي انسان اصيب بكارثة من كوارث الدهر حتى ولو كان هذا الانسان من الدّ اعدائي ، فإنني لا اكره ان اشمت بالظالمين الطغاة ، فيما اذا ابتلاهم الله بقوي اذاقهم مرارة الظلم والطغيان جزاء وفاقاً لمـا قدمته ايديهم من اعمال مماثلة . وتلك ظاهرة عبر عنها الشاعر الملقب (ببدوى الجبل — الاستاذ احمد سليمان الاحمد) خير تعبير وذلك عندما فتح الجيش الالماني باريس في الحرب العالمية الثانية فأنشد هذا الشاعر السوري قصيدة كلها شماتة بفرنسا ، وعلى سبيل الاختصار اورد منها قوله :

سمعت باريس تشكو ظلم فاتحها　　فهل سمعت أيا باريس شكوانا
اني لأشمت بالجبار يصرعه　　طاغ ويرهقه ظلماً وعدوانا
عشرون عاماً شربنا الكأس مترعة　　من الأذى فلتذوقي شربها الآن

وهكذا نجد الظالم الطاغية في كل زمان ومكان وسواء كان هذا الجبار المعتدي من بني الانسان او من عالم الحيوان ، فإنه لا بد ان يبتليه الله بمن ينتقم منه جزاء ونكالاً على ما قام به من اعتداء على الآمنين الأبرياء .

* * *

وقبل ان تنقطع الاسود من ارض العراق من مدة لا تقل عن قرن ونيف ؛ كان يوجد اسد يختلف باعتدائه عن بقية الاسود التي يتوقف اعتداؤها على افتراس البهائم من الغنم او البقر الخ .. وانما يفترس بني الانسان فأصبح لا تقبل نفسه اي غذاء الا الغذاء الذي يفترسه من بني آدم . وعندما التذ بافتراسه للانسان تمادى به الامر الى الحد الذي جعله يقتحم المنازل ويختطف السكان من بين ايدي اهليهم ، فكان من شأن ذلك ان ادخل الرعب والخوف في قلوب السكان .. فكم من ليلة وليلة هجم هذا الضرغام البطاش الغشوم ، واختطف شخصاً من السكان الآمنين المسالمين وراح يجره من عضده غير مبال ولا خائف ، وكان اعتماده على ظفره ونابه وعلى ضخامة جثته التي تختلف عن بقية الاسود ، اختلافاً كبيراً ، جعل منه وحشاً يقدم على مثل هذه العملية في كل مناسبة وبدون مناسبة . فإن لحق به احد يريد ان ينقذ فريسته منه ، فهو عند ذلك يترك الفريسة ويكر بهجوم معاكس على هذا الاخير فيثب عليه ويقطعه ارباً ..

وفي ذات ليلة وثب هذا الغضنفر كعادته على شخص يدعى «حسن النليشه» واختطفه من بين يدي اهله على الاسلوب نفسه الذي اعتاد عليه في اعماله المتكررة ، وراح يجر فريسته بكل هدوء وامان وبدون اية مبالاة ، ولم يخطر

لهذا الوحش ببال ان هناك من يستطيع ان يفلت فريسته من يده ، والسبب كما اشرنا هو ان عمليته هذه لم تكن بكراً من نوعها بل سبق له ان قام بأعمال مماثلة من هذا النوع .. كما سبق له ايضاً ان افترس اكثر من واحد من الرجال الشجعان الذين اخذتهم النخوة ولحقوا به محاولين ان ينقذوا ضحيته من يديه ، فتكون النتيجة كما اسلفنا ان يثب على هذا الذي يحاول انقاذ الفريسة ويقده بنابه ، ثم يعود الى فريسته فيما بعد .

اصبح الفارس مفترساً

اما ان يخطر ببال الغضنفر ان يلحق به فتى شجاع كصالح الزيد (١) لا ليفلت فريسته من بين براثنه فحسب ، بل ليثب عليه كما كان يثب هو على ضحيته وليمزق اشلاءه بحسامه كما كان يمزق اشلاء فريسته بأظفاره ..، لا لم يخطر ببال الضرغام الغاشم شيء من ذلك ..

وفي الحين الذي كان ملك الوحوش متأبطاً فريسته سمع نداء يصيح به بصوت عال جهوري قائلا :

ـ قف يا كلب ..

---

(١) صالح من مدينة حائل وهو الجد المباشر للمرحوم عبد العزيز بن زيد الذي كان سفيراً للمملكة العربية السعودية في سورية ولبنان . انظر ص ٢٦١ من هذا الجزء . وقد ذهب صالح الزيد للعراق من بلاده حائل حوالي عام ١٢٤٥ ه هو ونفر من اهالي بلاده وعلى رأس اولئك النفر عبد الله العلي الرشيد انظر ص ١٧٤ ج ١ من شيم العرب للمؤلف . وقد ذكرت الاسباب التي جعلت صالح الزيد يهاجر عن بلاده ذكرتها في الجزء الخامس من شيم العرب الذي لا زال تحت الطبع .

كان هذا الصوت يختلف عن اي صوت سمعه من بني الانسان.. صوت اشبه ما يكون بزئير الاسد الهصور ، ولذلك ترك الاسد فريسته وراح يزأر زئـــيزاً مدوياً مرعباً .. ثم عقب زئيره بزئير ثان وثالث وبعد ذلك ارتكز على قدميه كما اعتمد على يده اليسرى ثم وثب بيده اليمين محاولاً ان يهشم بها هامة الفتى صالح .. ولكن الفتى كان اسرع منه وثوبا بحسامه الذى امتشقه بسرعة خاطفة واومى به على يد المعتدي فبترهـــا ، فجمـــع الضرغام كل مـــا لديه من قوة ثم وثب ثانية بيده الثانية محاولاً ان يفتك بالفتى .. ولكن الفتى سبقه بحسامه مرة اخرى وبتر يده الثانية .. ثم بعد ذلك أجهز عليه وقطعه اربـــاً واراح اهل البلاد من شره ، واخذ بيد الشخص الذي كان ينوي الاسد افتراسه وادخله بيت اهله ، ويؤكد لي المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيـــد حفيد صالح بطل القصة بأن الصلة بين احفاد حسن النتيشة العراقي الذي انقذه جده صالحمن افتراس الاســـد وبين احفاد صالح الزيد ظلتْ راسخة الجـــذور ومستمرة دون انقطاع وخاصة اذا زار احفاد صالح العراق في مناسبة ما ..

من ابطال السودان

- ٣٨ -

كل من لا يعرف حقيقة ساكني السودان يظن خطأ انهم ليسوا بعرب بحكم سوادبشرتهم والذي يتخيل وهما هذه النظرية سوف يخيل اليه ايضاً انني اخطأت بوضعي لهذه القصه ضمن شيم العرب وعاداتهم، ولكنني افند من يرى هذا الرأي بالمنطق الواقعي وبالعلم الأكيد الناتج عن خبرة وتجربة ودراسة لعاداتهم وذلك بحكم صلتي المباشرة بهم تلك الصلة التي مكنتني من معرفـــة اخلاق هؤلاء القوم معرفة وطيدة وذلك منذ اكثر من عشرين عاماً حينما ساقني القـدر لزيارة تلك البلاد حيث قضيت فيها فترة من الزمن كنت فيها يافعاً ..

ولا اريد ان ابعد بالقارىء الى شرح الاسباب التي قادتني الى تلك الرحلة التي مكثت بها سنتين هناك، لأن ذلك يبعد بنا عن صميم الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه، والذي يطيب لي الاشارة اليه هو انني تجولت بشتى الاقطار السودانية واستوطنت بعضاً منها الامر الذي مكنني بأن ازداد خبرة واسعة وعلما راسخا بعـادات وأنساب اهل تلك البلاد وتقاليدهم القومية وعلى وجه العموم استطيع ان أؤكـد بأنهم كلهم كعرب ولم يكن هناك كثير التباين بالعادات والشيم العربية خاصة في البلاد التي لم تتأثر بالحضارة والاخلاق الاوروبية ..

وبحثنا هنا حول ساكني السودان، اولئك القوم الذين حسب عهدي بهم

من ابعد البلاد العربية عن التصنع بأخلاق الغربيين ومن أشد البلاد العربية تمسكا بعادات العرب فتجدهم بكرمهم وشهامتهم وشدة جلدهم يمثلون الخلق العربي بكل معنى من معاني هذه الكلمة .. ومن ناحية تمسكهم بأنسابهم فإنه قل ان تجد واحداً منهم الا وهو يعتز بنسبه العربي ولا يتوقف اعتزازه بعروبته الى هذا الحد فحسب ، بل يذهب ويسرد شجرة نسبه فلان ابن فلان الى ان يقف عند الفضل بن العباس الهاشمي وأكثر من يعتني بهذه الناحية بعض منهم الذين تعرفت عليهم كقبيلة الجعليين والشاقيه والانقرياب والرباطـــاب الخ .. فكل هؤلاء وامثالهم نجد ان الفرد منهم يعد نسبه غيبا كما ذكرنا حتى ان يصل الى العباس عم النبي محمد ﷺ . ومن المعلوم انه ليس لديهم لغة ما عدا اللغة العربية. وما دمت قد وضعت فصلا خاصا بشجاعة الساعد فلا بد لي هنا بـأن اشير الى قصة تعبر ابلغ التعبير عن الشجاعة التي من هذا النوع ، وقبل ان اباشر بشرح القصة أحب اولا ان أشير الى ذكر عادة من عاداتهم التي تبرز بها الشجاعـــة الجسديه بصوره تكاد ان نقول عنها إنها فوق احتمال بني الانسان، بصرف النظر عن كونها عادة ليست مألوفة ولا مستحسنة ولكنها كما اسلفت تعبر تعبيراً اكيـداً عن مدى صبر وقوة وشجاعة ابطالها الماهرين بها ..

وأعني بذلك لعبة « الدلوكه » تلك التي كنت اود ان لو شاهدتها رؤيه العين لكي استطيع بأن اصفها كما رأيت لا كما سمعت .. والسبب الذي حال دون اتاحة الفرصة لرؤيتي « الدلوكه » هو انها لا تقام ولا يعتني بهـــا كما يقولون الاعند النفر (الاشو)[1] هذا وبحكم ان اقامتي كانت في المدن فإنه تعذر عليّ رؤية هذه المسرحية الشعبية وتعريف هذه اللعبة كما يلي :

---

(١) الاشو يعني القرويين .

هذه الدلوكه السودانية .

يجتمع شباب القرية ونساؤها في موضع ما ، وفي مناسبة الافراح كالاعياد او الزواج ، ومن ثم تأتي امرأة مسنة وتقرع طبلا كبيراً وتلحن قصيدة شعبية من القصائد التي تنشد في مثل هذه المناسبة. وقد كنت احفظ بعضاً من القصائد القوميـــة التي من هذا النوع ولكن خانتني الذاكرة لطول العهد . ولم اذكر الا بيتا واحداً سوف آتي به في مكانه المناسب ، المقصود انه بعدما يدق الطبـــل وتنشد صاحبة الطبل الاغاني الشعبية عند ذلك يأتي الفتيان والفتيات ويحيطون بصاحبةالطبل وعندئذ تأتي فتاة وتتوسط المسرح وتظل ترقص واذا قضت فترة اختارت شاباً من الحاضرين وذهبتنحوه حتى اذا دنت منه قامت بحركة غرامية توحي بأنها تريد ان تقبل الفتي بينما هي لا تعدو من كونها تميل عليه برأسها دون أن تمسه قائلة الكلمة التالية (كش) وهذه العملية يطلق عليـــها اسم (شبال) حسب الاصطلاح فيقال عندهم فلان أعطى (شبال) والشاب الذي تمنحه الفتاة (للشبال) يتحتم عليه ان يقف وسط المسرح امـــام الحفل وقفة الشجاع فيهز زنده ثم يضرب الارض بقدمه قائلا: (انا خو البنوت) اي (انا أخو الفتيات) فيأتيه بعد ذلك شاب آخر حاملا سوطاً بيده فيضربه على ظهره شريطة ان يكون المضروب عاري الظهر وليس على ظهره أي شيء يقيه الضرب ما عدا ما يستر به عورته .

والجدير بالملاحظة ان هذا المضروب سوف يقتص من ضاربه في تلك الساعة او بعدها بقدر عدد الاسواط التي يضربه بها ، فالقضية أشبـــه ما تكون بالمبارزة ، فاذا كان المضروب الاخير استطاع ان يتحمل عـــدد الاسواط التي

ضربه بها الاول فيكون امتياز البطولة امام هذا الحفل له لا للضارب الاول ، واذا اخذ التفوق على نده اصبح له مكانة محترمة بين بني قومه الى أن يأتيه من يفوقه ، والثاني هذا سوف ينال الاحترام حتى يأتي من يعلو عليه وهكذا دواليك الى ان تصل الاسطورة الى ما يسمى بفتوة (الحي) او شيء بهذا المعنى . وما من قرية الا ويكون فيها شخص متفوق بصبره واحتماله للسياط - بصورة لايضارعه بها احد من فتيان الحي . فيكون هذا كالحصان الذي يأخذ جائزة السباق فيظل يتمتع بهذه الصفة الى ان يأتيه من يسمو عليه ..

ولا بد لي من أن اشير الى البيت الذي تنشده ضاربة الطبل فتقول :

أخوان البنوت القـــده ظميانه

وين انتم يا مسقين اكفانـــه

شرح المعنى : تقول ان الاسواط ظمآنه ولا يسقيها الا اجساد الفتيان الشجعان فأين انتم ايها الفتيان ؟ ...

يأكل طعام الخمسين ويصرع الخمسين !

وعندما كنت في السودان روى لي شخص يقوم بعمل مهندس بفن النجارة يدعى (عالم طه) حادثة بطولة قام بها فتى سوداني اسمه محمد عابد يقول طه : انه سافر ضمن بعثة من رفاقه بأمر من حكومة الانتداب الانجليزية وقتذاك برحلة الى احدى الجهات من السودان التي ضاع عن ذاكرتي موضعها ، وكان يرأس تلك البعثة شخص انجليزي وعدد هذه البعثة يقارب خمسين شخصا بما فيهم

من مستخدمين وعمال ، وبينما كانوا يسيرون في أرض صحراوية وجدوا شاة ضائعة فكلفوا احد العمال بذبحها وطبخها ، والعامل الذي وكل بطبخها هـو المرافق الخاص لصاحب الرواية المدعو محمد عابد ، وكان محمد معروفا بين العمال بالصدق والامانة والاستقامة وقوة البنية ، وكان السبب لاختيارهم له هو مـا يعتقدونه بأنه سوف ينهي طبخ الشاة بوقت اسرع مما ينهيه به غـيره من زملائه ، وقد كان الفتى عند حسن ظنهم به من حيث قوته وسرعة انضاجـه للذبيحة ، ولكنهم اخطأوا بمعرفتهم لشخصه ، فكأنهم كانوا كمن يودع الشاة عند الذئب الجائع ، وذلك ان الفتى التهم الشاة بكاملها بدون شعور منه حيث كان كلما بين لحظة واخرى يتناول قطعة من لحم الشاة التي في القدر على النار ويلتهمها بقصد ان يعرف مدى نضوجها ، وهكذا كان يفعـل حتى تقلص لحم الشاة ولم يبق منه الا ما هو اقل من ربعه . . وقد كان يأخذ القطعة من القدر المغطى ثم يعيد الغطاء بدون ان ينظر ماذا بقي من اللحم حتى اذا ايقن ان اللحم نضج نزل القدر حتى يبرد وينادي رفاقه ، ولكنه عندما كشف الغطاء وجد القدر فارغا من لحم الشاة ولم يبق به الا كما ذكرنا آنفاً اي الشيء الذي يقل عن ربع لحم الذبيحة ، فازداد دهشة وخجلا فكان مصدر دهشته هو انه استغرب كيف انه التهم هذه الشاة في الحين الذي يشعر انه جائع وكأنه لم يدخل جوفه لقمة واحدة كما انه كان خجلاً من رفاقه فلا يعلم بماذا يعتذر به منهم في عمليته هذه ..

فترك الفتى قدره مكشوفا وراح يشرح لمعلمه القضية كما كانت ولم يكن لدى معلمه من الحيلة الا ان قال له عليك ان تجمع رجال القافلة جميعهم وتشرح لهم الامر وتطلب منهم ان يسامحوك .. فذهب الفتى ونادى رجال القافلة فحضروا

جميعا اعتقادا منهم ان الفتى انتهى من طبخ الشاة وانه ينوي ان يقسم عليهم اللحم كل يناوله بسهمه من الشاة .. ولكنهم ادركوا ان اعتقادهم كان خاطئا وذلك عندما وقف الفتى وقال :

- باستطاعتي أيها الاخوان ان اقول لكم انني بعدما انضجت الشاة تركتها في القدر وذهبت لقضاء حاجة ما وعندما عدت وجدت الشاة مختلسة ولم يبق منها الا شيء قليل .. كان باستطاعتي ايها الرفاق ان اقول لكم ذلك وانتم سوف تصدقونني طبعا نظراً لما تعرفونه عني من صدق الحديث ولكن من الحق والصدق ان اصارحكم بالحقيقة وان كانت هذه الحقيقة مخجلة لي وقد لايرضي عنها بعضكم فأقول اسمحوا لي بأن اعرفكم عن نفسي اولا : فانا فتى بقدر ما وهبني الله من الصحة وقوة البنية بقدر ما كنت اكولا .. لقد كنت التهم الخروف الكبير الذي هو اكبر من شاتكم هذه كنت آكله بمفردي في الحين الذي لم اكن جائعا كجوعي هذا اليوم .. وهذا ما جعلني آكل ثلاثة ارباع الشاة بدون ان اشعر وكل ما في الامر انني بين لحظة واخرى اذهب وآخذ قطعة من لحم الشاة وهي فوق النار وفي وسط القدر لأنظر هل نضجت ام لا ؟... وبدون شعور مني أكلت ثلاثة ارباع الشاة ولم اشعر بعمليتي هذه المخجلة الا بعدما نزلت القدر وكشفت الغطاء عنه عند ذلك عرفت ما وقع مني وازيدكم تأكيداً بأنني اكلت ما اكلت وانا لازلت اشعر بالجوع فكأنني لم اتناول الطعام قطعيا ..

يقول الراوي طه انه بعدما انتهى الفتى من حديثه انقسمت القافلة الى قسمين : قسم منهم اقتنع بحديث الفتى وسمح عنه وقسم آخر اصر على انه يجب

ان يطرح ويضرب بالسياط تأديبا له على فعلته هذه .. وكان الاكثرية من رجال القافلة الذين يرون الرأي الاخير ؛ وعندما رأى الفتى عزم الاكثرية على عقابه والتنكيل به نزح بعيدا عنهم وناشدهم الله بأن يتركوه وشأنه ولكن القوم لم يصغوا لما يقول .. وأخيرا حذرهم بل وهددهم عما سيلقونه منه فيما اذا اقدموا على عملهم هذا ، وما كان من تحذيره لهم الا ان تمادوا باصرارهم وهجموا عليه جميعا فخرج من بينهم كالسهم ثم كر عليهم وبدأ يتناول الذين كانوا يحرضونهم واحدا واحدا حتى اذا قبض احدا منهم رفعه بين يديه ثم ضرب به الارض ضربة تركت ذعرا ورعباً في قلوبهم جميعا . وأخيرا لاذوا جميعا بالفرار وبعد ذلك عاد والتهم بقية ما تبقي من الشاة .

هذا وقد واصلت القافله سيرها الحثيث حتى وصلوا الى قرية كبيرة لااذكر اسمها ومن الصدف العجيبة ان وجد رجال هذه القافلة في تلك القرية مسرحية (الدلوكه) فكانوا بطبيعة حالهم كقادمين من رحلة صحراوية بحاجة الى ان يرفهوا عن انفسهم جميعاً ليتسلوا بمشاهدة هذه المسرحية الشعبية بما فيهم آكل الشاة محمد الذي سر سرورا يختلف عن سرور رفاقه ، فهم ارادوا بذهابهم ان يرفهوا عن انفهسم ويتسلوا ولكنه اراد ان يبرهن لرفاقه مدى ما يتمتع به من بطولة في ميدان الدلوكة الذي هو موضع امتحان بصورة تكون اكثر مما رأوه وشاهدوه وقبل ان يذهب الى المسرح مر عليهم وقال :

– سوف أذهب الى الدلوكة فأود ان تأتوا الآن لتنظروا الى موقف صاحبكم لعلكم ترون مني ما يبيض وجهكم امام اهل هذه القرية لكي تغفروا لي خطيئتي الاولى التي وقعت مني بدون قصد وأعني بها اكلي للشاة كما تغفرون لي

خطيئتي الثانية التي أرغمني بعض اخواني عفا الله عنهم على ارتكابها كدفاع عن النفس ، بعد هذه الكلمات ذهب الفتى الى المسرح كما تبعه رفاقه بشوق ورغبة لينظروا ماذا لدى فتاهم هذا من البطولة بعد حديثه هذا ..

وما ان وصل المسرح وتوسط منه حتى قام بالحركات التي تدل على ان صاحبها يريد ان يدخل نفسه في ميدان المنازلة وقد كان الفتى على جانب كبير من الوسامة والجسامة معا كما انه غريب لم يسبق لمن بالحفل من اهل القرية ان رأوه قبل هذه المرة ، فكل هذه العوامل من شأنها ان تجمل انظار من بالحفل تشرئب نحوه كما انها خليقة ان تشغل عقل فتاة المسرح الراقصة مما يجعلها تنساق اليه بشوق وغرام ... وهذا ما حصل فعلا ، فقد ذهبت الفتاة اليه حتى اذا دنت منه اعطته (الشبال) فقام الفتى بعملية الروتين المألوف حيث توسط المسرح ليدفع ثمن هذا « الشبال » ولما كان الفتى كما هو معروف غريبا عن أهل القرية ، ومن عادة الغريب الذي لا يعرف مدى ما لديه من قدرة على الجلد والشجاعة ان يكون مهيوبا يضاف الى ذلك ان للفتى من مظاهر الرجولة والهيبه ما يجعل له هيبة وخوفا في نفسية من يريد ان ينازله ، فقد تردد ان يقدم على منازلته من فتيان القرية اي واحد منهم .. وحسب العادات الجارية في حالة كهذه أي انه اذا جاء للبلاد غريب لايعرفون شيئا عن مدى بطولته في هذا الميدان وتخلى فتيان البلاد عن منازلته وتأزم الموقف ، عند ذلك يتحتم على فتوة هذه البلاد ان ينازله هو بنفسه ولهذا اضطر الفتوة صاحب المجد الذي لاينافسه أحد عليه في هذه البلاد اضطر ان يأخذ السوط ويقبل عليه قائلا الكلمة المألوفة :

- شبال بشره [١]

فأجابـه الفتي الغريب (ايوالله بشره [٢]) ثم ضرب الارض برجـله ، ضربـة احدثت رعبا في قلوب اهـل القرية جميعا .

وبعد ذلك ناوله فتوة البلاد سوطا بكل ما اوتي من القوة ولكن لم يكن لهذه الضربة أي اثر على المضروب .

واحد كألف والف كواحد ! !

ثم ضربه ثانية وثالثة وكان في كل ضربة من ضرباته يستعمل اقصى ما لديه من القوة ولكنه رغم ذلك لم يكن لضرباته هذه ادنى تأثير بل كأنـه يضرب جبـلا على الرغم من ان هذا الفتوة عرف بأنه لم يضرب انسانا بسوطه الا صرعه ...

ولما كانت الاصطلاحات كما ذكرنا تقضي ان يسدد المضروب للضارب في حينه عـدد الاسواط التي ضرب بهـا سواء قلت ام كثرت ، فقد وجد فتوة البلاد نفسه أن من الحكمة ان لايزيد عن هذه الاسواط الثلاثة ليقينه ان كل ضربة يزيدها سوف تكون على حسابه ، ولذلك طرح السوط من يده ووقف عند هذا الحد ليحتفظ لنفسه بشيء من الكرامة ، ولكن قرينه لم يتركه يحتفظ بكرامته امام الحفل بل صرخ به قائلا :

---

(١) اي انك سوف تدفع ثمن هذه العملية التي قامت بها الفتاة .

(٢) انني مقدم على ذلك غير هائب .

– ألست فتوة البلاد مالك ادبرت ؟ انني اتحداك امام هذا الحفل بأن تزيد من اسواطك هذه الباردة ؟ . .

ثم واصل حديثه الى ان قال يجب عليك احد الامرين اما ان تعود وتزيدني او ان تعترف على نفسك بأنك تركتني رحمة بنفسك ورأفة بها ، ثم عليك ان تعلم بأن الصراع بيني وبينك لم يكن صراع شخصين عاديين بل صراع فتوة وفتوة فان غلبتني فلا تخش بعد ذلك منافسة اي فتوة بعدي وان غلبتك فسوف تفقد لقب فتوة البلاد . .

كان لهذا الحديث الموجه من الفتى الغريب الى الفتوة المعروف اثر مزعج ، كما انه اثار انتباه جميع من في المسرح وجعلهم يزدادون اعجابا بالفتى الغريب وظلوا جميعا ينتظرون النتيجة بفارغ الصبر . .

هذا وقد انبعث المسرح من جديد وقامت تترنم صاحبة الدلوكة بصوتها المطرب وجاءت فتاة المسرح ترقص على نغمات المطربة وموسيقى الدلوكة وظلت الفتاة ترقص وتتكسر باطرافها فكأن جسدها الغض الناعم لحم لا عظام فيه حتى اذا دنت من فتوة البلاد مالت عليه كغصن الموز ، وناولته – الشبال – المغلوم أي القبلة الموهومة فقفز الفتوة وتوسط المسرح واقبل نحوه الفتى الغريب وهز السوط بوجهه قائلا العبارة المألوفة :

– الشبال بشره ، واجابه هذا بالجواب الذي يقال عادة بمثل هذه الحالة :

– اي والله بشره كما مثل الحركات المعتادة سالفة الذكر .

واول عملية قام بها الفتى الغريب هى ان اتجه الى من بالحفل قائلا :

– اعاهدكم الله لئن تآمر علي احد وشق الطبل قاصدا افساد المسرح قبل ان انهي عدد الاسواط الثلاثة التي سوف اضرب بها الفتوة كما ضربني فانني سوف ارقع شق الطبل من جسد الفتوة نفسه بمديتي هذه ، مشيرا الى المدية التي يضعها الشعميون السودانيون في الذراع الايمن .

كأنني ارى علامات الاستفهام تترامى علي من القراء مستفسرين عن معنى هذا اللغز ، ومعناه هو ان العادة المتبعة تقضي بأنه عندما تطغى بطولة الضارب على المضروب وتنهار قوة المضروب قبل ان يستوفي الاخير عدد الاسواط التي ضرب بها من قبل عند ذلك يأتي احد اقارب او اصدقاء المضروب ويشق الطبل الذي هو مدار نشاط المسرح والغاية من ذلك هو افساد المسرح من اساسه ..

هذا وقد ناول الفتى الغريب فتوة البلاد السوط الاول وشـاء ان يرتمي الفتوة ارضا من شدة الضربة الاولى ولكنه استرد شجاعته وثبت بعدما ظل يرتعش وظهره ينزف دما ثم ضربه الثانية فسقط على الارض فهجم اخوه على الطبل الضارب قاصدا ان يشق الطبل لكي تفسد المسرحية قبل ان يناوله اخاه السوط الثالث وعندئذ وثب الفتى الغريب على هذا الذي اراد ان يفسد للطبل قبل ان يستوفي حقه كامـلا ، وهنالك عند ذلـك هجم من بالحفل من شباب القرية على الفتى الغريب حيث اخذتهم النعرة القبلية على فتوتهم الذي وقع صريعا من ضربه وكان قصد اهل القرية ان يستخلصوا المدية من يده ثم يشبعونه ضرباً فيما اذا لم يستسلم ..

ويؤكد راوي الحادثة المهندس عـالم طه ان فتاهم عندما رأى كل من في المسرح من رجال ونساء هجموا عليه وشاءوا ان يتمكنوا منه عند ذلك هجم الفتي على ادنى الجهات الموالية حاملاً السوط بيد والمـدية بيد فهزم كل من وقف بوجهه وعندما فك الحصار الذي كان مطوقاً به كر مرة ثانية بهجوم معاكس

على البقية فلم يقف بوجهه احد من رجال القرية فحسب بل حتى رفاقه انهزموا عن وجهه .

ويزيدني المهندس عالم تأكيداً بأن رئيس القافلة الانجليزي اعجب كثيراً بالفتى محمد وراح يحاول ان يستميله لكي يكون مرافقاً له بصورة خاصة ولم يترك وسيلة من وسائل الاغراء للفتى الا استعملها ولكن البطل صارح الانكليزي قـــائلا :

– لو خيّرت بين الموت او البقاء في معيتك لفضلت الأمر الأول .



شجاعته بساعده كشجاعته في الهيجاء

- ٣٩ -

ربمـــا يكون لدى انسان ما شجاعة أدبية ، ولو لم يكن لديه شجاعه في الحروب ، او يكون لديه شجاعة في قلبه وساعده ، ولم يكن لديـه شجاعة في عقله وتفكيره .. او يكون العكس من هذا وذاك .. والجمع بين هذه الصفات بصورة كاملة قد يكون من المستحيل .. اما الجمع بين صفتين متجانستين كالجمـع مثلا بـين الشجاعة الفكرية والشجاعة الحربية ، او الجمع بـين شجاعة القلب وشجاعة الساعد ، فالجمع بين هذه وتلك قـد لا يكون متعذراً كتعذره بـين الصفات السالفة الذكر ..

وبطل قصتنا هذه هو سويلم الشعلان[١] ذلك الرجل الذي جمع بـين شجاعة الحروب كفارس له مواقف معروفة في الهيجـاء ، كما اضاف اليهـا شجاعته بساعده وقلبه وذلك في الحادثة الآتية :

كان ذلك في عام ١٣٦٦هـ عندما كنت طالباً في الطائف في مـدرسة دار التوحيد الثانوية ، وقد بلغنا وقتها ان هناك ذئباً مفترساً في قرية الحوية[٢] وان

(١) انظر ص ٨٥ من هذا الجزء . وصفحة .... ج ٣ من شيم العرب للمؤلف .
(٢) الحوية هي القرية التي فيها مطار الطائف .

هذا الذئب بلغ استهتاره بالسكان درجة جعلته لا يبالي باقتحام بيوتهم واختطاف فريستة من الغنم من بين ايدى الاهالي .. وقد تكررت عمليته هذه ، وفي ذات ليلة هجم الذئب المذكور على منزل سويلم الشعلان عندمـا كان يقيم في (الحوية) قاصداً ان ينهب عنزاً من الغنم الموجودة عند صاحب المنزل .

ويروي لي سويلم رحمه الله كيفية هجوم الذئب على منزله فيقول :

- بينما كنت وزوجتي وأطفالي نغط في سبات عميق في بداية الثلث الاخير من الليل .. وفي تلك اللحظة سمعنـــا دوي صوت ثقيـلا شعرنا بأنه سقط في البيت ، وقد احدث سقوط هذا الشيء المفاجيء اثراً مزعجاً كان من شأنـــه ان استيقظنا جميعاً وذهبنا للنظر ما الأمر ، وسرعان ما بدا لنا الامر غير مجهول وذلك عندما رأينا الذئب يتجول بين الغنم الموجودة في جانب البيت .

ويقول الراوي: ما ان رأى الأطفال النساء والذئب حتى علا ضجيجهم وصراخهم بصورة تدعو الى الرثاء، وعند ذلك رأيت ان خير وسيلة اتخذها مبدئياً لمواجهة المشكلة هي انني جمعت العائلة كلها من نساء واطفال وأدخلتهم في احدى غرف البيت وأقفلت عليهم باب الغرفة ، ثم بعد ذلك ذهبت لانظر ماذا فعل الذئب بالغنم ، وعندها وجدته واقفا بين الغنم دون ان يقوم بشيء عملي نحوهـــا .. فصحت به فترك الغنم وراح مدبراً قاصـــداً ان يخرج من الطريق الذي دخل منه .. ولكن المشكلة هى ان الجدار الذي يحيط بالبيت والذي قفز منه الذئب

كانت ارضه مرتفعة من الخارج بصورة مكنت الذئب من القفز منه بدون كلفة بينما كانت ارض البيت من الداخل منخفضة فيكون الجدار بطبيعة الحال مرتفعاً الامر الذي جعل عودة الذئب منه متعذرة ..

ويمضي سويلم في قصته فيقول : عندما وجد الذئب انه لا يستطيع الخروج من المكان الذي دخل منه عند ذلك ذهب يحاول الخروج من الباب الخارجي للبيت ولكن هذا الباب كان مقفلا ، وعندما وجده موصداً في وجهه وان لا سبيل له للخروج من المأزق الذي ادخل نفسه فيه ، عند ذلك جمع نفسه وأقبل علي ينوي الفتك بي ، ويقف سويلم عند هذه المرحلة فيقول :

(كنت شعرت في تلك اللحظة ان الذئب عندما يتعذر عليه الخروج فانه سوف يهجم عليّ لا محالة لا محبة بالافتراس فحسب بل كدفاع عن نفسه لان القضية بالنسبة اليه أصبحت بحكم الامر الواقع قضية حياة او موت .. وهذا الشعور جعلني افكر بالسلاح الذي اقاوم به هذا الوحش ، ففكرت بالبندقية على الفور ، ولكن هذه البندقية في وسط الغرفة التي اقفلتها على الأبناء ولم اذكر الان اين يكون مفتاحها ، كما انه لم يكن لدي متسع من الوقت يجعلني انقب عن المكان الذي فيه المفتاح ..

واسترسل الراوي في سرد قصته الى ان قال : وعندما أقبل عليّ هذا الوحش فاتحاً فاه كنت في لباس النوم اعزل من أي سلاح الا انني في تلك اللحظة وقعت عيني على العصا التي يحمل عليها الساقي(صفيحتي) الماء فاختطفتها،

وعلى الفور اهويت بها على الوحش بكل مالدي من القوة فخر صريعاً فوراً .. وقد جاءت الاصابة لحسن الحظ على هامتــه فهشمتها بصورة اشبه ما تكون بطلقة نارية فتت رأسه ومزقته ارباً [1] .).

* * *

---

١ ومما يجعلنا نؤمن بأن شجاعة قلب سويلم كشجاعته بساعده انه لم تكن الاولى اعظم مما يجعلنا نؤمن بذلك وهو ان الرجل وقتهـا كان في بداية العقد السابع من عمره ومع ذلك استطاع بضربة واحدة ان يقضي على هذا الوحش المفترس .

بطل القسطنطينية الذي اهمله التاريخ

- ٤٠ -

يوشك ان تكون هوايتي علم التاريخ وحرصي الشديد على الالمـام بكل ما يمكنني ان اعرفه عن تاريخ امتي العربية بصورة خاصة وتاريخ الامم الاخرى بالمفهوم العام الشامل طاغيين على كياني بكل مـا تشير اليه هـذه الكلمة من معنى .

كما ان هيامي بالاطلاع على تاريخ الاسر التي اتيح لرجالها ان يتولوا دست الحكم باسم الملكية او الامبراطورية والسلطنة الخ .. ورغبتي بمعرفة تاريخ الافراد الذين ابرزتهم مواهبهم من العدم والخمول الى ذيوع الصيت وشيوع الذكر وعالم الخلود ، لا يقل شأناً عن رغبتي بالاطلاع على تاريخ الشعوب والامم .

وكان الامر طبيعياً ان اسعى ما امكنني السعي الى الوصول نحو معرفـة تاريخ اسرة بني عثمان بصورة خاصة وتاريخ الشعب التركي بشكل عام ، تلك الاسرة التي مهما قيل عنها من صواب وشطط فاننا لا نستطيـع ان ننكر بأنها اول اسرة في التاريخ استطاعت ان تصل اسمها اتصالا لا ينفصل باسم عشرات الملايين من البشر الذين اقاموا الدنيا واقعدوها حقبة طويلة من الزمان ، وذلك الشعب (العثماني) الذي تصدى لقهر ثمان واربعين حملة صليبية متحدة في هدفها وعقيدتها ، وان اختلفت في بيئتها ولغتها ومناخها ، كمـا استطاع ايضاً في خلال ستة قرون ونصف ان يحمي البلاد المقدسة من كل معتد وغاصب .

ان اسرة من هذا الطراز وشعباً بهذه الصفة لجديران ان يخلقا في نفسية اي مشتاق لعلم التاريـخ حافزاً يحدوه الى الوقوف على معرفة تاريخهما الحافل بالعبر والغني بالعظات، والطافح بالاحداث .

وهذا مما جعلني ابذل أقصى ما لدى من التنقيب عن تاريـخ هذه الامة ، فلم اترك مكتبة من المكتبات العربية التي هيأت لي الفرصه ، الاتصال بها ، ما لم ابحث فيها عن ضالتي المنشودة ، وكان نصيبي الافلاس ، وبالتالي ذهبت اسأل ذوي الاختصاص من الاصدقاء ، علّي اجد عندهم ما اريـــد ، وكانت فرصة سعيدة عندما وجدت في مكتبة الاستاذ ناصر المنقور في مكة عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م كتاباً بعنوان (التحفة الحليمية في تاريـخ الدولة العلية) مطبوعـاً في القاهرة في ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م لمؤلفه ابراهيم حليم الشركسي الاصل ، ولئن كان الكتاب مختصراً وعلى ورق لا يشجع القارىء، الا انه لا يخلو من الفائدة بل قد يكون رغم ايجازه شاملا لسرد جميـع الوقائع والاحداث والحملات الصليبية التي واجهتها الدولة العثمانية بكل بسالة ورباطة جأش ، وذلك منذ عـــام ٧٥٦ هـ وحتى السنة التي طبـع بها المؤلف كتابه في ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٩ م .

وفي اثناء مطالعتي البحث الخاص باستيلاء السلطان محمـــد الفاتح على مدينة القسطنطينية (استنبول) وقع نظري على حادثة بل بطولة خارقة قام بها عربي من جنود السلطان في المعركة التي فتح فيها القسطنطينية ، ولئن كانت تلك الحادثة من اهم الحوادث في فتح القسطنطينية ذلك الفتح الذي غير مجرى التاريخ، فان المؤلف مع الأسف لم يمر على ذكرها بادنى شيء من العبارات التي تتناسب وجلالة قدرها ، اللهم الا انه ذكرها ذكرا عابراً ، بل وفارغاً من كل معنى من المعاني التي تتناسب وشجاعة فاعلها ،وقد جاءت عبارة المؤلف نصاً حرفياً على النحو الاتي :

« وفي يوم الثلاثاء عشرين جمادي الاولى من السنة المذكورة أي ٨٥٧ هـ في الرابع والخمسين يوماً من المحاصرة هجم السلطان [١] بعساكره على الاستانة فدخلوها وخرج الامبراطور [٢] من سراية تكفور بعساكره خاصة للمدافعة وبيده السيد مسلول فوجد نفراً عربياً مجروحاً فاراد قطع رأسه فسبقه العربي الجريح بضربة بسيفه فقطع بها رأسه فتم الفتح » .

هذه العبارات بنصها الحرفي اوردها المؤلف ، بدون ان يذكر اسم العربي القاتـــل للامبراطور ، والذي يعتبر قتله له من اهم الاسباب التي سهلت فتح القسطنطينية التي كانت للصليبيين وقتذاك (كموسكو – لروسيا) « وكلندن للانكليز » بل وبدون ان يذكر الولاية التي ينتسب اليها البطل او القرية التي خلق فيها ، فيما اذا كان قروياً او القبيلة التي يتصل نسبه بها فيما اذا كان قبلياً ، وكلما في الامر انه ذكره ذكراً عابراً على الصيغة التي وردت آنفـــاً ، ولست ادري أهل كان الاهمال لاسم هذا الجندي الباسل جاء من المؤلف ؟ .. ام من المؤلفين الاتراك القدامى الذين كما ذكر المؤلف في مقدمة كتابه بأنه نقله عنهم؟..

والذي يخيل اليّ ان الاسباب التي حالت دون تخليد اسم بطل القسطنطينية تأتي كما يلي :

اولا – ان العساكر التي حاصرت القسطنطينية وان كانت خليطاً من الجنود المسلمين من الترك والعرب والاكراد والشركس الخ .. فان الاكثرية ولا شك كانت للاتراك كما ان القيادة ايضاً للسلطان التركي .. وهذا مما يجعل اي عمل يقوم به الافراد الاقلية يضيع ذكره وتدرس معالمه وتختفي آثاره بـــين عدد القوم الذين تتألف منهم الاكثرية والقيادة معاً ، كما اختفى ذكر البطولة التي

---

(١) السلطان هو محمد الفاتح ابن السلطان مراد الثاني .

(٢) الامبراطور هو قسطنطين الحادي عشر آخر الاباطرة البيزنطيين .

قام بها نفر من الجنود السعوديين سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٤٨ م في حرب فلسطين لا لانهم اقلية بجانب الجيش المصري فحسب بل لان القيادة كانت ايضاً لاخواننا المصريين .

ثانياً - هو ان المؤرخين الذين كتبوا تاريخ تلك الحقبة من الزمان لا يخلو الامر من ان يكونوا من احد النوعين ، فاما ان يكونوا من الأتراك ومعناه انهم كتبوه باللغة التركية وظل ذلك التاريخ على ما كان عليه بدون ان ينقل الى اللغة العربية . وقد يكون هناك من المؤرخين من ذكر اسم البطل بلغة قومه اي التركية . وظل الاسم مغموراً في طي الاهمال بسبب عدم ترجمته الى اللغة العربية .

ثالثا - هو انه قد يكون كاتب التاريخ في تلك الفترة من احد الكتاب الاجانب الغربيين الذين تطوعوا لكتابة تاريخ العصور الوسطى التي تعتبر حسب اصطلاح المؤرخين من القرن السادس الى القرن الثالث عشر الميلادي، فالمؤرخون اما ان يكونوا كتبوا تاريخهم باللغة الفرنسية اذا كان المؤرخ فرنسياً او باللغة الانجليزية اذا كان انجليزياً، ومن بدهيات الامور ان المؤرخ الذي هو من احدى الطائفتين ، قد لا يحاول ان يسمى جاهداً من اجل ان يصل الى معرفة اسم او كنية ذلك البطل العربي الذي يشفر ان في قتله لقسطنطين الحادي عشر قتلا لآماله العدوانية واهدافه الاجرامية، بل قتلا وقضاء مبرما لغزوات اسلافه الصليبين .

اجل إن الكاتب الذي من إحدى هاتين الفئتين سوف لا يحاول بقدر ما يحاول ذلك المؤرخ الانجليزي :(هـ. ا. ل. فشر) تمجيد واطراء الامبراطورة سطنطين الحادي عشر في كتابه (تاريخ اوروبا والعصور الوسطى - الطبعة الثالثة: ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ص ٤٥٩ وقد اطرى المؤلف قسطنطين السالف الذكر بالعبارات التي جاء نصها الحرفي كما يلي :

« وفي هذه السنة الحرجة في خاتمة الامبراطورية البيزنطية سطع اسم قسطنطين الحادي عشر في سماء البطولة ، وبرهن هذا الامبراطور الى حل نصفه بين العثمانيين والبيزنطيين[1] او الجود بالنفس في حومة الدفاع عن القسطنطينية ».

وفي صفحة ٤٦٠ قال المؤلف ابن التايمس ما يلي : « ومعنى هذا كله ان التقصير المسيحي هو الذي جعل القسطنطينية تخور وتمور وتتهدم تحت ضربات العثمانيين وجعل آخر الاباطرة البيزنطيين يخر صريعاً شريفاً والامبراطورية نفسها تئن انين الموت في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ م الخ » ...

نحن لا نلوم المؤلف الاستاذ هـ. ا. ل. فيشر على اطرائه لابن ملته الامبراطور قسطنطين وان يكن مصرعه بالصفة التي قتله بها العربي الجريح لا يستحق ان يقال عنه صريع شرف لانه جاء قاصداً ان يجهز على جريح مثخن بالجروح لا ان يبارز فارساً سليم القوى وجها لوجه . وقتل الجريح في عالم الخلق الحربي الاسلامي والانساني معا يعبّر أسوأ التعبير عن حقارة ونذالة نفسية القاتل ، ولكنني الوم المؤرخ التركي المسلم الذي اهمل اسم عربينا بطل القسطنطينية وهو تربطه به رابطة الروح التي لا تقل وثوقا من الرابطة التي تربط الاستاذ (هـ. ا. ل. فشر) بالامبراطور قسطنطين اذا لم تكن اعمق جذوراً وارسخ اصولا ولا سيا في تلك الحقبة من الزمان عندما كانت الرابطة الروحية بين العربي المسلم والتركي المسلم أمتن وأرسخ من رابطة الدم والنسب .

والذي تجدر اليه الاشارة هو انيخلال اقامتي في تركيا في مفوضية حكومة وطني ، سألت اكثر من واحد من مثقفي الاتراك الذين سنحت لي الفرصة بالاتصال بهم وخاصة الذين يقال عنهم بأن لهم الماما في علم التاريخ . ويؤسفني اني لم اجد عند كل من اتصلت به ادنى علم عما اسأل عنه . اللهم الا انه في ذات يوم وفي مناسبة ما زرت الاستاذ قاسم جوليك وزير المواصلات سابقا

(١) هذه الجملة التي بين قوسين نقلتها من كتاب المؤلف المذكور كما وردت بمعناها المبهم »

والممثل لحكومته التركية في المؤتمرات الدولية ، ولما كان الرجل غزير العلم ويحتفظ بمكتبة تحتوي على آلاف الكتب النفسية فقد طاب لي وقتها ان اسأله عما يعرفه عن قصة بطل القسطنطينية فأجاب بأن القصة لم تكن غريبة عليه ، بل أثبت صحتها من حيث المبدأ ولكنه قال : لا يذكر اسم العربي القاتل للامبراطور كما وعدني (جليك) بأنه سوف يتعقب الموضوع ويفتش عنه في المراجع التاريخية ويفيدني مفصلا فيما بعد . ولكنه للاسف حتى كتابة هذه الاسطر لم يفدني بالرغم من انني اجتمعت به عدة مرات وسألته عن ضالتي المنشودة ، وكان جوابه مواعيد عرقوب[1] .

* * *

١ كان الاولى بهذه القصة ان تكون في الفصل الاول من الخاص بالشجاعة الحربية ، ولكن الذي حصل انه بعدما انتهت ملازم هذا الكتاب من الطبع وقع نظري صدفة على مسودتها وعندئذ ادركت انني نسيت تقديمها للمطبعة .

فهرس الجزء الثالث

تابع الفهرس

تابع الفهرس

انتهى الفهرس



استـــدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية . وعلى الرغم من وضع جدول موضحاً فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئية التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الادارية من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتــاب كهذا الكتاب البالغ صفحاته ما يزيد عن الف صفحة ونيف الشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحــاب المطبعة بحكم جهلهم بمعرفتها بقدر ما تفوت علي ايضاً لانني حافظ لها غيباً مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قرائتي لها بعيني ، واعتقد جازماً انه لولا وجود الاستاذ حمد الجاسر العالم بالأدب الشعبي كعلمه بالأدب العربي لولا ذلك لوقـــع من الغلطـــات في القصائد الشعبية ما هو اكثر من ذلك .